مجموعة الكتب المترجمة

تاريخ أفريقيا

تأليف

دونالد ويدنر

ترجمة

الدكتور راشد البراوي

تاريخ أفريقيا جنوب الصحراء

تأليف

دونالد ويدنر

ترجمة

الدكتور راشد البراوي

الناشر

مكتبة الوعي العربي

٥ شارع كامل صدقي بالفجالة

A History of Africa : South of The Sahara

Published by The Random House, New York

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة - الفجالة
تليفون ٩٠٥٢٩٦

فهرس

الكتاب الأول

أفريقية القديمة

الكتاب الثانى

أفريقية تصنع من جديد

مقدمة

— ١ —

تمهيد

هل لإفريقية تاريخ ؟ يمكن القول بأن التاريخ يصنع حيثما وحيثما قد يعيش الإنسان ، وقد وجد الإنسان فى إفريقية ، زمناً طويلا ، شأنه فى أى مكان آخر . ولقد جرى القول بأن التاريخ لا وجود له إلا حيث تتوافر لدينا من السجلات المكتوبة المتماسكة والمخلفات الأثرية ما يكفى لتكوين نمط زمنى يمكن تفسيره . وكانت مصر ووادى النيل وشمال إفريقية ، موضع الاعتقاد طويلا بأنها الأماكن التى لها مثل هذا التاريخ ، ولكن جنوبى تلك الأقاليم نادراً ما أزاحت الأدوات التقليدية الغطاء عن مصادر تحقق مثل هذا التماسك . وكان المعتقد أن ليس لإفريقية تاريخ سوى ما كتبه المكتشفون والمستعمرون من أهل حوض البحر المتوسط وأوربا فى الأزمنة الحديثة تماماً ، وأن الشعب الإفريقى لم يكن له تاريخ إلا بعد أن اتصل بالأوربيين .

هذه النظرة تغيرت تغيراً جوهرياً بفضل الأساليب الحديثة والتطورات الحديثة فى الاتجاه إلى هذا الموضوع . لم تعد الوثائق والآثار بالمصادر الوحيدة التى تستقى منها المعرفة التاريخية ، وأخذت الأساليب البديلة تزودنا بمادة صحيحة كثيرة فى السنوات الحديثة ، بل وفى حالات عدة أدت الأساليب الجديدة إلى اكتشاف وثائق أو مخلفات إفريقية لولاها لما ظهرت أبداً .

إن البحث الذى لا يستخدم بالضرورة الوثائق أو الآثار ، أخذ ينمو على

نطاق واسع نتيجة استخدام المعرفة العلمية والنفسية فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وجاء تطبيقها على إفريقية ، فى صورة علمى الأجناس والاجتماع ، متأخراً نسبياً ، ولكن اكتشف أن الإفريقيين قد احتفظوا بتقليد عريض فى كل الأساطير العلمانية والدينية ، والكثير منها تركيبات خيالية أو تفسيرات لظواهر غير معروفة . والعادة أن أقرب الأساطير إلى التصديق ، تضع التأكيد على القوائم التى تتضمن أسماء الملوك والمعارك وربما الهجرات الكبرى ، وغالباً ما يتعرض تحديد تاريخ وقائع معينة للتغيير أو الحذف ، وغالباً ما يقع التبديل بطريقة تعسفية فى ترتيب الأسماء والأحداث . ويذهب الشكاك إلى أن الأساطير لاتعدو فى دقتها لعبة من الألاعيب التى قوامها الحظ . ولكن هناك أساليب عدة يمكن بها تصحيح العناصر المضطربة فيها ، وفصل الأساطير الصحيحة عن الخيال . فإذا كانت الرواية الشفوية تسجل بوضوح أحداثاً وصفها أيضا الكتاب الأوربيون أو العرب ، فمن المحتمل أن تصدق تفاصيل أخرى كثيرة فى الرواية ، ويمكن إثبات التواريخ . وأحياناً يساعد علم الآثار على إثبات صحة أسطورة . وهناك على الأقل رواية شفوية تضمنت تفصيلات عن كسوف الشمس منذ ٢٥٠ عاماً ، وهذا يطابق تماماً الحسابات الفلكية الأوربية . وفى بعض الحالات يجرى تعريف حقوق ملكية الأرض ، قروناً ، وصحة هذه الذكريات ذات أهمية حيوية لكل جيل بحيث يكاد يستحيل أن تكون فيها أخطاء كبرى . وغالباً ما يستمع الى الرواية ويصحح روايته غيره من رجال القبيلة ممن يعرفونها أيضاً . وقد تكون أساطير قبيلة ما مشابهة

لأساطير جماعة أخرى ، ولكن هذا الضرب من الدليل ليس قاطعا بسبب إمكانية الافتراض . لكن مثل هذه الأساطير تحتفظ عادة بمعان تنم عن نشأتها وانتقالها وأحيانا عبر مسافات كبيرة أو بطريق الوسطاء وهذه المعانى فى حد ذاتها ظاهرة تاريخية لها أهميتها .

وثمة عدد من الروايات والأخبار لها قيمتها القصوى — وبعضها كتبه الرحالة أو العلماء العرب ، وقلة منها كتبها الأفريقيون الزنوج باللغة العربية — وهذه تلقى الضوء على أحداث جرت فى أجزاء من إفريقية الشرقية والغربية جنوبى الصحراء الكبرى ، قد يرجع تاريخها فى بعض الحالات إلى أكثر من عشرة قرون قبل وصول الأوروبيين فى العصر الحديث .

لذلك فإن لإفريقية تاريخاً خاصاً بها . ويمكن أيضاً توسيع نطاق الخبر واختباره باستخدام روايات الرحالة والفاتحين والتجار من البلاد التى طورت فن الاحتفاظ بالسجلات،ومن المزيج الفريد من المصادر التاريخية الإفريقية تبرز عدة موضوعات متكررة . وعلى ضوء هذه الخلفية من التنظيم القبلى والثقافة القبلية ، يجب أن يبحث المؤرخ النمو المحلى ، من سياسى واقتصادى وجغرافى وثقافى ودينى . هذه المجتمعات ، وإن ظلت تواصل هذه العمليات ، تبدأ أيضاً فى التفاعل مع المؤثرات التكنولوجية والتنظيمية الأوروبية ، ثم يزداد الإفريقيون من أبناء القارة وأوربا ، بوصفهم جزءاً من العالم الحديث ، فى الاتصال بعضهم ببعض،وبالعالم الخارجى، بينما يعمل الجانبان على أن تتلاءم تقاليدهم التاريخية المتغيرة مع البيئة والظروف السائدة . إن التجانس فى إفريقية لايزيد أو ينقص عنه فى أوربا أو أمريكا . ولا ينبغى أن يكون من الضرورى فرض وحدة

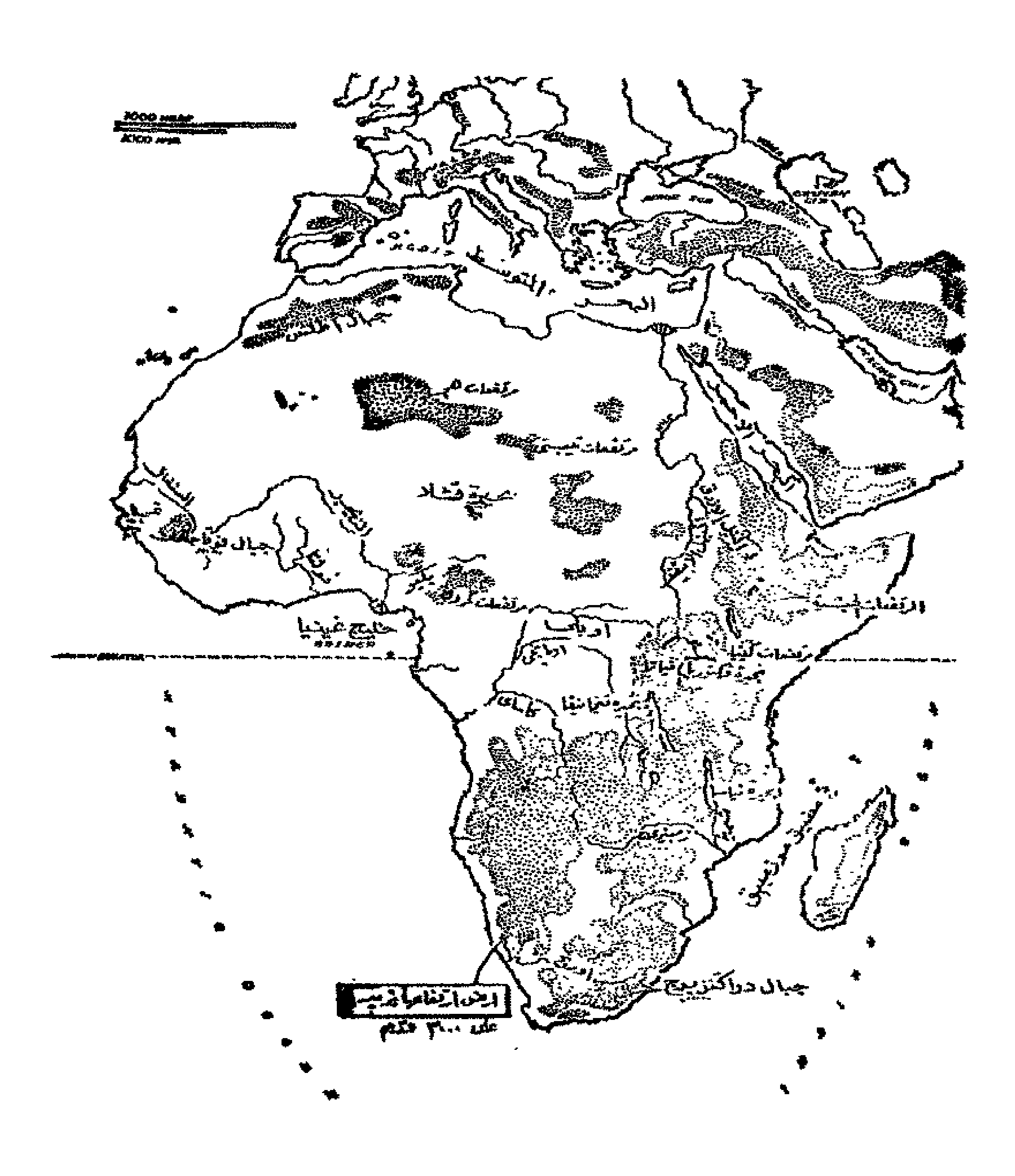
اصطناعية من أجل تبرير دراسة منطقة كبيرة نسبياً . إن فى الإمكان عن طريق الاستعراض العام ، دراسة التنوع فضلا عن التشابه .

لقد كان ساحل إفريقية المطل على البحر المتوسط والذى يتركز حول مصر ولكنه يمتد مع الإسلام غرباً إلى مضيق جبل طارق ، موضوعاً يعرفه القراء والمؤرخون الغربيون ، وكانت إفريقية جنوبى الصحراء غير معروفة بالفعل لأية حضارة فى العصور القديمة أو الوسطى باستثناء الحضارة العربية . ولهذا نادراً ما توافر الاهتمام الكثير بالأقاليم الواقعة جنوب الصحراء ، وراء المجرى الرئيسى لنهر النيل وجنوب مرتفعات إثيوبيا . وبذلك فإن هذا الجزء من إفريقية ، وليس المنطقة الجغرافية بأسرها، هو أنسب وحدة يوجه إليها النظر فى الوقت الحاضر .

خلفيـــة الصورة

إلى الجنوب من الصحراء الكبرى ، تلك الصحراء الفسيحة الأرجاء التى تمتد فى شمال أفريقية لا نلقى المظهر الغالب هو الجبل أو الدغل الذى يثير الخيال ، وإنما هو البطاح الشاسعة التى تتكون من أرض تكسوها الحشائش وتتخللها بصورة غير منتظمة الأشجار ، أو ينساب فيها عرضاً نهر بطىء الجريان . هذه الأرض المغطاة بالحشائش تشبه إقليم البرارى البكر الذى يمتد بين تكساس وولايتى داكوتا ، وإن تكن فى العادة أكثر دفئاً وأشد جفافاً معظم السنة . ويشكل سقوط المطر فى أفريقية مشكلة خاصة لأنه يتركز عادة فى فصل واحد من السنة، وغالباً ما لا يكفى لسد المطالب المفروضة على الأرض ، وليس من قارة غير أستراليا تقل فيها الجبال والمرتفعات كما فى إفريقية ، كما أن أمريكا الجنوبية وجنوب آسيا يضمان من الغابات الاستوائية المطيرة التى جرى العرف على إطلاق اسم « الأحراش » عليها أكثر مما نجده منها فى أفريقية .

وتبلغ مساحة أفريقية حوالى ١١,٦٠٠,٠٠٠ ميل مربع يكاد ٥,٠٠٠,٠٠٠ منها أن يقع فى الصحراء الكبرى على امتداد البحر المتوسط ومن الباقى ، وقدره ٦,٦٠٠,٠٠٠ ميل مربع جنوبى الصحراء الكبرى (أى ما يعادل ضعف مساحة الولايات المتحدة) نجد حوالى ٢٠ فى المائة عبارة عن غابات استوائية مطيرة حيث المطر أغزر والنبات أشد كثافة مما فى جنوب شرقى الولايات المتحدة ، أما النسبة الباقية وهى ٨٠ فى المائة فى ذلك القسم من إفريقية الواقع جنوبى

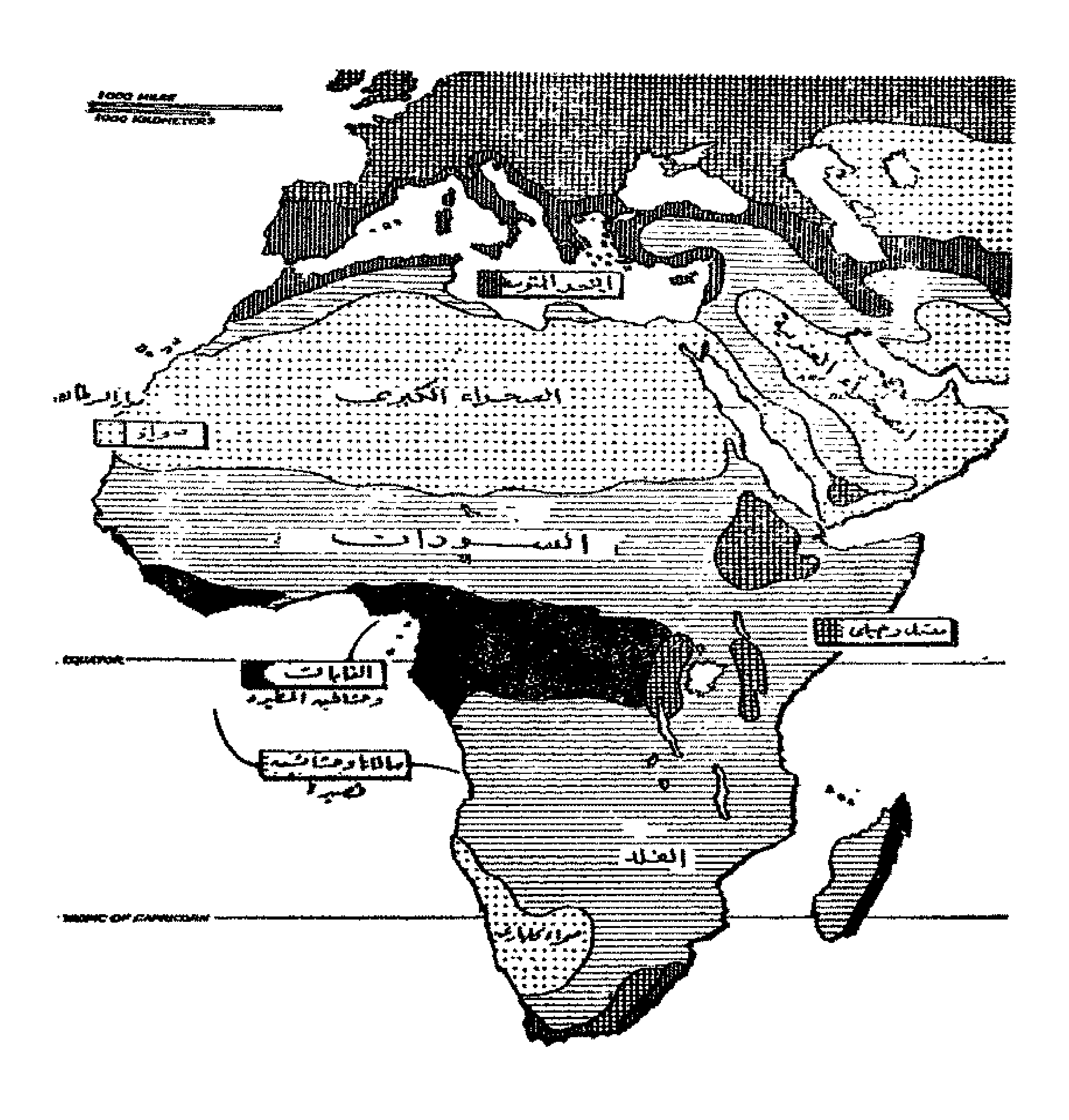


تضاريس أفريقية

الصحراء الكبرى ، فيقل فيها المطر عنه فى ميامى بولاية فلوريدا . إذا استثنينا الصحراء الكبرى نفسها فليس ثمة جزء فى إفريقية يسجل درجات من الحرارة تبلغ فى الارتفاع مثيلاتها فى شرق الولايات المتحدة ، ولكن جبال جنوب إفريقية وحدها هى التى تصل فيها درجة البرودة فى الشتاء إلى مثلها فى وشنطن بمقاطعة كولمبيا. وإذا استثنينا الغابة المطيرة ، فإن مدى التفاوت فى مناخ إفريقية يقارن على العموم بالمدى السائد فى المنطقة الممتدة عبر تكساس من لويزيانا إلى نيومكسيكو .

ويتراوح مناخ شمال إفريقية على امتداد ساحل البحر المتوسط بين المناخ شبه الاستوائى والمعتدل حسب درجة الارتفاع . وواضح ما يميزه عن مناخ الشاطئ الأوروبى من البحر المتوسط أنه أشد جفافاً بدرجة طفيفة، وأنه باستثناء مراكش والجزائر يتحول بسرعة إلى الأوضاع المناخية الصحراوية . والصحراء الكبرى أميل إلى أن تكون صخرية منها رملية ولهذا تضم عدة منابع مائية هامة يمكن الاعتماد عليها ، أو واحات تبرز من تلك المساحة ذات المعالم المتنوعة ، والبالغ مساحتها أربعة ملايين ميل مربع ، ولا تتخللها فى أية نقطة منها تضاريس ذات شأن فيما عدا نهر النيل الصالح الملاحة إلى حد كبير ، والذى يشكل مورداً أصلياً للرى .

وإلى الجنوب من الصحراء الكبرى يبدأ إقليم السافانا حيث يمكن الإبقاء على الزراعة الجافة . وتزداد حشائش السافانا غزارة وارتفاعاً إلى أن تنتقل فجأة إلى الحد الذى تبدأ عنده الغابات المطيرة فى الغرب والوسط . وفيما بين الغابات المطيرة والمرتفعات الأثيوبية يكوّن النيل مستنقعات كثيرة ، ينمو بها ورق



مناخ افريقية

البردى وتعرف باسم « السدود ».وإذا ابتعدنا فى اتجاه أعالى النيل ألفيناه يمس الحافة الشرقية للغابة المطيرة، ويأتى بنوع من السافانا يمتد حتى إفريقية الاستوائية والبحيرات الإفريقية العظمى ، وفى اتجاه الغرب وعلى امتداد نهر الكونغو وساحل المحيط الأطلسى تجد الغابات المطيرة ، وفى الشرق مرتفعات كينيا ذات المناخ المعتدل ، والبطاح المحيطة بها . وفى الجنوب الشرقى شجيرات مدارية جافة ؛ وثمة شريط من الأرض الخلاء يواصل امتداده مخترقاً وسط القارة حتى جنوب إفريقية حيث يأخذ فى الاتساع مسكوناً المرج « الفلد veld » الذى هو بدوره أرض منطاة بالحشائش شبيهة تماماً بالسافانا الشمالية . ويضم جنوب إفريقية أيضاً سلسلة من المرتفعات الساحلية تلقى وراءها بجوار المحيط مناخاً يعرف باسم « رأس البحر المتوسط » لأنه شبيه بمناخ الريفييرا ، وهناك صحارى مجدبة ومحدودة المساحة شرق كينيا فى « قرن » الصومال وشمالى إقليم رأس الرجاء الصالح .

وبالرغم من أن معظم إفريقية جنوب الصحراء الكبرى يتميز هكذا بمناخ يغلب عليه التجانس إلى حد ما ، فإن هناك مساحة محدودة من الغابات المطيرة تتسم بالتفاوت الذى يثير النظر من حيث المطر والنبات . وفى ثلاثة أرباع هذه المساحة التى يقال لها «الأحراش» يتراوح متوسط المطر السنوى بين٥٩،٧و٧٨ بوصة فى المتوسط مقابل ٦٧٫٦ فى موبيل بولاية ألاباما ، أما فى الربع الباقى من منطقة الغابات المطيرة أى حوالى ٥ فى المائة من المساحة الواقعة جنوب الصحراء — فإن المتوسط يتراوح بين ٧٨٫٧ بوصة ومايقرب من ٤٠٠ بوصة . مثل هذا المطر الغزير يسقط فى ثلاث مناطق وهى(١) أجزاء من غينيا وسيراليون وليبيريا وساحل العاج (٢) وحوض الكونغو الأوسط (٣) ودلتا النيجر وساحل

الكمرون ، أما الحزام الذى يبلغ متوسط المطر فيه ٢٠٠ — ٤٠٠ بوصة ، فلا يوجد إلا على منحدرات جبل كمرون .

والنبات كثيف فى الغابات المطيرة ، وتختلف اختلافاً بالغاً طبيعة ورق الشجر والأشجار الكبرى من حيث النمط والدوام ، ولكن هذه الخواص تتمشى منطقياً تماماً مع كمية المطر ، فلو كثر المطر لكان معظم حوض الكونغو والإقليم الذى يليه إلى الجنوب مباشرة غابة مطيرة ولكننا بدلا من هذا نجد غابة جافة تنمو بها الأشجار الكثيفة فى أوراقها ، فتحول المنطقة إلى مسافات تغطيها الحشائش . وعلى طول الساحل الجنوبى الشرقى (موزمبيق وناتال) مساحات متفرقة ينمو بها نبات غابات الأمطار ، وهذه الظاهرة ترجع إلى المطر الذى يسقط بانتظام على مدار السنة أكثر مما ترجع إلى سقوط كمية بالغة من المطر .

وإذا استثنينا الساحل الجنوبى الشرقى فإن شهور المطر فى أفريقية واضحة يمكن التنبؤ بها . وهناك نمط متصل من التغير فى هذه الفصول من الشمال إلى الجنوب ، ولاتوجد أية مسالك واضحة للعواصف بين المنطقتين المعتدلتين عند البحر المتوسط ورأس الرجاء الصالح فيما عدا موزمبيق أيضاً التى تقع على حافة حزام من العواصف المدارية .

وتعزى الحدود السياسية إلى عوامل تاريخية معقدة ، وغالباً ما كانت تعسفية أكثر مما تعزى إلى العوامل الجغرافية ، ولكن العوامل الجغرافية هى التى حددت حوض فعلا طرق المواصلات والتجارة إلى أن جعلت القوة الأوربية السياسية والتكنولوجية فى الإمكان تحدى الطبيعة .

وهناك ثلاثة أنهار كبرى وهى النيل والنيجر والكونغو تكادأن تكون أهميتها للملاحة مثلما كانت عليه ، ولكن فائدتها للنقل محدودة بسبب العوائق المختلفة فى الشلالات والجنادل والحواجز الرملية والتقلبات الفصلية فى كميات مياهها ، أما الأنهار الأصغر شأناً مثل شيريه وفولتا والسنغال وغينيا فنادراً ما استخدمت حتى الأزمنة الحديثة .

وينتشر السكان فى جميع إفريقية الغربية والشرقية والوسطى والجنوبية ، كما نلقى بعضهم متفرقين عبر الصحراء الكبرى ، ولكننا نجد أشد تركز السكان على طول ساحل إفريقية الغربى بين نهرى السنغال والكمرون ، ويزداد كثافة بنوع خاص فى دلتا النيجر ونيجيريا الشمالية والإقليم المتاخم للبحر من دلتا النيجر ونيجيريا الشمالية والإقليم المتاخم للبحر من غانة وحول البحيرات العظمى وعلى طول سكة حديد كينيا — أوغندة ، ولكن السكان أشد تركزاً فى رواندا — أوروندى وفى الأجزاء الشرقية والجنوبية من روديسيا الجنوبية وجمهورية جنوب أفريقية . هذه المناطق الأشد ازدحاماً بالسكان يمكن مقارنتها بوجه عام بتغييرات الكثافة السكانية فى داخل فرنسا أو بولندة أو فرجينيا، ولكن فى المنطقة الأعظم مساحة والممتدة جنوبى الصحراء الكبرى يتفرق السكان شأنهم فى شمال السويد أو فى السهول الأمريكية .

وعظم انتشار توزيع السكان الإفريقيين تطور حديث النشأة تماماً إذ من المرجح أن أعظم تركز سكانى منذ خمسمائة عام خلت كان حول مناطق النيجر والبحيرات العظمى الاستوائية . ويبدو أن سواحل إفريقية وأجزاءها الجنوبية كانت قليلة السكان . ومن المحتمل أن الأجزاء الجنوبية والوسطى من الصحراء

الـكبرى كانت فى الأزمنة القديمة أشد أجزاء القارة ازدحاماً بالسكان ، والذين كانوا يقاون فى الجهات التى يطلق عليها فى الوقت الحاضر اسم السافانا والغابات ولذلك شهدت الصحراء أقدم تاريخ فى إفريقية ، وبعد ذلك ينتقل الاهتمام إلى سافانا النيجر ، وشواطئ بحيرة فكتوريا .

ويدل عدد من الكشوف الحديثة على أن الجنس البشرى ربما نشأ فى إفريقية . ويبدو أن اقدم النماذج كانت أشد شبهاً من ناحية المظهر والسلوك بالبوشمن والأقزام الحديثين والسكان الأصليين فى أستراليا . ولا يستطيع العلماء الاتفاق على ما إذا كان القوقازيون والزنوج الحديثون من سلالة تلك النماذج الأصلية ، أو أنهم تطوروا على نهج مماثل[1] ولكن يبدو من المحتمل أن نماذج البوشمن كانت منتشرة من جنوب إفريقية عبر إفريقية الشرقية إلى أثيوبيا ، بينما تسرب الأقزام من كينيا الغربية عن طريق الكونغو والغابات المطيرة الساحلية بإفريقية الغربية ، وامتص العنصران الأخيران الأجناس شبه الأسترالية ولكن البقية هاجرت عن طريق آسيا إلى أستراليا والإقيانوسية[2] .

---

(١) أنظر مؤلفات :

L.S.B. Leaky ; Adam's Ancestors (4th ed.) London 1953

تقرير مؤتمر المعهد الملكى للأنثروبولوجيا

Early Human Remains in East Africa (Cambridge, 1933) ; Proceeding of the Ist Pan-African Congress on Pre-History, Oxford, 1952.

(٢) تناقش سونيا كول Sonia Cole تعقيدات هذه النظريات والنظريات التالية فى كتابها The Prehistory of East Africa. (Harmondsworth, 1954)

وهنريت اليمن Huriette Alimen فى (لندن ١٩٥٧) The Prehistory of Africa.

وبدأت الأنواع القوقازية تظهر أيضاً فى غرب كينيا وهم يعرفون بأسماء مختلفة منهم الكبسيون والكوشيون الأوائل أو الحاميون الأوائل ، ولكن ليس ثمة اتفاق على ما إذا كانت هذه سلالة تطورت من الأسلاف البوشمن أو أنها سلالة أخرى مستقلة . والمعتقد أن هؤلاء القوم هاجروا نحو الشمال الشرقى إلى بلاد العرب وآسيا الغربية ، كما هاجروا نحو الشمال الغربى أيضاً إلى مصر وشمال إفريقية .

وقد أوحى العلماء الحديثون (وأشهرهم جوزيف ، جرينبرج)[١] أن لفظ كوشى ينطبق على هذا الجنس القوقازى الأصلى وأن لغتهم الأساسية تدعى الأفرو — آسيوية (الحامية سابقاً) وبذلك يكون البوشمن اسماً لجنس آخر تعرف لغته باسم خويسان . ولا يعرف على وجه التحديد شىء عن لغة الأقزام ، لأن هذا الجنس اتخذ تماماً لغات الأجناس التى غزته فيما بعد .

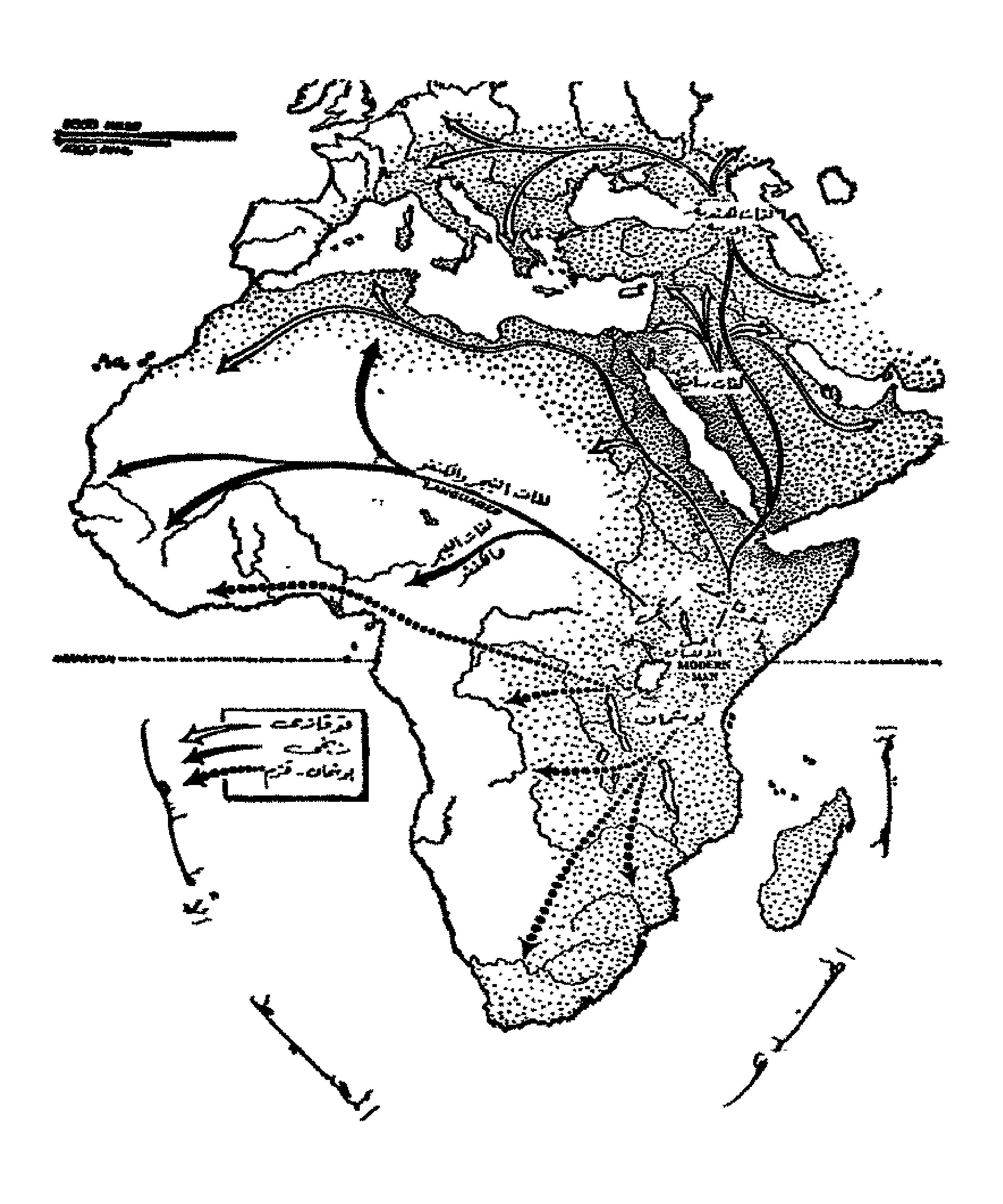
وكان أصل الزنوج أعظم لغز ، فقيل إنهم فرع من الكوشية أو إنهم نتاج امتزاج الكوشيين بالبوشمن أو الأقزام ، أما النظريات التى كانت تربطهم بزنوج الهند أو إندونسيا والذين هاجروا بطريقة خفية دون أن يخلفوا وراءهم أى دليل لنظريات فلم تعد موضع القبول الآن .

وتحديد الزمن الذى حدثت فيه هذه التطورات فى عصر ما قبل التاريخ

---

(١) Joseph H. Greenberg : Studies in African Classifications
(نيوهافن ١٩٥٥ ، ص ٥٤ — ٥٥) .

أما الخلاصة الأقدم عهداً والتى قدمها C. G. Seligman فى كتابه Races of Africa فأصبحت بالية .



الأجناس فى افريقيه قبل عام ٣٠٠ ق.م (افتراضية)

هو بالضرورة تحديد تقريبي ونسبي إلى أن تجرى أى أبحاث جديدة حـــول الموضوع ، ولـكن يظهر أن الـكوشيين والبوشمن والأقزام كانوا متميزين تماماً عن بعضهم بعضاً قبل عام ١٠٠٠٠ قبل الميلاد (٢) والـكوشيين الذين كانوا يكتسبون خواص قوقازية دخلوا مصر حوالى ٥٠٠٠ ق.م ،ولـكن (٣) الزنوج لا يمـكن تمييزهم قبل سنة ٦٠٠٠ ق . م (بل وسنة ٤٠٠٠ ق . م كما أوحى البعض).وعندما ظهروا بالفعل كانوا فى الصحراء الـكبرى بعيدين عن منطقة الغابات المطيرة ولـكن دون أن يتاخموا البحر المتوسط وينتشروا من النيل إلى المحيط الأطلسى تقريباً ، وأفضل حدس لا تدعمه إلا أدلة ضئيلة يذهب الى أنه يبدو أن الزنوج كانوا فرقاً من الـكوشيين المقيمين فى أعالى النيل على قرب عديد من كينيا ، وأنهم انتشروا بسرعة فى اتجاه الغرب . وبقدر ما يستطيع أن يطالعنا به العلماء فإن احتلال الصحراء الـكبرى الأولى ، تم على أيدى أشباه الزنوج الذين سرعان ما غلبوا على المنطقة كلها ، وكان معظمهم يتـكلم لغات النيجر والـكونغو المعروفة سابقاً (بالنيجريقية) .

وبذلك يبدو أن الجماعات الأربع العنصرية واللغوية الأساسية فى إفريقية نشأت داخل منطقة قطرها ٢٥٠ ميلا من بحيرة فـكتوريا وإن لم يكن معروفاً أنهم ينتمون إلى أصل واحد، والواضح تماما أن التوزيع الجغرافى حوالى سنة ٤٠٠٠ ق.م كان على النحو الآتى تقريباً : البوشمن فى جنوب وشرق إفريقيا ، الأقزام فى الغابات المطيرة ، ومعظم الغابات الجافة جماعات من القوقازيين على طول الشاطىء الإفريقى والآسيوى للبحر الأحمر وعبر الإقليم الساحلى الشمالى لإفريقيا حتى المحيط الأطلسى (مراكش) . وانتشرت جماعات قوقازية من بلاد العرب مخترقة أرض الجزيرة إلى أوربا وآسيا الوسطى ، والزنوج فى الصحراء الـكبرى

والسافانا شمالى الغابات المطيرة . ويبدو أن التقسيمات اللغوية كانت شبيهة بالخطوط العنصرية فقد تفرعت من القوقازيين والأفرو — آسيويين خمس مجموعات لغوية فرعية، وهى السامية فى بلاد العرب وما بين النهرين، والبربرية على طول الساحل الشمالى الغربى من إفريقية ، والمصرية القديمة والشاوية فى الصحراء الكبرى ، والكوشية المبكرة فى أثيوبيا . وبدأت تظهر تقسيمات النيجر — كونغو ، وأكبرها شأناً ماندى أو ماندنجو (غرب الصحراء الكبرى) والنجريقية الشرقية أو أداما الشرقية (شرق الصحراء) والبانتوية، وتعرف أيضاً باسم النجريقية الوسطى ، أو شبه البانتوية (جنوب شرق نيجريا ومرتفعات الكمرون) . ويبدو أن الزنوج فى وادى النيل ابتدعوا أسرة لغوية متميزة تماماً يقال لها السودانية، وربما كانت هذه مرتكزة على امتزاج لغات الشعوب النيولينية أو أنها لغة انشقت فى تاريخ مبكر من أسرة اللغة النجريقية .

من الصعب أن نكون أكثر دقة نظراً لأن الذين كانوا يتكلمون بالسودانية كانوا يتزحزحون بصورة متكررة بفعل غزوات المصريين القدماء والأثيوبيين الكوشيين والزنوج ممن يتكلمون النجريقية الشرقية قبل عام ١٠٠٠ ق . م . وزاد الاضطراب بعد ذلك بسبب الغزوات التى شنها المصريون الساميون وأهل النجريقية الشرقية وغيرها من مختلف جماعات تجار الرقيق، وثمة مجموعات لغوية أخرى ليست واسعة الانتشار أو حلت تحليلا جيداً نلقاها فى القسم الشرقى من الصحراء الكبرى ووادى النيل ، ولكن بقية إفريقية اليوم يقطنه قوم يتكلمون اللغات الأفروآسيوية أو النيجر — الكونغو أو الخوسية .

ويبدو أن أربع جماعات بشرية فى العالم منعزلة بعضها عن بعض ابتدعت

فيما بين عامى ٨٠٠٠ و ٤٠٠٠ ق.م أساليب زراعية ثابتة . هناك اختلاف زمنى بالغ بين هذه المواطن الباكرة ، ولكن ليس من دليل على قيام اتصال بين أى اثنين منها وما كان فى مقدور أية جماعات أخرى أن تنقل هذه المعرفة . وفضلا عن هذا فالمحاصيل التى كانت تزرعها كل من هذه الجماعات وأساليبها وتنظيمها الاجتماعى تستبعد وجود اتصال بينهما أو نقل من واحدة إلى أخرى. وربما كانت التطورات المتميزة الأربع كالآتى (١) الفرع السامى من القوقازيين الذين يتكلمون اللغة الأفرو — أسيوية فى وادى الأردن أو دجلة (٢) الطراز المغولى فى شرق آسيا (٣) الهنود الأمريكيون بين المكسيك وبيرو (٤) وزنوج ماندى المقيمون فى السافانا الإفريقية على طول المجارى العليا لنهر النيجر بين الغابات المطيرة والصحراء الكبرى . ومن المحتمل أن مصر القديمة تعلمت زراعة المحاصيل من الأردن والعراق بينما انتشرت الأساليب الزنجية بالتدريج نحو الشرق من النيجر الأوسط إلى وادى النيل الأعلى . ثم مزجت ثقافات الهلال الخصيب والزنوج — وهو أول اتصال بين الثقافات الكبرى فى تاريخ الإنسان — ولكن ترتب على ذلك أن كان من الصعب فصل الإنجازات التى حققتها ثقافة ما عن غيرها .

ولقد درج الظن بأن الإنجاز الزنجى كان نتيجة انتقال أفكار أهل بلاد الجزيرة إلى زنوج السافانا عن طريق مصر والنيل ، ولكن التاريخ الكربونى والأدلة الأركيولوجية توحى بوجود بدايات منفصلة (٥٠٠٠ ق.م فى الفردون وقبل ٤٠٠٠ ق.م فى إفريقية) ولكن لم يحدث اتصال بين الاثنين فى مصر إلا فى تاريخ متأخر عن هذا بكثير .

إن تحديد الزمن الذى حدثت فيه هذه التطورات ومن ثم تحديد موقع هذه الثقافات وأهميتها النسبية والعلاقة السببية بينها — هذه كلها أمور لاتزال محتمل الشك . وأقـــوى حجة فى تأييد النظرية السابقة تستند إلى الأسس الأنثروبولوجية واللغوية التى اكتشفها جوركابيتر موردوك،ولـكن كريستوفر ريجلى أجاب بحجة مقابلة تفيد تأكيد أهمية الزراعة الفلسطينية ، وتجعل مكان الزراع والزنوج الأوائل على طول وادى النيل .

واستند رولان بورشير إلى وجهة النظر النباتية،فاعتبر أن الإفريقيين اخترعوا الزراعة بطريقة مستقلة عن غيرهم ، ولـكنه يجعل ظهورها فى تاريخ متأخر هو ١٥٠٠ ق . م . وبعد أن استعرض و . فيج هذه التفسيرات من وجهة النظر التاريخية أيد التواريخ التى حددها بورتير ، وينسب الفضل إلى الزنوج المقيمين على السواحل أو فى حوض النيجر الأوسط بدلا من الماندى[1] .

ومن المتفق عليه أن الزنوج أوجدوا فى تاريخ مبكر أنواعاً عدة مـن الحبوب (بما فيها الشكل الأساسى من السرغون وعدة أنواع مـــن الدخن

---

(١) George Peter Murdock : Africa, Its Peoples and their Culture

(نيويورك ، ١٩٥٩ ، ص ٤٠ — ٤٥ ، ٦٤ـــ٧٠)

Christopher Wrigley : Speculation on the Economic Prehistory of Africa

(مجلة التاريخ الأفريقى ج ١ رقم ٢ ص ١٨٩ — ٢٠٣)

Roland Porteres : Vieilles Agricultures de l'Afrique intertropicale (L' Agromnie Tropicale, vol V' 1950, P. P. 499—507)

J. D. Fage : Anthropology, Botany and History of Africa

(مجلة التاريخ الأفريقى مجلة ١ رقم ٢ ، ١٩٦١ ص ٣٠٢ — ٣١٤) .

والأرز)والبامية وأشكالا معينة من اليام ، والفول السوداني ، والشام والقرع المسلى ، والكولا والتمر هندى والسمسم . وظن ريجلى أن الكثير من هذه استعيرت أو جيء بها وتأقلمت فى تاريخ مبكر ، ولكن كلا المصدرين يتفقان على أن أهم الإنجازات كانت زراعة نبات القطن من النبات البرى Gossypium herbaceum واستخدام أليافه فى صناعة النسيج ، فضلا عن استخدام النباتات المنتجة للزيت (مثل أشجار النخيل) ، والمفروض أن معظم المحاصيل انتقلت إلى المصريين القدماء فيما بين عامى ٣٠٠٠ و ١٠٠٠ ق م ومن ثم إلى أوربا والهند والشرق . وكانت المحاصيل الكبرى التى نقلت من أرض الجزيرة ومصر بطريق النيل هى الشعير والقمح والبسلة والعدس ، ونباتات النيجر والبصل والفجل والكرنب والعنب والبطيخ والتين والتوت والزيتون والكتان وبعد ذلك وفدت من شرق آسيا نباتات الخيار والموز وقصب السكر والزنجبيل وأشكال جديدة من الأرز . وفى أثيوبيا أنتجت محاصيل مثل البن والجرجير بعد أن تعلمت الأساليب الزراعية من الزنوج والمصريين . وفى النهاية أدخل تجار الرقيق الأوربيون كثرى التمساح والطباق والذرة (الأمريكية) والليما والقطانى والقرع والطماطم .

واحتفظ الزنوج ربما طيلة ألفى أو ثلاثة آلاف سنة باقتصاد زراعى مستقر بين الغابة والصحراء ، وتشير أدلة كثيرة إلى أن المنطقة المعروفة الآن باسم الصحراء الكبرى كانت أوفر خصباً بكثير فى هذه الفترة ، وأنها كانت قادرة على توفير أسباب العيش لأعداد كبيرة من السكان كانت تقيم على قطعان الماشية التى ترعى هناك . ولقد زالت الشكوك حول خصوبة الصحراء سابقاً

بفضل العمل الذى قامت به بعثة لهوت[1] فى سنة ١٩٥٦/٥٧ والتى أبرزت الدليل على أن الزراعة بغير الرى كانت ممكنة خلال معظم الإقليم إلى حوالى سنة ٢٠٠٠ ق م ، وأن مرعى الماشية كان واسع الانتشار حتى حوالى سنة ١٠٠٠ ق . م ، وإنه كان فى الإمكان تربية الخيول على نطاق واسع حتى العصر الرومانى . وحوالى سنة ٤٦ ق . م. لم يعد فى الإمكان أن تعيش الخيول والثيران فى الصحراء ، وحل الرومان المشكلة بأن جلبوا الجمال من آسيا الوسطى ، غير أن سفن الصحراء هذه لم تكن كثيرة أو ذات أهمية حتى القرن الرابع بعد المسيح[2] .

من الصعب أن نتصور أن مساحة أكبر من الولايات المتحدة هى اليوم صحراء جرداء ، كانت يمثل هذا الخصب فى تاريخ يذكره الإنسان ، ومع ذلك فالدليل الذى قدمه لهوت وتقرير التجار الرومان والكشوف الأركيولوجية والتحليل الجيولوجى كلها تؤيد هذا التطور المثير للنظر .

ومن الصعب التأكد من الأسباب ، ويبـــدو أن التعرية والافتقار إلى المحافظة على التربة من جانب البربر المقيمين على الساحل والزنوج المقيمين فى الداخل كانا من بين تلك الأسباب . وهناك اليوم على طول حافة الصحراء

---

1) Henri Lhote : Peintures prehistor ques da Sahara

(كتالوج المعرض باريس ١٩٥٨)

La deconverte des Freeques Du Taseil

(باريس ١٩٥٨)

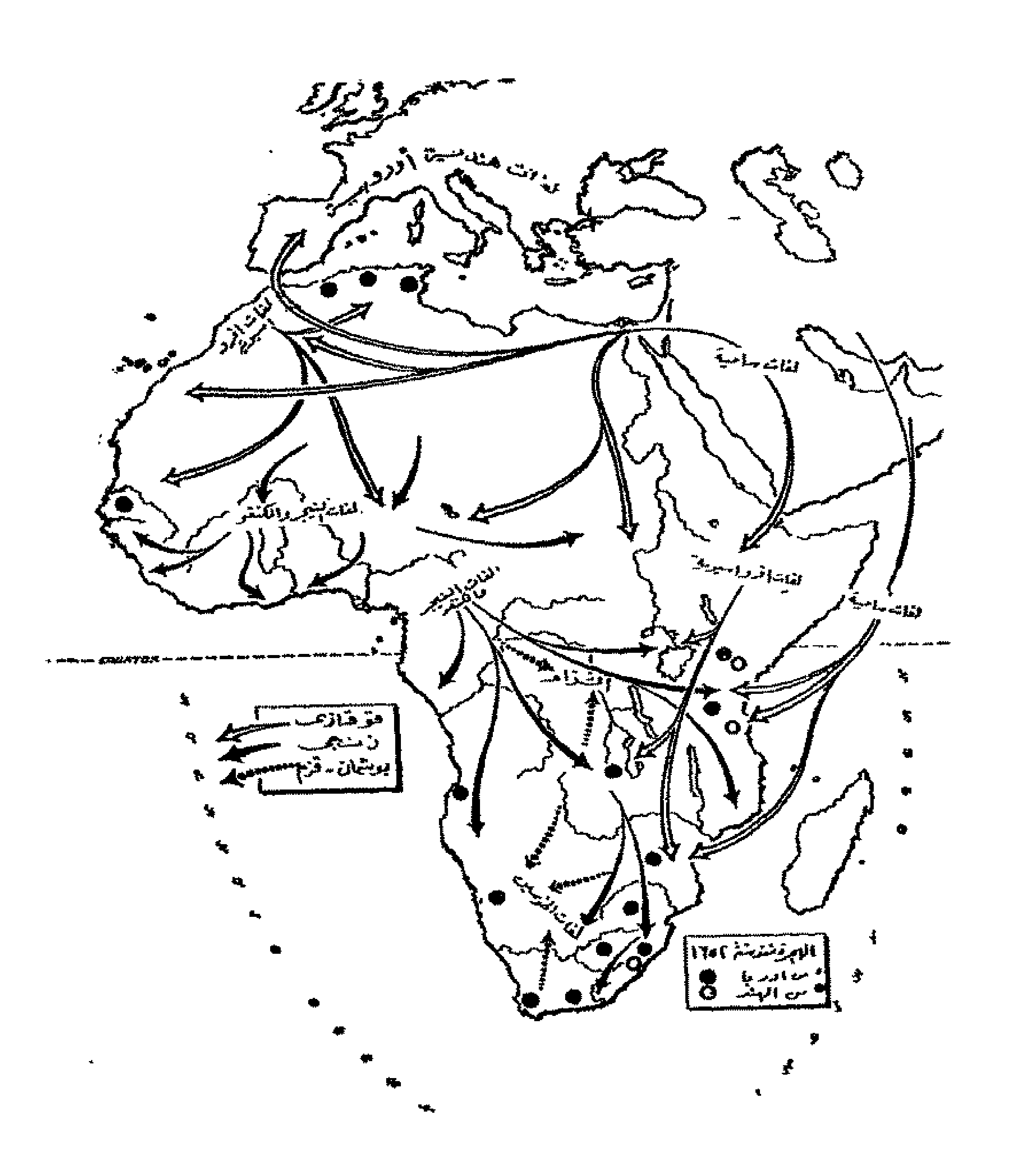
2) E. W., Bovill : The Golden Trade of the Moors, London 1958, pp. 42, 48

الكبرى حيث تتوغل الظروف الصحراوية بمعدل خمسة أميال فى السنة . وبالرغم من أن هذا أمر غير عادى فإنه يبين كيف أن بقعتين صغيرتين من صحراء فيما قبل التاريخ تحولتا الى أرض جرداء تؤدى إلى الانقسام والتفرق فى حوالى ٣٠٠٠ سنة .

ونظراً لأن الصحراء الكبرى كانت آخذة فى الانتشار فيقال إنها كانت صحراء « حية » أرغمت سكانها على التقهقر — فانتقل البربر إلى شقة ضيقة كثيفة السكان نوعاً على امتداد البحر المتوسط ، وانتقل الزنوج إلى السافانا .

وفى الألف الأول قبل الميلاد بدأ ينشأ ضغط سكانى جنوبى الصحراء . ولحسن الحظ ظهرت بين الزنوج فى هذا الوقت تكنولوجية حديثة لاستخدام الحديد وبعض محاصيل جديدة للزراعة الكثيفة ، مما جعل فى الإمكان ابتداع وسائل بديلة للعيش .

ويحتمل أن يكون الحيثيون حوالى سنة ٢٠٠٠ ق . م . أول من اشتغلوا بسبك الحديد . ولم يستخدم هذا المعدن فى مصر إلا بعد ألف سنة تقريباً وعرفته قرطاجنة حوالى سنة ٥٠٠ ق.م. وانتشر تشغيل الحديد فى اتجاه منابع النيل من مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد حيث أصبح إنتاج الحديد صناعة كبرى فى مرو الواقعة على مسافة قصيرة شمال الخرطوم . وكان فى الوسع أن تكون مرو المصدر المنطقى لمعرفة الزنوج بالحديد ، ولكن المنتجين فى وادى النيل كانوا حريصين جداً على الاحتفاظ بسرهم ، ولذلك فمن المحتمل تماماً أن تكون قرطاجنة هى التى علمت أهل غرب إفريقية صناعة التعدين إذ كانت الخيول ما تزال تحمل التجار بانتظام عبر الصحراء الآخذة فى النمو . والواضح أن



أجناس أفريقية منذ سنة ٣٠٠ ق.م (الهجرات)

الزنوج كانوا يستخدمون الحديد حوالى سنة ٣٠٠ ق.م كى يتسنى لهم أن يزيدوا من كفاءتهم فى استغلال السافانا الآخذة فى التناقص . كذلك جعلت الآلات والأسلحة المصنوعة من الحديد فى الإمكان غزو الغابات المطرية الاستوائية وتطهيرها حيث يمكن توفير الإقامة للسكان الآخذين فى الازدياد .

وكان دور الزراعة فى غزو الغابات المطرية موضوعاً لنقاش بين العلماء الحديثين . فيعتقد مردوك أن الغابة الاستوائية لم تصبح صالحة للسكنى إلا بعد إدخال البطاطا والموز من إندونيسيا ، ولذلك يفترض وجود مستعمرات إندونيسية على الساحل الأفريقى الشرقى قبل سنة ١٠٠ ق . م ومنه انتقلت المحاصيل الجديدة بواسطة عملية حركية على طول الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى إلى حوض النيجر [1] . وأجاب معظم زملائه بطريقة مقنعة بأن إقامة الإندونيسيين يحتمل أن تكون قد حدثت بين عامى ٦٠٠و٩٠٠ بعد الميلاد ، ثم فى مدغشقر بعد ذلك وليس فى أفريقية الشرقية ، وأن فى الإمكان أن ترد بسهولة أية محاصيل حديثة على طول طرق التجارة المعروفة عن طريق الهند والبحر المتوسط ، وأن أغذية حديثة كهذه لم تكن جوهرية حتماً لغزو الغابة المطيرة .

ويبدو أن المعرفة الجديدة بتصنيع الحديد وإن لم تكن المحاصيل الجديدة ، توغلت حتى وصلت إلى البانتو [2] الذين كانوا بوصفهم الزنوج المقيمين فى

---

(١) Hardock. Op. Cit. 207—211.

(٢) هؤلاء هم الذين يتحدثون لغة البانتو وأغلبيتهم من أشباه الزنوج ، ويطلق عليهم فى العادة اسم المجموعة اللغوية التى ينتمون إليها .

أبعد الأنحاء نحو الجنوب، أشد قرباً من الغابة المطيرة فى مرتفعات الكمرون. إن إدخال المهارة الجديدة أو كلتا المهارتين أسهم فى حدوث انفجار سكانى فى صفوف البانتو على نحو غير عادى. لقد استطاع الزنوج القيمون فى الشمال والغرب أن يحسنوا استخدام الأراضى التى كانوا يشغلونها فى ذلك الحين، ولكن البانتو توغلوا فى الغابة المطيرة التى ربما لم يكن يستغلها من قبل سوى جماعات متفرقة من الصيادين الأقزام. إن الانفجارات السكانية الملفتة للنظر شىء غير عادى، ولكن يبدو أن الصين القديمة وأوربا الحديثة والبانتو حوالى زمن المسيح يشتركون فى هذه الظاهرة. من الصعب دائماً تحديد الأسباب تماماً ولكن يمكن اعتبار حالة البانتو تفسيراً سليماً مثلها مثل الحالات الأخرى.

وثمة توسع مماثل وإن كان أقل إثارة للنظر بكثير، يبدو أنه انبعث من بلاد العرب عن طريق أثيوبيا إلى حدود مرو فى القرون السابقة مباشرة على مولد المسيح. فقد عبر بنوسبأ الذين يتكلمون السامية البحر من اليمن إلى المرتفعات الأثيوبية، واضطر الكوشيون من ذوى اللغة الأفرو — آسيوية الذين كانوا قد استقروا من قبل هناك إلى التفرق جماعات صغيرة فى جميع أرجاء إفريقية الشرقية وربما عاد بعضهم إلى الاستيطان فى أماكن وصلت إلى موزمبيق. ويبدو أن السبأيين والكوشيين كانوا على معرفة بالحديد أو أنهم عرفوه أثناء هذه الفترة والأرجح عن طريق مرو السائرة فى طريق التدهور، وأنهم استخدموا الأدوات الحديدية لقطع أحجارهم الأثرية المتميزة.

ولقد كان توسع البانتو أكثر من توسع الكوشيين هو الذى أحدث أعظم تغيير فى الجغرافيا البشرية بإفريقية الوسطى والشرقية والجنوبية. فمثلا

فى القرون الباكرة من العصر المسيحى كان البانتو قد توغلوا بعيداً فى حوض الكونغو ، وجاءوا معهم بأساليب الرعى والزراعة وتصنيع الحديد ، وأزالوا أو أخضعوا جماعات الصيادين الأقزام القليلة المتناثرة . ويظهر أن الضغط من المراكز الأصلية فى مرتفعات الكمرون استمر بعض الوقت مرغماً الجماعات الأمامية على أن تشق طريقها بالتدريج صوب الشرق والجنوب ، ويبدو أن البانتو الأفضل سلاحاً وغذاء ابتدعوا أنظمة عسكرية وسياسية قوية بصورة متزايدة كلما انتشروا وأخضعوا الأقزام واجتاحوهم . وعندما اكتشفت الطلائع الرائدة إقليم البحيرات العظمى الفسيح الخصيب بين ٦٠٠ و ٩٠٠ ق . م . كانوا عبارة عن وحدات أكفأ فى تنظيمها وأقدر على البقاء من تلك المجموعات الضعيفة ذات الاستقلال الذاتى التى خلفوها وراءهم فى الكمرون والغابات المطيرة . وبمجرد أن تخلصت طلائع الجماعات التى تتكلم البانتوية من الغابة انتشرت بسرعة نحو الجنوب لتحتل السافانا التى اكتشفتها حديثاً .

مثال ذلك أن مجموعة باتونجا (سوثو الحديثة) توغلت على ما يظهر ببدء القرن العاشر حتى وصلت إلى روديسيا الجنوبية حيث حققت درجة من الوحدة أقوى منها عند غيرها من جماعات المهاجرين البانتو . وتحركت سلسلة أخرى من البانتو ببطء أكثر صوب مصب نهر الكونغو وأنجولا الجنوبية، ولكن لايمكن أن ينسب إليهم الفضل كله . فقبل أن تصل الطلائع الخارجة من الكمرون إلى السافانا الجنوبية كانت بعض الشعوب الخوسية هناك قد عرفت الحديد والماشية ، ويحتمل أنها عرفت ذلك عن طريق تلك الجماعات الصغيرة من الكوشيين التى جاءت معها بتلك المعرفة حتى نهر زمبيزى فى

زمن المسيح . ولقد اكتشف ديزموند كلارك حديثاً[1] أن البانتو وصلوا في هذه المنطقة بعد أن بدأ الشعب الخوسي في استخدام الحديد بفترة تتراوح بين ٥٠٠ و ٨٠٠ عام . ولكن لم يكن هناك إنتاج فعال قبل أن يأتي البانتو بمهارات متقدمة وتنظيم متقدم . كذلك قابلت طليعة الباتونجا المتطورة الكوشيين القوقازيين الذين سبق أن علموا صناع الحديد من الخوسيين . إن الثقافة الناتجة من ذلك سوف يجرى بحثها في محتوى تاريخ شرق إفريقية بعد القرن العاشر . وعلى أي حال فقد كان الاحتلال البانتوى عنصراً هاماً في أن تلك الوحدات من البانتو التي كانت تعيش على طول سلسلة البحيرات العظمى التي تشكل فاصلا في منطقة الغابات المطيرة ، أقامت في مجتمعات حسنة التنظيم وتقبلت المؤثرات الكوشية بالتدريج . وواصل غيرها التوغل من مناطق البحيرات نحو الساحل الشرقي واحتلوا أجزاء من تنجانيقا وكينيا بين عامي ١٠٠٠ و ١٥٠٠ ق . م.وفي شرق البحيرات العظمى قابلت البوشمن ،ولكن الأخيرين إما أنهم أبيدوا أو أرغموا على أن يصبحوا مستعمرات منعزلة تابعة لهم شأنهم في ذلك شأن الأقزام في منطقة الغابات المطيرة .

أما المجموعة الثالثة أو الجنوبية الغربية من البانتو فواجهت الغابة الجافة، ثم البوشمن وهي تندفع جنوباً على طول ساحل المحيط الأطلسي ، وبحلول القرن الخامس عشر كانت قبائل البانتو القريبة من مصب الكونغو قد أصبحت قوية بنوع خاص ، واتصلت اتصالا واسع النطاق بالبرتغال ، بينما الذين كانوا منهم يتحركون في داخل أراضي البوشمن تبط من زحفهم الجفاف المتزايد . ومن

---

[1] J. Desmond Clark ; The Prehistory of Southern Africa, Harmondsworth, 1959, P. 283 FF.

ذلك الاتصال الأخير نشأت ظاهرتان غريبتان حيرتا العلماء ، وكلتا المشكلتين تمس قوماً مختلفين تماماً فى مظهرهم عن البوشمن وإن كانوا مثلهم يتكلمون اللغات الخوسية . وأكبر الاحتمال أن إحدى هذه الجماعات،وتتكون من فلاحين زنوج مستقرين ، كانت من سلالة المحاربين البانتو الذين تربى أطفالهم بفضل الجوارى والإماء من البوشمن ، والمسألة الثانية تتعلق بالهوتنتوت ،والذين كانوا من قبل يصنفون خطأ بوصفهم خليطا من السكوشيين الأثيوبيين والبوشمن من أهل كينيا[1] . والمعتقد الآن أن الهوتنتوت هم قوم من البوشمن تعلموا تربية الماشية من البانتو وبذلك عملوا على تحسين غذائهم وأصبحوا أكبر حجما من البوشمن الذين يشبهونهم فيما عدا ذلك[2] .

ولقد درج الأوربيون على الاعتقاد بأن جميع المجتمعات الإفريقية يسودها نفس التنظيم ، ولكن الأبحاث الحديثة أظهرت الكثير من الاختلافات بين الصروح القبلية . قد يصح أن جميع القبائل فى عصر ما قبل التاريخ كانت ترجع مركز الفرد ومنزلته إلى الأم وليس إلى الأب ، وأن التغيير من تقاليد الانتساب إلى الأم إلى التعقيد المعاصر يعزى أحيانا إلى المؤثرات العسكرية والزراعية خلال الأربعة آلاف سنة الأخيرة . ومثال ذلك أن التسلسل عن طريق الأب أى الذكور ، يميز جميع القوقازيين ، فضلا عن أولئك الزنوج الذين يشبهون البانتو الجنوبيين الشرقيين فى أنهم كانوا طلائع التوسع شبه

(1) C. Mein of : Der Sprachen der Hamiten Hamburg, 1912 ; Isaac Schapera, The Khoisan

(2) Peoples of South Africa, London 1930. See also ; Greenberg, op. cit , pp. 80_87

المسكرى ، وأولئك الذين اتسم اقتصادهم بالاستقرار والنشاط الزراعى والتجارى مثل تلك القبائل الكبيرة المقيمة فى مناطق السافانا بإفريقية الغربية . أما تقاليد الانتساب إلى الأم فلاتزال سائدة بين الأقوام الباقية فى الصحراء الكبرى وبين زنوج الغابات المطيرة فى إفريقية الغربية ، والبانتو الذين يقيمون فى منطقة الغابات الجافة بإفريقية الوسطى وراء طلائع المحاربين . وسواء صح من الناحية النظرية هذا التطور الذى طرأ عليهم أو لم يصح ، فإن الاختلافات فى التنظيم الاجتماعى فى إفريقية كما هى فى أوربا ، ربما كانت غير منتظمة وذات طابع إقليمى أكثر منها متصلة وشاملة .

لقد كثرت التكهنات والنظريات المتعارضة فى إعادة تركيب الجغرافية البشرية الإفريقية فى عصور ما قبل التاريخ ، وبالرغم من هذا فإن بحث النظريات الكبرى من قبيل ما ناقشناه فى هذا الفصل ، يزيد من فهمنا للتاريخ فى العصور التالية .

الكتاب الأول

أفريقية القديمة

— ٣ —

القبائل والامبراطوريات

كان الاتصال المبكر بين الزنوج المشتغلين بالزراعة فى غرب أفريقية والقوقازيين المشتغلين بصناعة الحديد فى مصر وشمال أفريقية ، يمثل بداية فترة طويلة من التبادل الثقافى والتجارى . وأبدت كل من قرطاجنة والجمهورية الرومانية اهتماماً بالتجارة الزنجية ، فكان العاج والذهب وبعض العبيد مما يؤتى به إلى الشمال ، بينما ينقل الملح وربما النبيذ والقمح جنوباً من الأراضى المتاخمة للبحر المتوسط . وكانت المواصلات عبر الصحراء صعبة دائماً وبخاصة عندما نبذ استخدام الخيول ، ولكن إدخال الجمل تدريجياً فى أوائل العصر المسيحى أحيا التجارة وجعل فى الإمكان حدوث هجرات لها أهميتها من جانب البربر ، من الشمال إلى الجانب الجنوبى من الصحراء الكبرى .

ويندر وجود الملح فى منطقة السودان بين الصحراء ومنطقة الغابات ، وكان تراجع الصحراء التدريجى قد أبعد الزنوج السودانيين كثيراً عن موطن هذه المادة المشتهاة التى تستخدم فى تجفيف الطعام والمحافظة عليه . لم يكن فى الإمكان الحصول على الملح جنوبى الصحراء إلا بعملية شاقة من تقطير الحشائش ، أو بحمله عبر الغابات المطيرة الخانقة من الشواطىء الاستوائية للمحيط الأطلسى الجنوبى . وبذلك كان ملح الصحراء ذا أهمية أساسية ، وأصبحت تنمية أحواضه

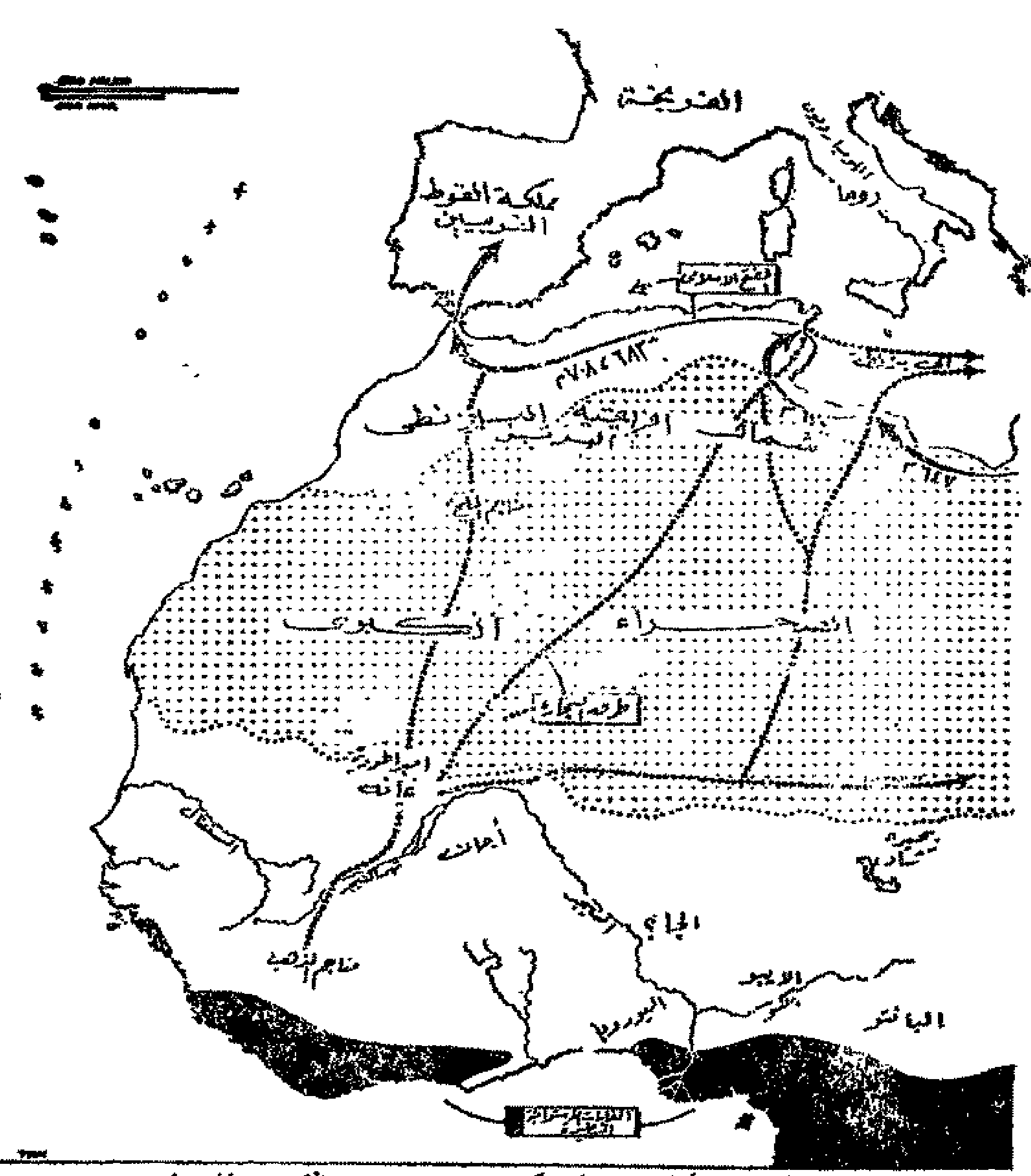
مسئولية يضطلع بها البربر في الجزء الأوسط الشمالي من الصحراء ، حيث يبادلون بالملح الذهب والعبيد الزنوج الذين يستخدمون في معامل الملح .

وأدت التجارة التي تعتمد على إبل البربر ، إلى اشتغال الزنوج الزراع في السودان بالتجارة، وإلى إعادة تشكيل أنظمتهم السياسية . وكانت نقطة الاتصال بين الزنوج والبربر على امتداد نهر النيجر عادة ، عند الحافة الجنوبية للصحراء والتي كان البربر يحملون الملح عبرها . وكان نهر النيجر ، وهو شريان السودان من الشرق إلى الغرب ، يهيئ سبيل الوصول إلى كل من مناجم الذهب (ويرجح أنها كانت قريبة من منبع النهر في غينيا الفرنسية الحديثة) [١] ومستهلكي الملح على امتداد النهر من غينيا إلى نيجريا . ومن الذين ربما اشتركوا في هذه التجارة النامية أفراد من الجاليات اليهودية المشتغلة بالتجارة في قرطاجنة الرومانية وبرقة — لعل بعضهم طرد عبر الصحراء بعد ثورة في القرن الثاني الميلادي — أقاموا على امتداد نهري النيجر والسنغال .

ويذكر الرحالة العرب في القرن العاشر استناداً إلى رواية سودانية ، أن الفاتحين « البيض » نظموا وادي النيجر وحكموه فيما بين القرنين الخامس والثامن ، ثم نشبت بعد ذلك ثورة زنجية على أيدي السوننكة (ماندي أو ما نديفجو) وأقامت أسرة ملكية من أبنائهم . وسواء أكان لتلك الأسرة المالكة البيضاء وجود أم لم يكن ، فالواضح تماماً أن شكلا من التنظيم

---

(١) كانت غينيا جزءا من أفريقية الاستوائية الفرنسية ثم استقلت على أثر الاستفتاء الذي أجراه الجنرال ديجول على دستور الجمهورية الخامسة ، في ٢٨ سبتمبر ١٩٥٨ (المترجم)



افريقيه الغربيه قبل الاسلام ، القرن السابع

الحكومى والمركزية التجارية أصبح لازماً حينما بدأ فلاحو الماندى يتجرون مع قوافل الإبل ، فيبادلون بالملح الذهب ، بين القرنين الثانى والخامس .

ولا أحد يعرف اللغة التى كانت تستعمل فى هذه الدولة السودانية — التى جرى التقليد على إطلاق اسم غانة عليها — ولكن علماء الآثار كشفوا عن مدن كانت تعتمد على تجارة واسعة النطاق ، كما يشهد الرحالة بوجود ملكية قوية ، ونظام ضرائبى وإدارى مستقر الدعائم ، ومحلات لإقامة التجار البربر والرعايا الزنوج . وبسطت غانة سيطرتها السياسية على مناجم الملح الواقعة فى الصحراء ، ولكن مناجم الذهب الواقعة عند حدودها الجنوبية ظلت فى أيدى القبائل . وتحكم الفلاحون السودانيون فى مفارق الطرق ، واستغل البربر أحواض الملح وتولوا قوافل التجارة . وكان يجرى الحصول على الذهب بطريقة غريبة يقال لها « التجارة الصامتة » ، فيترك الذين يستخرجونه من أهل القبائل الذهب على شاطئ النهر ، ويكوم تجار غانة الملح بجوار المعادن ، ثم يعود رجال القبائل فيأخذون الملح إن أرضتهم الصفقة ، أو يتركون كلتا السلعتين ويبدأون العملية من جديد إذا كانوا يريدون الحصول على مقابل أكبر .

وفى مكان بعيد فى اتجاه الشرق ، كان القوقازيون الذين يتكلمون لغة سامية ، قد أخذوا منذ زمن طويل يتسربون إلى إفريقية . فمن بلاد سبأ فى جنوب شبه الجزيرة العربية كان التجار والمهاجرون يعبرون البحر مراراً إلى المرتفعات الحبشية فى الألف الأولى قبل الميلاد . وأخيراً انتقلت حكومة سبأ أيضاً وأصبحت بحلول القرن الرابع الميلادى ، مملكة أكسوم أو أثيوبيا . وكان اليهود الذين تشتتوا من ديارهم ويتكلمون أيضا اللغة السامية ، قد انتشروا

بالمثل فى داخل إفريقية ولكنهم كانوا أقوى فى مصر ، ومالوا إلى اقتباس الحضارات اليونانية . وجاءت المسيحية فى أعقاب اليهود المشردين — وكما حدث فى أماكن أخرى من الإمبراطورية الرومانية — أصبحت الدين الغالب فى شمال إفريقية والقسم الأدنى من وادى النيل ، وذلك بحلول القرن الرابع . وثبتت المسيحية اللاتينية أقدامها حـــول قرطاجنة القديمة ، بينما سادت الأشكال الأرثوذكسية اليعقوبية[١] (القبطية) فى مصر وانتشرت فى اتجاه أعالى النيل لتصبح لها السيادة فى مرو (التى أعاد المسيحيون تسميتها بالنوبة) وأكسوم .

كان الذين جاءوا بالدين الجديد من الفلسطينيين والشرقيين ، ولكن الذين اعتنقوه فى إفريقية كانوا من أبنائها ولم يكونوا من الغزاة . ولقيت المعتقدات المسيحية فى هذا الوقت القبول من بعض البربر ، على الأقل فى الصحراء الكبرى ممن كانوا يشتغلون بقيادة الإبل والتجارة ، ولكن ربما قبلها غيرهم أيضاً من اللاجئين الذين اختاروا الصحراء كى يواصلوا التمسك بدينهم القديم . وعلى ذلك سادت المسيحية فى الشرق ولكنها أخفقت فى النفاذ فى الصحراء فى الغرب . ويعتقد الكثيرون[٢] أن البربر غير المسيحيين أدخلوا أفكار قرطاجنة الدينية فى غانة الزنجية .

---

(١) يؤمن المذهب اليعقوبى بأن للمسيح طبيعة واحدة . (المترجم)

(٢)

Eva L. R. Meyerowitz . The Akan of Ghana.

(لندن ١٩٥٨)

Basil Davidson . Old Africa Rediscovered.

(لندن ١٩٦٠ ، ص ٦٨ — ٧٠)

Maurice Delafosse : Haut — Senegal — Niger.

(٣ أجزاء ، باريس ١٩١٢)

وإذ نصل إلى أوائل القرن السابع نجد المسيحيــة قد أثرت فى كل ذلك القسم من أفريقية الواقع شمالى منطقــة الغابات ، فيما عــدا غانة ووادى النيجر ومنابع النيل . ومهما يكن من أمر ، فقد كانت أثيوبيا هى الدولة التى تحولت إلى المسيحية بصفة دائمة . وارتفع الإسلام الذى بشر به النبى محمد صلى الله عليه وسلم فى بلاد العرب ، إلى مركز السيادة بالتدريج ، وهو المركز الذى لايزال يشغله شمالى إقليم الغابات . وفقدت المسيحية معظم مراكزها الباكرة ولم تعــد إلى الظهور فى إفريقية إلا بعد أن بدأ الأوربيون ينتشرون فيهــا بعد ذلك بألف عام .

وفى صيف عام ٦٢٢ قاد محمــد صلى الله عليه وسلم أتباعــه من مسقط رأسه المعادى ، مــكة ، إلى المدينــة التى أكرمت وفادته ، فــكان ذلك بداية النصر والتوسع ومع هذه الهجرة يتخــذ المسلمون ومعظم الأفريقيــين فى السافانا والصحراء الــكبرى تقويمهم . وفى أواخر السنة العاشرة الهجرية أى فى يونية من عام ٦٣٢ مات النبى مخلفاً وراءه كتاباً مقدساً هو القرآن الذى يتضمن تلك الأوامر الدينية والاجتماعية والسياسية التى جعلت فى الإمكان لأول مرة تنظيم أتباعه من أبناء البادية على أساس دين عالمى شامل بدلا من التنظيم القائم على المجموعات المقيّدة ، المنقسمة التى ترتبط فيما بينها بصلة الرحم . أصبحت القبائل المنقسمة على بعضها شعباً واحداً فى ظل الشريعــــة الجديدة ولــكن فرض الوحدة فى داخل الصحراء العربية استغرق شهوراً كثيرة . وبمجرد ان تم تنظيم البدو على هذا النحو أصبحوا تواقين إلى نشر دينهم فى الهلال الخصيب الغنى .

وفى يوم الأحد الموافق عيد الفصح عام ٦٣٤ ، أى بعد موت محمد عليه السلام بأقل من عامين ، أنزل الغزاة البدو الهزيمة بالمسيحيين البيزنطيين وضربوا الحصار على دمشق . وفى ظرف ثلاث سنوات سقط معظم الهلال الخصيب من فلسطين إلى فارس ، واجتازت جيوش الخليفة عمر برزخ السويس حيث عبرت النيل على مقربة من القاهرة[1] فى ربيع عام ٦٤٠ . وبعد أربع سنوات كانت أفريقية من مصر إلى قرطاجنة تؤدى الجزية ، ولكن ظل المسيحيون يسيطرون على النوبة فى النيل الأوسط وبلاد البربر الواقعة غربى قرطاجنة .

وتجمعت الهجمات المضادة من جانب البيزنطيين ، ودعم المكاسب التى تحققت ، والنزاع حول الخلافة بعد وفاة عمر ، فحالت طيلة جيل دون توسع جديد ، ولكن فيما بين عامى ٦٧٠ ، ٦٨٣ حطم العرب قرطاجنة الثائرة وأخرجوا البيزنطيين من الجزائر الحالية وبلغوا ساحل المحيط الأطلسى . وبسبب الثورات التى قام بها البربر أرغم العرب على الارتداد إلى مصر ، إلا أن جيوش النبى عادت بعد ربع قرن فاحتلت المنطقة بصفة دائمة . وفى عام ٧١١ عبر الفاتحون من البربر الذين تحولوا إلى الإسلام ، جبل طارق بقيادة القائد طارق[2] واحتلوا إسبانيا وغزوا فرنسا حيث أوقفوا بعد ذلك بإحدى وعشرين سنة . ودعم المغاربة Moors — كما أطلق على المزيج من البربر والعرب — موقعهم جنوبى جبال البرانس . كانت إسبانيا الإسلامية فى أول الأمر مخفراً أمامياً للخلافة العربية ذات الإدارة المركزية فى دمشق ، ولكنها أصبحت بحلول عام ٧٥٧ مستقلة بالفعل فى ظل أسرة حاكمة مختلفة .

---

(١) لم يظهر اسم القاهرة إلا بعد إنشائها على أيدى الفاطميين . (المترجم)

(٢) هو طارق بن زياد وليس (طارف) كما ذكر المؤلف . (المترجم)

وتميزت السنوات الثلاثمائة والخمسون بالمشاحنات بين أفراد الأسرة الحاكمة، وبالمنازعات بين المسلمين والبربر والإسبان للحصول على المراكز الممتازة ، ولكن الانقسامات فى صفوف العصابات المسيحية فى البرانس والحكام الإفريقيين الذين يعادون الخلافة الشرقية ، كانت شديدة بالمثل . فتوقف التوسع وزاد الاستقلال المحلى فى جميع أرجاء العالم الإسلامى بما فيه إفريقية ، وفى كل مكان غربى السويس بسطت طبقة صغيرة من المحاربين العرب حكمها على شعوب متنافرة لم تعتنق الإسلام ، وذلك بالاستناد إلى جماعة منهم دخلت فى الدين وإن لم يكن فى الإمكان الاعتماد عليها . وحطم الصراع الرى والزراعة . وعريت الغابات من أشجارها من أجل بناء السفن لأغراض الحرب والقرصنة ، وابتلعت الصحراء الأرض الخصبة التى أسىء استغلالها فى ذلك الوقت . وكانت اليد العليا للبربر فترة من الوقت ، إلا أنه فى القرن السادس عشر أرسل الخليفة المركزى فى بغداد — وكان فاطمياً — ٢٠٠,٠٠٠ من بنى هلال وهم من بدو بلاد العرب ، فانقضوا على شمال إفريقية . وأخرج بنو هلال ، وهم أول موجة من المستوطنين الذين يتكلمون السامية — البربر من الأراضى الساحلية، وبسطوا سيادتهم على المجتمع فى شمال إفريقية ، وحولوا الإسلام من دين يعتنقه الحكام إلى دين تعتنقه الجماهير .

هذه الأحداث أسفرت بالنسبة إلى إفريقية عن نتيجتين ، فأصبحت المنطقة التى تشغلها ليبيا وتونس الحاليتان أقل خصوبة، ولهذا اتخذ التجار الذين يعبرون الصحراء الكبرى طرقاً جديدة تلائم المغرب الأقصى (مراكش الآن) وهو أكبر مساحة وكان حظه من الدمار أقل . أما النتيجة الأخرى فهى أن بعض

البربر ممن أبوا تسلط العرب والمذهب الإسلامي السني ، هاجروا عبر الصحراء للإقامة على مقربة من ساحل المحيط الأطلسي ، غربي إمبراطورية غانا. وأطلق هؤلاء البربر اسمهم القبلي — صنهاجة أو السنغال — على النهر الذى أقاموا على ضفافه . كانوا مسلمين بالاسم،ولكنهم لم يبدوا حماستهم الدينية أو الامتثال لقواعد الدين .

ومن حين لآخر كان أحد هؤلاء الحكام من بنى صنهاجة يؤدى فريضة الحج إلى مكة ، وهذا ما فعله شيخهم الأكبر يحيى[1] فى أوائل القرن الحادى عشر . وهناك وقع تحت تأثير فقيه التقى به فى الطريق ،وعاد بمرشد سنى شديد الحماسة يعرف بابن ياسين[2] . ولكن أتباع يحيى ، ولم يكونوا فى مثل حماسة زعيمهم ، طردوا ابن ياسين وتلاميذه فانتقل معهم إلى جزيرة فى نهر السنغال . هؤلاء النساك (المرابطين) اجتذبوا الأنظار ثم الأنصار وعادوا ليحكموا المجتمع الصنهاجى . وفى عام ١٠٤٢ بدأوا الجهاد من أجل تطهير الإسلام ، وأخضع المرابطون من أتباع ابن ياسين البربر الذين لم يكونوا شديدى التمسك بأهداب الإسلام ، وهاجموا غانا الزنجية الوثنية فى عام ١٠٥٤ ، ثم ضموا الخلافة العربية فى مراكش بعد ذلك بثلاث سنوات .

وفى إسبانيا كان تنظيم العصابات المسيحية قد تحسن . وتعرض استمرار بقاء الأمراء المسلمين المتنازعين للتهديد ، ولهذا طلب إلى يوسف ، خليفة ابن ياسين بين المرابطين — أن يستخدم جيشه للمحافظة على النظام ، فأعيدت

---

(١) يحيى بن إبراهيم . (المترجم)

(٢) عبد الله بن ياسين السجلماسى ومات فى سنة ١٠٥٩ . (المترجم)

الوحدة إلى إسبانيا الإسلامية وهزم المسيحيون فى عام ١٠٨٦ ، وأصبح يوسف السلطة الوحيدة بين إسبانيا الشمالية ومنطقة الغابات الإفريقية . كان من المستحيل إدارة مثل هذه الإمبراطورية المتباينة ، وسرعان ما أدرك الجميع أن المرابطين الذين كانوا يهاجمون غانة (التى سقطت فى سنة ١٠٧٦) أصبحوا مستقلين تماماً عن الجيش الرئيسى الذى يتولى يوسف قيادته فى الشمال .

كانت سلطة المرابطين قصيرة الأمد تقريباً كما كان شأن الإصلاحات المتحمسة التى قام بها ابن ياسين ، ولكن تغير الكثير . فقد اضطر المسيحيون فى إسبانيا إلى الاتحاد لأول مرة دفاعاً عن النفس ، وما لبثوا بعد ذلك أن اتخذوا موقف الهجوم ، ولم يرجع مجد غانة التجارى والسياسى إلى سابق عهده تماماً . وحلت الحروب القبلية محل الحكومة المركزية الحقيقية جنوب الصحراء ، وصارت للاستقلال المحلى الغلبة على الصالح القومى . لقد ظلت غانة على قيد البقاء حتى القرن الثالث عشر ، ولكن لم يبق منها إلا ظل عظمتها السابقة .

أصبح الإسلام الدين الإسمى لغانة ومعظم الدول الزنجية الأخرى فى جميع أنحاء السودان الغربى ، ولكن الكثيرين آثروا الهجرة على تقبل أى جزء من الدين الجديد ، ومن بينهم الفلانى[1] البقارة الذين انتقلوا شرقاً إلى إقليم نيجيريا الشمالية الحديثة ، وربما بعض الذين أصبحوا الطبقة الحاكمة من قبائل الأجان[2] المقيمة عند حافة الغابة .

---

(١) الفلانى أو الفلبة أو الفولة .

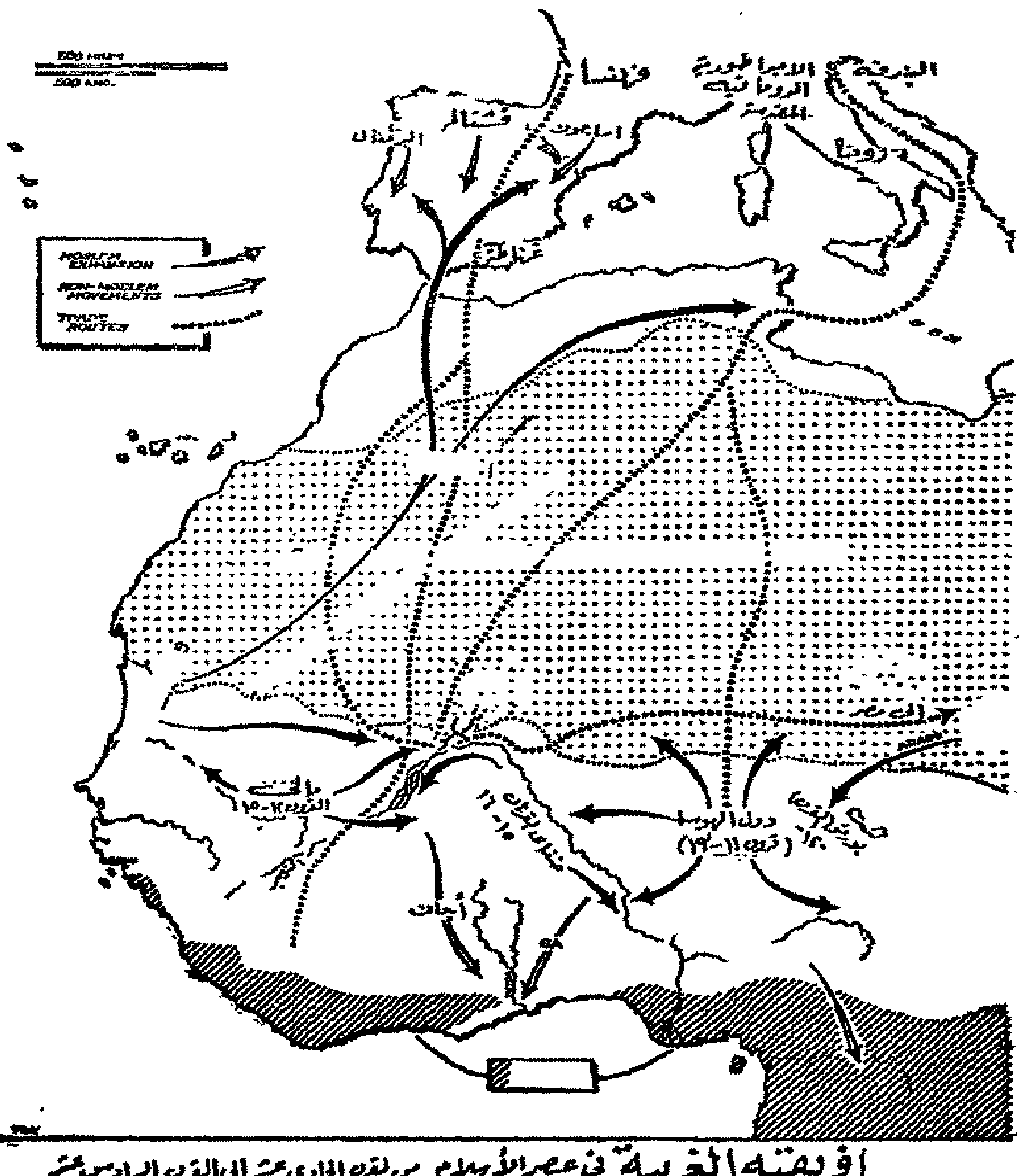
(٢) يطلق عليهم الكتاب العرب اسم « أجان » وليس « أكان » Akan كما فى النص الإنجليزى . (المترجم)

وفى أوائل القرن الثالث عشر فرض عدد من الغزاة القبليين سيطرة قصيرة الأمد على جزء من غانا أو كلها ، ولكن المسلمين الأشد استمساكاً بدينهم ، وهم زنوج مالى ، شددوا قبضتهم على المنطقة بعد عام ١٢٣٥ ، فساد الأمن السياسى والرخاء التجارى الذى كان لايزال يعتمد على المبادلة بين الذهب والملح عبر الصحراء . ظلت مالى وقتاً تبسط سلطانها من المحيط الأطلسى إلى الحافة الغربية لنيجيريا الحالية . وكان وجود هذه الإمبراطورية معروفاً لدى الأوربيين فى القرن الرابع عشر ، وربما كان تفوق مالى يمثل أشد فترات التاريخ الإفريقى نشاطاً وتقدماً قبل مجىء الأوربيين . ولقد شاهد التجار البنادقة منسا موسى[1] حاكم مالى الذى سافر إلى مكة سنة ١٣٢٤ ، وخلق أسطورة عن الثراء الباذخ الذى ظل قائماً بعض الوقت فى مصر وإيطاليا . وذكر الرحالة العرب فى العصور الوسطى أن تمبكتو التى كانت فى عام ١١٠٠ قد حلت محل خيام مدينة غانة وأكواخها المصنوعة من الحشائش ، بوصفها مستودع البضائع الرئيسى فى إفريقية ، قد صارت الآن مركز المبانى المشيدة من الطوب والثقافة الإسلامية فى عهد منسا موسى .

لم تكن غانة تسيطر على مناجم الذهب التى كان يعتمد عليها ثراؤها ، وكذلك لم يسيطر عليها المرابطون أو إمبراطورية منسا موسى . ففى الحالات الثلاث جميعها تمثلت الثروة فى التجارة التى جعل منها المنظم عملا مجزياً . غير أن هذا الموقف ذاته كان يجتذب أى فاتح يستطيع أن يوفر تنظيماً أفضل ، أو طريقاً مباشراً إلى المناجم . وأثارت المعرفة بثروة منسا موسى الرغبة فى

---

(١) تولى الحكم فى مالى من ١٣٠٥ إلى ١٣٣٢ م . (المترجم)



افريقية الغربية فى عصر الأسلام من القرن الحادى عشر الى القرن السادس عشر

نفوس الزنوج الآخرين وعرب مراكش ، وأخيراً في المسيحيين الأوربيين .
للاستيلاء على احتكار مالى التجارى الغنى أو تخطيه .

ومن هؤلاء ، قام السنغاى الزنوج — ومنهم كثيرون كانوا يعيشون تحت حكم مالى وينفرون منها — ودخلوا تمبكتو فى عام ١٤٦٨ . وتمزقت أوصال مالى بالتدريج أمام المتطفلين . كان القليلون منهم هم الذين أسسوا . ولكن حدث انقلاب على أيدى المسلمين فى عام ١٤٩٢ وضع على عرش سنغاى زنجياً مسلماً مصلحاً هو اسكيا الكبير[1] . وإذ كان رجلا مثقفاً قديراً ومنظماً ، حول معظم رعاياه إلى الإسلام ، وكسب تأييد فقهاء المسلمين وعلمائهم ، وشن الحملات باسم إحياء الدين . ووقع فى أيديه جزء كبير من مالى والهوسا ، لكن — وكما حدث مع المرابطين — خبت جذوة الإصلاح وهوت إلى منازعات على السلطة أشاعت الفرقة والانقسام ، وبذلك عادت الهوسا ومالى وغيرها من الأقاليم إلى الظهور من جديد ، دولاً ضعيفة مستبدة فى القرن السادس عشر . ويبدو أن الرخاء الاقتصادى الذى نعم به السودان ، لم يعان من هذه المنازعات ، ولكن القوة السابقة للمنطقة زالت فى نفس الوقت الذى بدأ فيه الأوربيون يرتادون ساحل إفريقية الغربى .

كذلك بدأت شراهة الشعوب المقيمة شمالى الصحراء الكبرى ، تشتد أيضاً فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وكان أول غزو عبر الصحراء منذ توسع المرابطين ، هو غزو مراكش فى القرن السادس عشر ، ذلك أن المنصور

---

(١) أسكيا محمد الكبير (١٤٩٢ — ١٥٢٨) . (المترجم)

وهو شريف شاب سبق أن أوقع هزيمة حاسمة بغزو برتغالى أعد إعداداً سيئاً ، حاول أن يلم شعث أتباعه المتنازعين عن طريق القيام بحملة مثيرة للاستيلاء على مناجم الذهب جنوب الصحراء . ومن موقعه عند النهاية الشمالية لطريق التجارة الطويل ، يظهر أنه لم يعرف أن المناجم كانت وراء الحافة الجنوبية للحضارة السودانية . وجرى الحصول على مقادير كبيرة من القماش لعمل خيام الصحراء ، فضلا عن الأسلحة لجيوشه ، من إنجلترا فى عصر الملكة إليزابث . وبدا أن هذه الدولة كانت سعيدة بتسليح عميل يكون لها وعلى مقربة من عدو الملكة الرابض فى إسبانيا . وسيطر المنصور على مناجم الملح فى سنغاى فى الصحراء الشمالية ، وفى عام ١٥٩٠ بعث بجيش أحسن انتقاء رجاله ، عبر الصحراء وبقيادة جودر وكان أغاً إسبانيا . وبالرغم من أن ثلاثة أرباع الجيش هلك من العطش أثناء مسيره الذى استغرق خمسة أشهر ، تم الوصول إلى تمبكتو وسقطت سنغاى أثر سلسلة من الحملات المملة وإن امتازت بالبسالة . وعين جودر « باشا » أى والياً على السودان ، ولكن المراكشيين لم يتجاوزوا حوض النيجر ولم يبلغوا أبداً مصدر الذهب . وعلم الشريف المنصور — والذى أوشك على الإفلاس بسبب ما تكلفه الغزو — أن السودان بلد فقير ، وأسوأ من هذا أدرك أن التجارة توقفت بالفعل . كان ظاهراً أن الاتجار عن طريق الأوربيين الذين وصلوا إلى ساحل غينيا ، أيسر من المحافظة على طريق الصحراء وسط مثل هذا الاضطراب . وأحس المنصور بخيبة الأمل ، وواجه استمرار النفقات والثورات سواء فى بلده أو فى سنغاى التى غزاها ، وكان يرتاب فى قائده الإسبانى ، فعين شخصا آخر محل جودر ، وأغلق مدارس تمبكتو

ومكتسباتها ، وسمح بالتدريج للغزو أن يهوى إلى عملية من الابتزاز الاستبدادى .

لقد خلقت الثورات التى نشبت على حافة الإقليم المحتل ، عدداً من دول صغيرة ، تنزع إلى الانتقام وتفتقر إلى النظام ، ويسودها طابع شبه قبلى . وعدلت مراكش عن المشروع كلية فى عام ١٦١٨ ، ومن هنا تولى الباشوات (الولاة) الجشعون الأمر ، وأصبحوا حكاماً مستبدين مستغلين ، قضوا معظم القرن التالى فى منازعات فيما بينهم . كان هؤلاء الباشوات وهم يختارون أنفسهم بأنفسهم ،يتعاقبون على الحكم كيفما اتفق ، وتحطمت التجارة والزراعة تماماً ، أما المدن القائمة على طول النيجر الأوسط والتى سبق لها الازدهار فتحولت إلى أطلال وابتلعتها الصحراء ،أو أصبحت أشباه عواصم للطغاةالمحليين. وسرى الضعف تدريجياً إلى الارستقراطية المغربية من سلالة الباشوات ، وتزاوجت فيما بينها ، وتراجعت عن مواقعها ، وأخيراً فى عام ١٧٨٠ قلبها الزنوج الذين كانوا يؤدون لها الجزية .

وكان الفاتح الثالث المنتظر للسودان الغنى ، هو البرتغال القائمة بالشمال فى أوربا . كانت البرتغال فى الأصل جزءا من قشتالة ، إحدى الممالك المسيحية الصغيرة فى شمال إسبانيا . وفى أثناء القتال ضد الإسلام ، وفى الاسترداد المسيحى بعد انهيار المرابطين فى القرن الثانى عشر ، منحت البرتغال إقطاعية للنبلاء الإقطاعيين الفرنسيين الذين كانوا قد اشتركوا فى الحرب الصليبية الإسبانية . وتحدى هؤلاء الأتباع الفرنسيون فى البرتغال ملك قشتالة ،وأقاموا مملكية مستقلة بمساعدة الإنجليز ، وطردوا جميع المغاربة من بلدهم قبل أن

تحرر قشتالة أرضها نفسها بمائتى عام . أما الخطوة المنطقية التالية ، وهى مد نطاق تلك الحرب الصليبية الإفريقية ، فامتصت جهود البرتغال بعض الوقت ، وبلغت الذروة فى الهجوم على قوطة بمراكش فى سنة ١٤١٥ . لم تكن الحماسة الدينية لتفوق فى الأهمية نيل السيطرة على تجارة الذهب السودانية ، ولكن قبضة المراكشيين على هذه التجارة كانت قوية ، وبعد أن صمدوا لحصار دام ثلاث سنوات ، أرغموا البرتغاليين على الانسحاب .

ومن القادة البرتغاليين الأمير هنرى — وهو ابن أصغر للملك — وكانت له دراية بالغة بالجغرافية والملاحة استقاها من المكتبات العربية فى تلك الأجزاء من البرتغال وقشتالة ، والتى تم استردادها من المسلمين . هذا الأمير الحالم ، المجد والعالم ، والذى غالباً ما يطلق عليه اسم « الملاح » ، اقترح الوصول إلى مناجم الذهب بطريق البحر ، وبذلك يتجنب كلا من المغاربة العنيدين والصحراء النائمة . ويبدو أن هذه الفكرة — وليست الرغبة فى الحصول على الرقيق ، وليست بالتأكيد فكرة الوصول إلى الهند — هى التى أوحت إلى هنرى بإنشاء معهد لعلوم الملاحة فى زاجروس ، وبإرسال الحملات على امتداد الساحل الغربى لإفريقية . كان هناك عنصر بالغ القدر من الصدفة فى الملاحة وفى عدم التأكد من موقع مناجم الذهب — ولكن الصيادين البرتغاليين كانوا فى ذلك الوقت يزاولون عملهم فى المحيط الأطلسى على مسافة ١٥٠٠ ميل من البر ، كما سبق أن هيأ الجغرافيون العرب شواهد قيمة عن الساحل حتى سيرا ليونى عند الحافة الشمالية لمنطقة غابات الأمطار . وأقلعت السفن الأولى فى عام ١٤١٨ ، وجىء بسبائك الذهب والعبيد الزنوج لأول مرة من البربر فى

أرجوين (خارج شاطىء موريتانيا الحديثة) فى عام ١٤٤٤ ، وتم الوصول إلى منطقة الغابات قبل موت هنرى الملاح فى سنة ١٤٦٠ . وبدأت تجارة رقيق مجزية ، اجتذبت للمرة الأولى المصالح التجارية الأوروبية، ولكن الاستكشاف اضمحل لحظة، ويرجع بعض السبب فى هذا إلى الافتقار إلى توجيه هنرى ، وربما يرجع أيضاً إلى أن الغابة بدت خالية من الجاذبية . ودبت الحياة من جديد فى أعمال الاستكشاف فى السبعينات من القرن الخامس عشر . ووجدوا فى غانة الحديثة منطقة خالية من الغابات ، تمتد فيها حشائش السافانا حتى البحر ، وتم عبور خط الاستواء لأول مرة فى التاريخ الأوروبى. ووجد الذهب والتبر بوفرة فى تلك المنطقة التى تتخلل الغابات الاستوائية ، ولهذا أطلق على الساحل اسم إلمينا — والمنجم أو « ساحل الذهب » . وهنا أقيمت محطة تجارية يقال لها إلمينا ، وذلك فى أثناء رحلة تمت بعد ذلك فى عام ١٤٨٢ . ويظهر أن كريستوف كولمبس الذى اكتشف أمريكا فيما بعد ، زار الحصن الجديد بعد ذلك بعام أو عامين [١] . لقد سبق له العمل فى خدمة البرتغال منذ سنة ١٤٧٧ ، كصانع للخرائط أولاً ثم كضابط يكتسب الخبرة في الملاحة بالمحيط ، ولم يسع إلى الحصول على مساندة لرحلته الشهيرة فى اتجاه الغرب إلا فى عام ١٤٨٦ .

وثبت أن الاتصال والنقل بطريق البحر أدعى إلى الاطمئنان وأشد يسراً

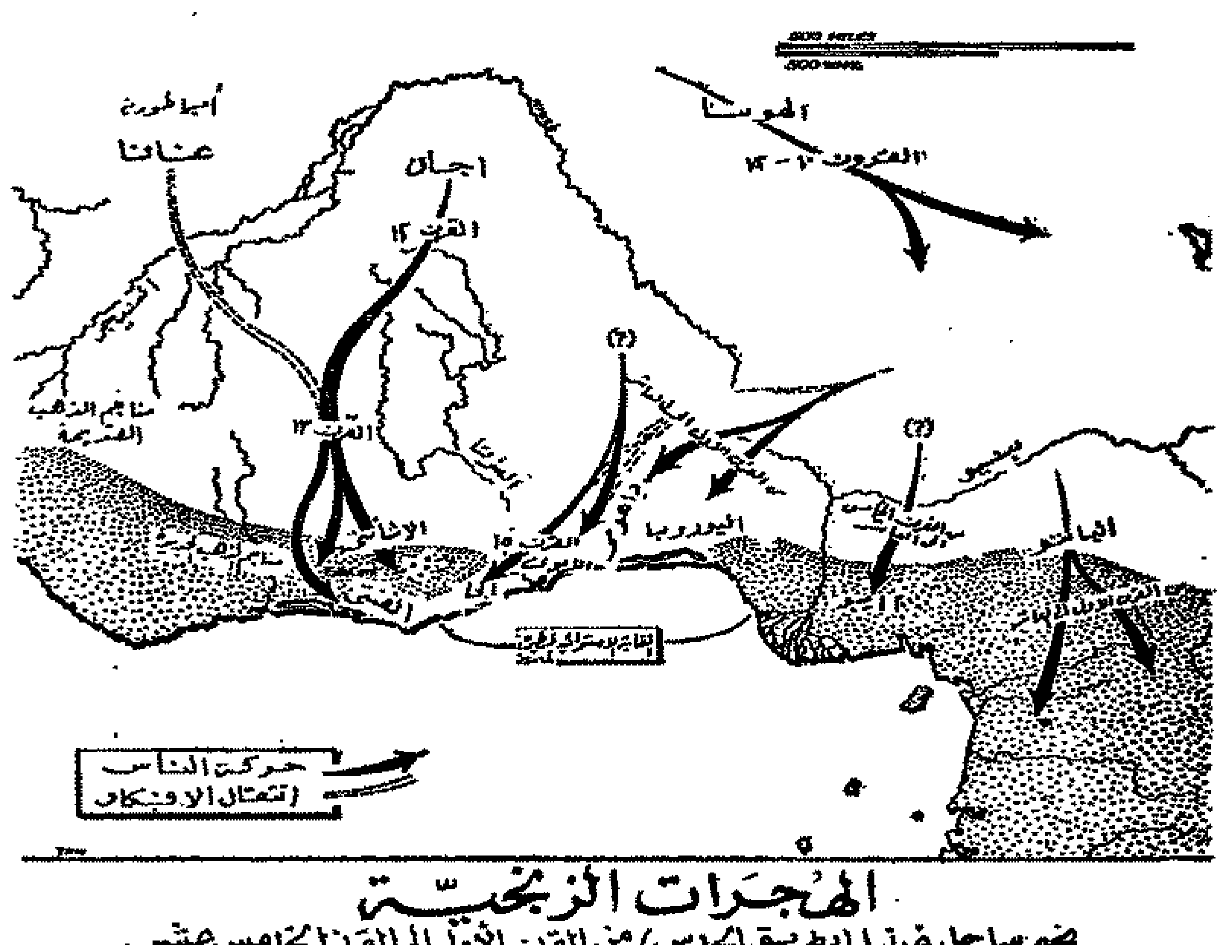
---

(١) تجد الأدلة وتقييمها فى
Samuel Eliot Morison: Admiral of the Ocean Sea
(جزءان ، بوسطن ١٩٤٢ ، ج ١ ، ص ٥٣ — ٥٤ ، ٥٩ حاشية رقم ٢٣) .

من السفر عبر الصحراء ، ولذلك فإن الثورة العميقة التي حدثت في نمط التجارة الإفريقية وتطورها — على ما اكتشف المراكشيون في عهد المنصور بعد ذلك بقرن من الزمان — لم تكن سوى مسألة وقت . والواقع أنه يحتمل أن البرتغاليين لم يحصلوا على الذهب من المصادر التي ظلت غانة ومالي زمناً طويلا تعتمدان عليها ، وإنما حصلوا عليه من مناجم جديدة في مناطق الغابات المطيرة التي تمتد مباشرة وراء السافانا الساحلية ويبدو . أن اكتشاف هذه المناجم ، إلى جانب وصول الأهالي الزنوج إلى الساحل ، لم يحدث إلا قبل مجيء البرتغاليين بسنوات قلائل .

إن الاضطراب الديني والسياسي في السودان ، والذي استمر منذ أيام المرابطين في القرن الحادي عشر إلى الاحتلال المراكشي ، شجع بعض الزنوج من غير المسلمين على التحرك إلى المناطق الواقعة خارج سلطان الإمبراطوريتين القويتين . ويحتمل أن الفوضى ذاتها أسهمت في قيام تنظيمات قوية من أجل الدفاع العسكري ، بين القبائل المقيمة غرب وجنوب وادي النيجر الغني ، فظهرت اتحادات قبلية تتسم بالكفاءة بين شعب الأجان في غانة الحديثة ، كما بدأ الزنوج غير المسلمين يتوغلون بأعداد كبيرة في الغابات المطيرة (حيث اكتشفوا الذهب أيضاً) ويستوطنون على طول ساحل غينيا .

إننا نفتقر إلى المعرفة بشأن التطورات الدقيقة التي وقعت على امتداد هذا الساحل ، ولكن في الإمكان أن نوحي ببعض المعالم الرئيسية العامة . فالظاهر



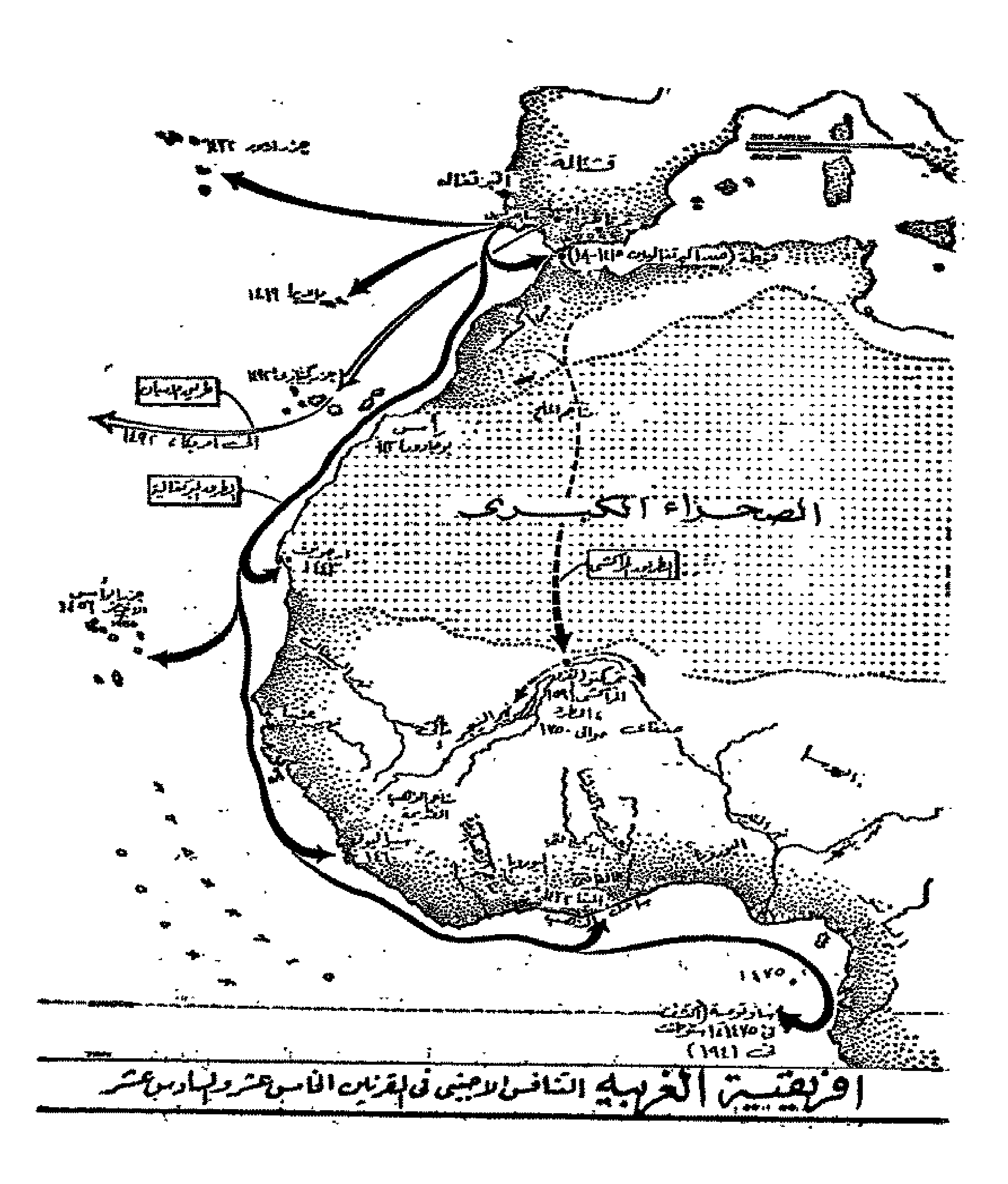
الهجرات الزنجية

نحو ساحل غينيا (بطريق الحدس) من القرن الأول الى القرن الخامس عشر

أن الزنوج الذين كانوا يتميزون بالسهولة البالغة فى تصنيع الحديد ، انتقلوا إلى المنطقة الواقعة غربى دلتا النيجر منذ أكثر من ٢٠٠٠ عام خلت — أى فى نفس الوقت تقريباً الذى بدأ فيه انتشار الزنوج من الناطقين بلغة البانتو ، شرق الدلتا — وأقاموا عدداً من المجتمعات الصغيرة المستقلة . وفيما بين عامى ٩٠٠ ق . م ، ٢٠٠ ميلادية سادت حول نوك فى السافانا الجنوبية سهولة رائعة فى نحت رسوم صغيرة للانسان .

كان مجتمع نوك يمثل انتقالا من الخشب والحجارة إلى الحديد فى أفريقية الغربية ، وكانت موضوعاته طليعة الأشكال الفنية التى اتخذت فيما بعد لتلائم الطين المحروق والوسائل البرونزية فى وسط نيجيريا وجنوبها الغربى . ونمّت ثقافة بنين وهى من سلالة ثقافات نوك ، استخدام الحديد حتى وصلت به إلى مستوى رائع حوالى عام ١٤٠٠ ، وأنتج فنانوها صوراً بشرية وسماوية تقدر قيمتها بسبب طابعها الجمالى أكثر من منفعتها . وثمة مجتمعات أخرى وبخاصة اليوروبا ومواليهم ، وأهل داهومى ، نجحت بشكل خاص فى عمل الآلات . وعندما اشتدت الضغوط من جانب السودان الثائر حوالى عام ١٥٠٠ ،شجعهم ذلك على تكوين الأحلاف بقصد الدفاع العسكرى ، وأصبح هذا الفن عبارة عن صناعة الأسلحة . وتدهورت حضارة بنين فى القرن السادس عشر إزاء الضغط العسكرى من قبل اليوروبا الذين أنشأوا حديثاً حكومة مركزية ، وبسبب التعديلات الثقافية التى أدخلها التجار ورجال الإرساليات البرتغاليون .

وفى الشرق والشمال الشرقى من دلتا نهر النيجر ، وبين البانتو وغيرهم،



افريقية الغربية التنافس الاجنبي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر

من الأقوام الزنجية فى مرتفعات الـكمرون وحولها ، لم يتطور التنظيم على مثل هذا النطاق أبداً بالرغم من أن معظم هؤلاء القوم لابد أن وجدوا فى هذه المنطقة طيلة آلاف عدة من السنين . وفى السافانا شمالى المرتفعات استوطن الزنوج منذ أزمنة ما قبل التاريخ ، ولعل السكان الأوائل جداً كانوا من اليوروبا والداهوميين ، وتحركوا عبر النهر إلى غرب نيجيريا حوالى الوقت الذى ظهر فيه المسيح . وكان الهوسا ثانى شعب نعرف أنهم أقاموا هناك ، وهؤلاء وصلوا فى حوالى القرن العاشر . ومن المحتمل أنه كان هناك بعض البانتو فى نيجيريا الشمالية — ولاتزال بقاياهم متناثرة هناك — ولـكن معظم توسع البانتو كان فى اتجاه الجنوب ، لا الشمال ، من الـكمرون . ومن الممكن القول بأن شعب جا الذى يعيش الآن على طول المجرى الأدنى من نهر الفولتا ، كان هنا ، ويبدو أن تاريخهم تضمن إقامة فى نيجيريا الشمالية حيث بدأوا يهاجرون منها منذ حوالى ٩٠٠ سنة خلت .

ويعتقد الجا أنهم وصلوا فى منطقة الفولتا حوالى عام ١٣٠٠ ، بينما تذكر معظم الروايات أن شعب الأجان وفد من الحافة الجنوبية لغانة القديمة أو مالى إلى الحافة الشمالية لإقليم الغابات المطرية فى غانة الحديثة بين عامى ١٢٠٠ ، ١٤٠٠ . ولعل قبائل أجان التى توغلت فى الغابات وأطلقت على نفسها اسم الأشانتى ، قد اكتشفت الذهب فى القرن الخامس عشر ، وبدأت تـكون أحلافاً عسكرية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . ودارت قبائل أخرى من الأجان يقال لها فانتى حول الغابات ، واستوطنت تلك الشقة المغطاة بالسافانا فى ساحل الذهب غربى شعب جا مباشرة ، ولـكن كم من هذه الروايات يمكن تقبلها ؟ وإلى أى

حد كان فى الإمكان أن تمتزج قبيلة مهاجرة بأخرى أو بالسكان الأوائل الذين كانوا مقيمين فى المناطق التى جرى اجتياحها ؟

والمعلومات عن الهوسا قليلة نسبياً ، فبالرغم من احتفاظهم بسجلات مكتوبة فإن معظمها دمر فى ثورة قام بها الفلاحون منذ ١٥٠ سنة خلت . ويبدو أنهم من الغزاة البربر — أو ربما من اللاجئين الفارين أمام الغزوات العربية ، ففرضوا سلطانهم على الشعب الزنجى الوطنى الذى كان يشتغل بالزراعة. وكان الهوسا تجاراً على درجة جيدة من النظام ، ونظموا أنفسهم على هيئة سلسلة من مدن كل منها تمثل دولة ذات سيادة . وقام تحالف بين الملوك وبيروقراطية ثابتة الدعائم ، ساعد أقلية فاتحة فى الإبقاء على سلطانها على جماهير الشعب من أبناء البلاد . هذا الشكل من الحكم تأثر إلى حد كبير بتعاليم القرآن فى تاريخ مبكر جداً ، ولكن الحكام أو الجماهير لم يتقبلوا الإسلام ديناً لهم إلا بصورة جزئية وببطء . وتخصص الهوسا فى عمل القماش الرقيق والمصنوعات الجلدية والعبيد الذين كانوا يصطادونهم أو يشترونهم شرقى دلتا النيجر . وكانت تلك « المدن الدول» تتجر عبر الصحراء مع الإمبراطوريات القائمة على امتداد النيجر الأوسط ومع زنوج اليوروبا وجا . فهل كان الجا إذن من اللاجئين الذين فروا بصورة جماعية من وجه الفاتحين الهوسا ، وواصلوا علاقاتهم التجارية ولكن احتفظوا باستقلالهم ؟

من الصعب القول ما إذا كان الزنوج عاشوا بأعداد لها شأنها فى الغابات الممطرة قبل القرنين الرابع عشر أو الخامس عشر ، ولكن من الصعب

بالمثل الاعتقاد بأن الأجان كانوا لاجئين بأعداد كبيرة وفدوا من ناحية الشمال البعيد . إن لغتهم قريبة جداً من لغة جيرانهم من أهل الغابات وهى مختلفة جداً عن أى شىء معروف فى وادى النيجر الذى يزعمون أنهم قدموا منه . غير أن هذا لايعنى أنهم كانوا بالضرورة يعيشون فى شمال منطقة الغابات أو جنوبها ، ولايعنى أنهم لم يتعرضوا لأية مؤثرات واردة من الشمال الأقصى .

قد يكون الجواب بالنسبة إلى كل من الجا والأجان أن القوم الذين كانوا يتكلمون هذه اللغات عاشوا زمناً طويلا عـــلى الحافة الجنوبية للسافانا شمالى منطقة الغابات المطيرة و بعيدين عن الساحل ، ولـكنهم تلقوا فى زمن أحدث سيلا من التقاليد و الأشكال التنظيمية، بل وأرستقراطية حاكمة من الأماكن التى يزعمون أنهم هم نشأوا فيها فى الأصل . و بعـــد ذلك اكتسبوا بدورهم بسالة عسكرية ، وارتدوا منذ حوالى عام ١٥٠٠ نحو الساحل والغابة المطيرة بوصف ذلك وسيلة لتفادى الضغط المتزايد من جانب الإسلام ، والاضطراب الناشب فى وادى النيجر .

وثمة رأى يوازى هذه الإمكانية مع تعقيد أقل بدرجة طفيفة ، قد نلقاه فى الزنوج من أبناء الغابات المطيرة بساحل العاج الحـــديث وليبيريا وسيراليون . ففى كل هذه المناطق المغطاة بالغابات يظهر أن التوغل تم على صورة أعداد صغيرة وفى زمن متأخر نسبياً ، وعلى أيدى الجماعات الأقل تقبلا للتنظيم المركزى أو الإسلام . وقد يبدو أنهم غادروا السافانا على غير رضاء منهم ، كى يهربوا من الإسلام والحكم القوى، ولـكنهم لم يتعرضوا للتأثير أو يشعروا بالضغوط ، مما أرغم الأجان على إنشاء المحالفات والأحلاف .

وهناك مجموعة متفرقة عبر غرب أفريقية من السنغال إلى دول الهوسا يقال لها الفولانى، وكانوا من البدو الرحل، ونادراً ما أقاموا دولة لأنفسهم وإنما عاشوا كشعب يتمتع بالحماية فى المجتمعات الكثيرة القائمة فى أقاليم السافانا، الجنوبية والوسطى. وهم يزعمون أنهم من سلالة بيضاء، وهو زعم حاول العلماء الأوائل تبريره عن طريق ربطهم بالبربر، ولكن الرأى الحديث[1] يؤيد وجهة النظر التى تذهب إلى أنهم أصلا من الزنوج الذين نشأوا على مقربة من الطرف الغربى لإفريقية. ولقد ظلوا قروناً يقاومون الإسلام، ولعل ذلك أو ميلهم الرعوى وحده هو الذى شجع على هجرتهم التدرجية. ما من شك أن بعضهم كانوا على الحافة الجنوبية لغانة القديمة حين هاجم المرابطون تلك الإمبراطورية، ويبدو أن انتشارهم زاد حوالى ذلك الوقت إذ وجدوا على هيئة أقليات محمية فى مختلف الدول التى قامت فى السافانا من السنغال إلى بلاد الهوسا، وفى أثناء الفوضى التى ارتبطت بالفتـوح المراكشية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر بدأوا يلعبون دوراً هاماً فى سياسة الدول الصغيرة التى قاومت الولاة من أبناء شمال أفريقية ووجدت منهم جماعات كبيرة بوجه خاص، حوالى ذلك الوقت فى فوتاجالون (فى داخل غينيا الفرنسية الحديثة) وفى بلاد الهوسا، وفى كلا الإقليمين كانوا ما يزالون أقلية رعوية ووثنية، بالرغم من أن نسبة طيبة منهم ممن أقاموا بين الهاوسا كانوا فى المدن اختلطوا بالقبائل الأخرى عن طريق المصاهرة حيث اعتنقوا الإسلام. وفى معظم الأحوال عاش الفولانى البقارة على وفاق مع أبناء البلاد المشتغلين بالزراعة.

---

(1) Joseph H. Greenberg. Studies in African Linguistic Classification, New Haven, 1955, pp. 24—32.

وإذا استثنينا سكان السواحل ، فإن الكشف والتوسع الأوربيين لم يكن لهما تأثير مباشر على الحياة الدينية إلا بعد انقضاء ثلاثة أو أربعة قرون .

ومهما يكن من أمر ، فالتأثير الأجنبي غير المباشر بعد حوالى عام ١٤٥٠ ، أدى إلى تغييرات عميقة حولت بشكل جوهرى مجرى التاريخ فى غرب إفريقية .

ـــــالى الرق

وجد الرق — وهو اقتناء البشر كمتاع شخصي — في إفريقية كما في أجزاء العالم الأخرى — منذ عصور ما قبل التاريخ . وكان في مراحله المبكرة ظاهرة صغيرة نسبياً ، معتدلة المدى ومنطقية ، إذ كان الاسترقاق وسيلة للتحكم في المجرمين والساخطين وأسرى الحرب ، واستخدامهم بطريقة إنتاجية في مجتمع رحالة يفتقر إلى الحكومة الموضوعية والسجون الدائمة لتنفيذ القانون . ولأسباب عدة لم يكن الإنكار الكلي للإنسانية والشخصية — وهو الإنكار المرتبط في العادة بالرق — موجوداً فمن جهة لم تكن لدى المجتمعات الإفريقية فكرة دقيقة عن حقوق الملكية الخاصة ولهذا كانت الحقوق الشخصية للعبيد وأحوالهم العامة تحميها قوة القانون التقليدي ومسئولية الجماعة . كذلك كان الرق عادة لفترة زمنية معينة تتناسب مع طبيعة الجريمة أو ظروف الأسر — بدلا من أن يكون حالة طابعها الدوام ، كما كان في الإمكان أن يكسب العبد حريته بفضل حسن سلوكه أو بالشراء . وكان المالك مسئولا عن المحافظة عليه وحمايته ، ومقابل هذا يؤدي العبد قدراً محدداً من العمل بغير أجر . غير أنه كان يستطيع في وقته الحر أن يقتني المنقولات التي يشتري بها حريته ويعود فيندرج في المجتمع كعضو في مرتبة طيبة .

هذه الظروف المخففة من وطأة الاسترقاق ظلت سائدة طالما كان العبد

لا يباع أو يتجر فيه إلا مع المجتمعات المجاورة التى تسير وفق قانون مماثل ، ونشأت المصاعب والمساوئ أصلا حين بيع العبد إلى مجتمع يدين بفكرة الملكية الشخصية التى لا تقبل الانتهاك وفكرة العبودية الدائمة . مثل هذه الأحوال لقيها الزنوج الذين كانوا يباعون إلى العالم القديم فى حوض البحر المتوسط ، وحتى هناك كان السلوك الحسن وتجميع الممتلكات الشخصية مما يمكن استغلالهما لصالحهم . وبانتشار الإسلام قام شكل من الرق أشد قسوة نوعاً ، إذ بالرغم من أن القرآن أوصى بالمعاملة الإنسانية ، فإنه لم ينص على مسئولية الجماعة عن أحوال الأسرى وحماية حقوقهم ، ممن لم يكونوا من المؤمنين بالله الحق . لقد سمح بوجود الخصاء والملكية الدائمة والإنكار الكلى لحقوق الملكية ، ولهذا تحول الاستعباد إلى نفى جذرى لإنسانية الضحية .

هذا النمط من الاستعباد الكلى ظهر فى شمال إفريقية ومصر الإسلامية ، منذ القرن السادس عشر حين زاد حجم الاتجار فى الرقيق نتيجة سيطرة المستوطنين العرب على نهاية التجارة الصحراوية على البحر المتوسط ، وانتشار الإسلام فى السافانا تحت لواء المرابطين ، ويحتمل أن معظم العبيد كانوا من أسرى الحروب وضحايا الغارات الذين كانت تأخذهم إمبراطوريات إقليم السافانا من القبائل الأقل منها تنظيماً ، والمقيمة على امتداد الحافة الشمالية لمنطقة الغابات . ويبدو أن أكبر مصدر للتوريد بعد تطبيق القانون الإسلامى فى دول الهوسا ، كان الزنوج وبخاصة البانتو الذين لم يهاجروا إلى حوض الكونغو الذين يعيشون جنوبى شرق بلاد الهوسا ، وكانوا يتكونون من قبائل صغيرة تفتقر إلى التنظيم الدفاعى ويمكن حثها على الاشتباك فى الحروب فيما بينها حتى يتسنى توفير الأسرى للتجار المسلمين . واشتد الطلب على العبيد فى الأسواق

الواقعة فيما وراء الصحراء ، بعد انحلال الإمبراطورية البيزنطية وسقوطها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ،إذ كان الفاتحون الأتراك في حاجـــة إلى جماعات تابعة لهم ، حتى يتسنى لهم الاحتفاظ بحكمهم على السكان المسيحيين . وارتقى كثيرون من العبيد الزنوج فشغلوا مراكز إدارية رئيسية في ظل السلاطين بالآستانة ، ولكن الخصاء كان مطلوباً دائماً للحيلولة دون قيام مصالح وراثية قد تنازع الأتراك سلطانهم . وكان الموردون من الهوسا الذين ضمنت لهم هذه السياسة سوقاً دائمة ، نشيطين بوجه خاص في إعداد هؤلاء الخصيان للرحلة إلى الأسواق .

وكان الرق البسيط موضع الممارسة أيضاً بين البانتو الذين هاجروا عبر الغابات من الكمرون خلال العصر المسيحي . وحالت المنافسة الحادة على احتلال الأراضي الواقعة عند خط تقسيم الكونغو والسيطرة عليها ، إلى خلق سلسلة من القبائل المنظمة نسبياً ، والتي كان ينجح بعضها في اجتياح جيرانه من وقت لآخر . كان من الجائز استرقاق بعض الأسرى الذين يؤخذون في أمثال هذه الصراعات ، ولكن يحتمل أن أعظم مورد لهذا المتاع كان يتمثل في العبيد الذين تسلمهم القبائل التي أخضعت بوصف ذلك جزية مفروضة عليها . لم تكن هناك سوق أو تجارة بالنسبة إلى هؤلاء الأسرى ، ولكن إذا أمكن إدماجهم في أهل القبيلة المنتصرة أمكن أن تعظم سلطة الزعيم الحاكم ، في داخل تلك القبيلة وفي جميع أرجاء المنطقة .

ويحتمل أن المستكشفين والتجار البرتغاليين الأوائل اشتروا أولى شحناتهم من العبيد من التجار المسلمين المقيمين على سواحل السنغال وموريتانيا في أواسط

القرن الخامس عشر . ولما مات الأمير هنرى الملاح فى عام ١٤٦٠ كان يجرى شراء الزنوج من الوسطاء الزنوج والبربر بين نهرى السنغال وغينيا ، كما كان عدد قليل يؤسر عن طريق الغارات التى تشن كيفما اتفق عند الطرف الشمالى الغربى لمنطقة الغابات ، ولكن هذه العملية كانت تكلف الأوروبيين الكثير من الرجال والمال ، بخلاف التبادل السلمى . وبعد عام ١٤٨٢ ، حين استقر البرتغاليون فى إلمينا على ساحل الذهب ، وضعوا التأكيد على اقتناء الذهب ، وكان فى الإمكان إيجاد العدد الكافى من العبيد فى أماكن أقرب إلى البرتغال، حول الرأس الأخضر ، لإشباع الطلب الأوربى . وفى إلمينا عقدت معاهدات مع قبائل الفانتى القاطنة على امتداد الساحل ، وتنص على مبادلة الذهب بالملح والقماش والقطع المصنوعة والآلات . كانت العلاقات . رة وودية بدرجة معقولة طالما لم يحاول البرتغاليون أن يتخطوا هذه القبائل الوسيطة ليستغلوا المناجم أو ليتصلوا اتصالا مباشراً بالمنتجين من شعب الأشانتى فى الداخل .

وزار بعض رجال الإرساليات الدينية والتجار بنين غربى دلتا النيجر ، ولكن الاهتمام بهذه الجهة كان قصير الأمد. وسار البرتغاليون بعيداً على الساحل — وكانوا الآن يبحثون عن مملكة برسترجون المسيحية التى تحدثت عنها الأساطير ،وعن طريق إلى الهند — فاتصلوا بشعب البانتو فى الكونغو . وفى عام ١٤٨٣ طلب حاكم مانيكونغو التى تصادف أن كانت القبيلة التى لها الغلبة، المساعدة فى المحافظة على سلطته،وأعرب عن اهتمامه بالمسيحية.وتم اكتشاف رأس الرجاء الصالح بعد ذلك بأربع سنوات ، ولكن نشاط البرتغاليين تحول إلى مانيكونغو قبل أن يتجهوا نحو الشرق. وفى ربيع عام ١٤٩١ وصل إلى الكونغو

رجال الإرساليات والمبعوثون والمستشارون الفنيون ، حاملين الصور والهدايا . وجرى تعميـــد الزعيم نزينجا كنوو'و Nzinga Kouwu باسم الملك يوحنا الأول ، وعقدت محالفة مع يوحنا الثانى ملك البرتغال بوصفها بين عاهلين على قـــدم المساواة ، وأنشئت مستعمرة أوروبية صغيرة فى مبانزا ، وهى المقر القبلى والواقعة على مسافة ١٢٥ ميلا فى الداخل . وساعدت قوات مانيسكونغو فى إخماد ثورة ولـكن عندما أصبح يوحنا الثانى أكثر اهتماماً بالهند ، بدأت مملـكة البانتو ترتد ، فتراجع رجال الإرساليات إلى الشاطئ مع ولى العهـــد مبيمبا أ ــ نيزنجا ، الذى أصبح بعد عشر سنوات فى المنفى ، برتغالياً مثقفاً ، قد انقطعت صلته تماماً بأساليب البانتو .

وفى أثناء النفى بدأ الساخطون البرتغاليون الذين أبعدوا ، يدخلون زراعة قصب السكر فى جزيرة ساو توميه الاستوائية غير السكونة والتى تقع على مسافة ٦٠٠ ميل شمال غرب الـكونغو . لقد جاءوا أولا إلى البر فى حوالى سنة ١٥٠٠ لشراء العبيد للعمل فى مزارعهم ، ووجدوا بين اللاجئين من المانيسكونغو موردين على استعداد لسد حاجتهم، واتخذ مبيمبا أ ــ نزينجا اسم ألفونسو الأول بعد وفاة والده ، وأخضع الحـكام الوثنيين الذين اغتصبوا ميراثه ، وأطلق على عاصمته مبانزا اسم ساو سلفادور . وجاء مزيد من رجال الإرساليات فى ١٥٠٨ لدعم برنامج ألفونسو فى إدخال الحضارة الأوربية ، ولـكن نادراً ماجرى بعد ذلك تذكر ألفونسو . وتحول النشاط البرتغالى إلى غزو المحيط الهندى فى عام ١٥٠٩ ، أما رجال الإرساليات الذين كان أكبر اهتمامهم منصباً على الجوارى والعبيد منه على تحويل الوثنيين إلى المسيحية ، فأخذوا يموتون بالتدريج .

وفرض صاحب امتياز ملكية مزارع ساو. توميه الرقابة على الاحتجاجات والنداءات التي كان ألفونسو يبعث بها إلى اشبونة ، وأصدر إمانويل ، ملك البرتغال الجديد ، أوامر نموذجية لتصحيح الوقف ولكن لم يتمكن من فرض إرادته على رعاياه. وظل ألفونسو يمثل إلى حد كبير الدافع على التقدم ، فأقيمت في ساو سلفادور المباني على الطراز الأوربي ، وأرسل أبناء الزعماء للدراسة في البرتغال — ودخل ابنه في خدمة الكنيسة وأصبح أسقف الكونغو وهو الزنجي الوحيد الذي فعل ذلك حتى العصور الحديثة — ولكن ساو توميه استرقت الكثيرين ممن كانوا قبلا من الطلاب . وحاول ألفونسو أن يقوى الإرساليات ، ولكن ظل الاستعراض التقليدى القائم على شن الحروب لاقتضاء الجزية ، يسود بلاده . كان واضحاً أن الأسرى الذين يقعون فى أمثال هذه الحملات ، مرشحين للشحن إلى ساو توميه ، وهو أمر لم يلق إليه ألفونسو بالا بنوع خاص . كان معتاداً على شن الغارات من أجل الحصول على العبيد ، وصدق بإخلاص البرتغاليين حين وعدوا بمد مزايا التحول إلى دينهم إلى هؤلاء القوم .

وظهر تجار ومبشرون برتغاليون جدد فى بلاد المانيكو نغو خلال الثلاثينات من القرن السادس عشر ، ولكن بسبب دسائسهم الشخصية أبقوا المملكة فى اضطراب مفتعل لم يكن فى وسع أي ملك كنغى أن يتحكم فيه ، وظلت الأسرة الباتنوية المسيحية قائمة حتى القرن السابع عشر . كان مقر أسقف الكونغو — من الناحية القانونية — وهو الآن برتغالى أبيض — كاتدرائية ساوسلفادور المبنية على الطراز البرتغالى حتى سنة ١٦٧٦ ، ولكنه كان يقيم فى العادة على ساحل أنجولا . ومن حين لآخر كانت ترسل بعثات

دينية جديدة إلى ساوسلفادور — وقامت هيئة كلية بتدريب عدد قليل من القساوسة الأفريقيين هناك. وفي منتصف القرن السابع عشر كان الملك يدرج في عداد المسيحيين — ولكن مملكة الكونغو كانت تؤدي الجزية إلى البرتغال بعد ١٥٧٠، وارتد أهلها إلى الوثنية بحلول ١٦١٥، وزالت البقايا الأخيرة لساوسلفادور والأسرة المالكة في مانيكونغو قبل عام ١٦٩٠، واستمرت البرتغال في اعتبار البلد حليفاً ذا سيادة حتى عام ١٨٨٣، ولكن كل ما تذكره البانتو في ذلك الوقت كان اسم ألفونسو وتجارة الرقيق، وبعض التعاويذ الغامضة ذات الأصل المسيحي.

كانت التجربة رائعــــة، ولكن لم تتمكن البرتغال ولم يستطع ملوك مانيكونغو فض النزاع بين القيم الأوروبية والتقليد الأفريقي. فمن جهة، أراد ألفونسو والحكام البرتغاليون أن يخلقوا دولة سياسية متماسكة ذات نظام مركزي للحكم، تعتنق المسيحية وتتولى الإدارة فيها البيروقراطية، وتسير وفق النظم القانونية والثقافية الأوربية. ومن جهة أخرى واصل الطرفان تقبل نظام البانتو القائم على اللامركزية والمكون من دول تابعة، ينتج العبيد ويشجع الفتن ويحول دون الاستقرار الدائم. وبالرغم من النوايا النبيلة في لشبونة فضل التجار ورجال الإرساليات البرتغاليون تشجيع الفتن، وأسلوب البانتو في اقتضاء الجزية ونظام الرق الذي تولد بسببه، بل ولم يكن بأمر ذي بال أن تجتاح قبيلة أخرى أراضي المانيكونغو، إذ كان في الإمكان الحصول على العبيد من أي زعيم قبلي يحرز النصر، وكان الورد أوفر إذا اتسم الموقف بأعظم قدر من الفوضى. ومن هنا كانت تجارة الرق الثمرة الدائمة الوحيدة التي أسفر عنها مشروع الكونغو.

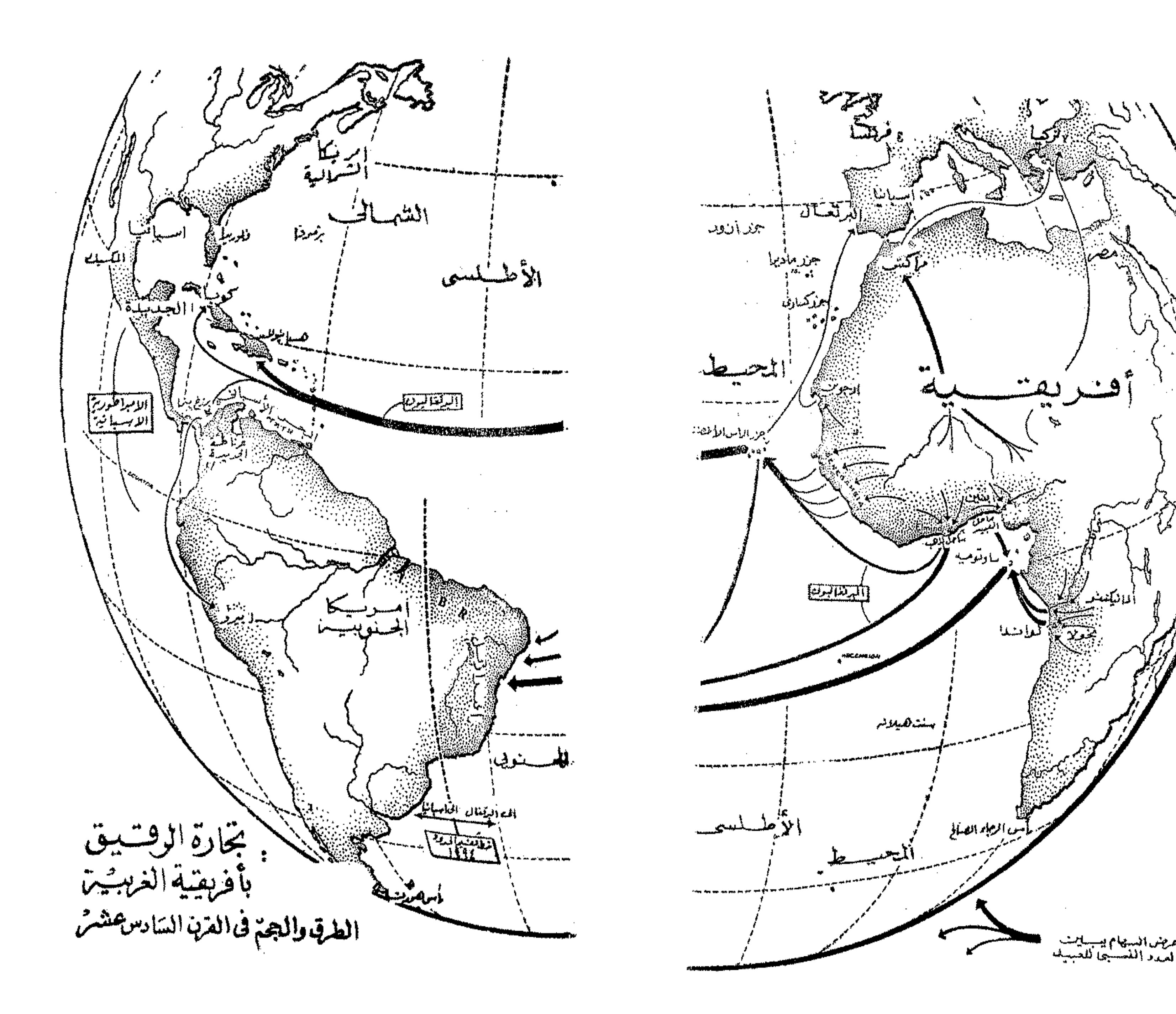
وفى أوائل القرن السادس عشر ، خلال حكم ألفونسو وألمع فترة فى تاريخ التجربة الكونغولية، اقتصرت سوق الرقيق على مزارع جزيرة ساوتوميه. وكان البرتغاليون والإسبان فى سانتو دومنجو يحصلون على حاجاتهم مباشرة من قبائل السنغال وجامبيا . لكن بعد عام ١٥٣٠ ، ترتب على توسع الإسبان فى كوبا والبر الأمريكى ، إلى جانب إقامة البرتغاليين فى البرازيل التى كانت تعانى من الفقر فى عدد السكان ، أن نشأت أسواق جديدة للعبيد الإفريقيين ، لم يكن فى الوسع إشباع حاجتها عن طريق السنغال وجامبيا وحدهما . وقبل عام ١٥٥٠ بدأت مناجم الذهب القريبة من إلمينا تنضب فتحول الوسطاء من شعب الفانتى إلى توريد العبيد للأمريكتين . وكان تجار الرقيق يسدون حاجاتهم أيضاً من بنين ، وإن ركزوا أعظم الطلب على الانيكونغو حيث سرعان ما طغى اعتماد اقتصاد البلاد على الرق على تأثير الثقافة الأوروبية .

وكانت مصالح البرتغال التى تناثرت بانتصاف القرن على شواطىء المحيطات الثلاثة، تشكل استنزافاً خطيراً لقوتها البشرية المحدودة. فكانت لها احتكارات تجارية ومزارع وإرساليات دينية فى البرازيل (السكر) ، وفى السنغال وجامبيا وساحل الذهب والكنغو (العبيد) ، وإفريقية الشرقية والخليج الفارسى والهند والملايو وجزر الهند الشرقية والصين واليابان (التوابل والسلع الترفية) . كذلك كانت السفن البرتغالية تزود إمبراطورية إسبانيا فى أمريكا بالعبيد ، وحاول التجار التسلط على التجارة المحلية فى المحيط الهندى وشرق آسيا ، واستمرت الحملات الباهظة التكاليف توجه إلى العرب فى مراكش . وفيما عدا البرازيل ، كان من الضرورى نبذ معظم المحاولات من أجل التسرب إلى الداخل، ولهذا زاد الاعتماد على الجزر القريبة من الساحل حيث كان فى الإمكان

حماية الجاليات البرتغالية الصغيرة ، من الهجوم والمرض . وعلى الساحل الإفريقى المطل على الأطلسى كانت إلمينا المحطة الوحيدة على البحر ، وأوقفت رسمياً الإرساليات والمراكز التجارية فى الكونغو وبنين والسنغال وغمبيا . وانتقل التأكيد إلى جزر الرأس الأخضر وساوتوميه ، وأصبحت الاثنتان حظائر مؤقتة للعبيد ، ولكن ساوتوميه أقامت أيضاً اقتصاداً مجزياً يستند إلى زراعة القصب التى سيطر عليها نفر قليل من ملاك المزارع الأوربيين ممن عاشوا فى بذخ وترف . واستمر الطلب من جانب الجزيرة على العبيد ، ولكن المزارع الأكبر حجما والمملوكة فى البرازيل صارت أعظم أهمية بكثير .

وكانت قسوة المناخ الاستوائى ، بالإضافة إلى الخوف من إفقار الوطن الأم من أهله ، عاملا يحول دون هجرة النساء الأوربيات ، ولهذا اعتمد بقاء البرتغاليين وتكاثر عددهم على الزواج مع الأجناس الأخرى فى جميع أنحاء الإمبراطورية . والواقع أن امتيازاتهم الوراثية كانت أشد وضوحاً من ثقافتهم الأوروبية .

ورغم أن البرتغال لم تكن قادرة ولا راغبة فى التورط البعيد المدى فى إفريقية ، كان من الضرورى وجود شكل ما من أشكال الرقابة والاتصال بالنسبة إلى ذلك المصدر الجنوبى الذى يزودها بالرقيق . لقد درج المانيكونغو على ادعاء السيطرة على المنطقة الواقعة جنوبى ساوسلفادور ، والمعروفة باسم أنجولا ، ولكن تضاؤل قوة الباتتو كان قد وضع حداً لاقتضاء الجزية البشرية هناك ، وفى عام ١٥٧٦ طبق بلاط لشبونة نظام منح امتيازات التملك السائد فى ساوتوميه والبرازيل ، على المنطقة الساحلية غير المنظمة ، ولكن رغبة فى الحيلولة



أمريكا الشمالية
الشمالي
الأطلسي
المكسيك
برمودا
كوبا
الإمبراطورية الإسبانية
البرتغاليون
أمريكا الجنوبية
بيرو
الجنوبي
فرنسا
تركيا
إسبانيا
البرتغال
مراكش
مصر
جزيرة ماديرا
المحيط
أفريقية
ساوتومه
لواندا
أنجولا
سنت هيلانة
رأس الرجاء الصالح
الأطلسي
المحيط
رأس هورن
تجارة الرقيق بأفريقية الغربية
الطرق والحجم في القرن السادس عشر
عرض السهام يبين العدد النسبي للعبيد

دون تبديد الجهود وإشاعة الاضطراب فيها ، طالب الملك بالحكم المباشر على قبائل البانتو المنقسمة على بعضها ، وعلى استغلال المزارع . فأنشىء فى لواندا حصن ساحلى قوى يضم مخزناً يستقبل العبيد، واستخدمت الوحدات العسكرية بكثرة إما لإرغام الزعماء على بيع المسجونين أو للحصول على العبيد مباشرة ، وأخفقت فى العادة المحاولات التى بذلت فى سبيل تنمية المزارع إذ كانت تجارة الرقيق أوفر جزاء، وتضاءل الأمل فى اكتشاف مناجم لها قيمتها كلما اطرد ارتياد البلاد واستكشافها . لقد حلت أنجولا فى ظل السيطرة البرتغالية المباشرة ، محل منطقة الكونغو الجزية وإن افتقرت إلى التنظيم وذلك بوصفها المورد الرئيسى لتلك الشحنات من أبناء البشر .

وقتل الملك الطائش سيباستيان الأول وهو يحارب المراكشيين ، وهنا انتقل التاج البرتغالى فى عام ١٥٨٠ إلى فيليب الثانى ملك إسبانيا الذى كان اهتمامه بإفريقية والبرازيل والشرق دونه بالنسبة إلى المكسيك وبيرو . أما الأراضى الواطئة التى آلت إلى فيليب بعد تقسيم ممتلكات أبيه فى وسط أوربا ، فاعتنقت الإصلاح الدينى ونالت استقلالا فعلياً عن إسبانيا الكاثوليكية قبل انتهاء القرن . وإذ اعتاد الهولنديون طويلا الصيد من البحر وتجفيف الأرض منه ، فقد كانوا فى ظل حكم فيليب الموزعين فى الشمال للمنتجات التى تستوردها البرتغال وإسبانيا من وراء البحار . نادراً ما أقرت الولايات الهولندية ذات السيادة هذه السياسة ، ولكن لم يكن ثمة تردد فى تخطى الوسطاء الإسبان المكروهين ، من أجل استغلال الشرق وإفريقية والأمريكتين لأنفسهم. وظهر الدخلاء فى إفريقية البرتغالية والهند قبل عام ١٦٠٠، وسرعان ماطُرد البرتغاليون أو أنشئت محطات تنافسهم .

ومنحت البراءات بالاحتكارات إلى شركتين كل منهما أقوى فى التجارة والحرب من ولايات هولنده المتقسمة ، وهما شركة الهند الشرقية الهولندية وتمتد سيادتها من رأس الرجاء الصالح إلى اليابان ، وشركة الهند الغربية فى المحيط الأطلسى . وبنيت السفن الهولندية وفق طراز بسيط وقياسى يجعل إدارتها اقتصادية ، وسرعان ما استطاعت أن تقوض دعائم الاحتكار البرتغالى دون أن تعرض للخطر الأرباح الخيالية التى يمكن اجتناؤها . وفضلت شركة الهند الغربية ساحل الذهب على إقليم السنغال وغمبيا الأقل سكاناً ، كمصدر للعبيد . وعقدت المعاهدات مع الفانتى ، وظهرت محطات جديدة هناك وتم الاستيلاء على الحصون البرتغالية ، ولكن فى المناطق الأبعد صوب الجنوب ، أى فى أنجولا والكونغو ، لم يعبأ تجار الرقيق البرتغاليون بأوامر فيليب، وقبلوا ذهب هولنده بنفس الاستعداد الذى كانوا يقبلون به عملة بلدهم الذهبية . وإذ حصل الهولنديون على موطىء قدم لهم فى شمال شرقى البرازيل ، وعلى السيطرة على المستهلكين الآخرين من البرتغاليين والإسبان فى العالم الجديد ، صار لهم احتكار فعلى فى الشحنات التى تعبر الأطلسى ، وهو احتكار ظل قائماً حتى العقد الثامن من القرن السابع عشر ، وفتحت أسواق جديدة فى جزر الهند الغربية البريطانية والفرنسية ، وكذلك فى فرجينيا ، كما توغل المربون الهولنديون فى سوق المستعمرات الإسبانية .

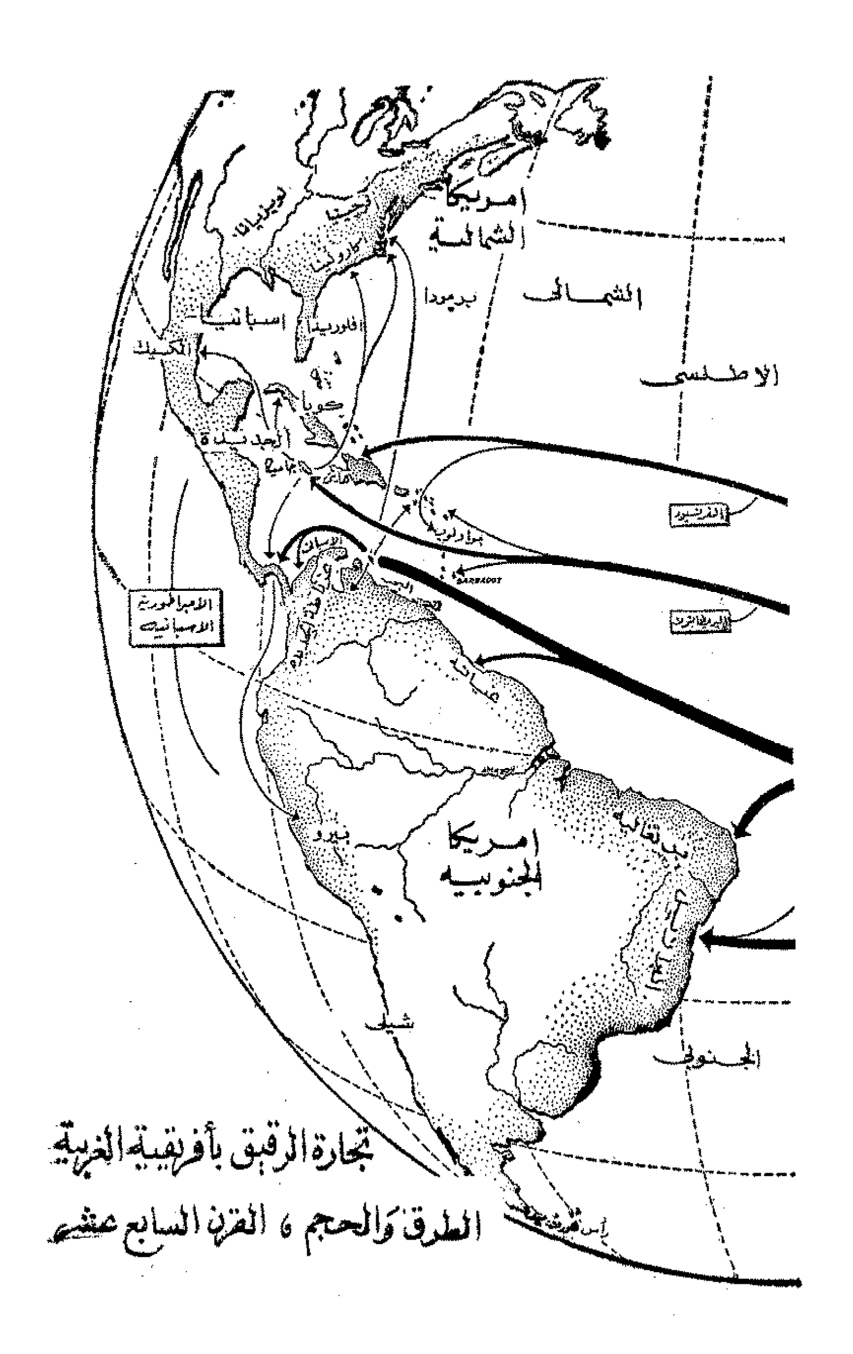
لم يكن الهولنديون يستهلكون سوى جزء يسير مما تنقله سفنهم ولذا اعتمدوا إلى حد كبير على الأسواق الأجنبية ليبيعوا فيها العبيد ومنتجات الشرق . وزاد سخط إنجلترا وفرنسا بسبب اضطرارهما إلى دفع الذهب النفيس والنعمة نتيجة اعتمادهما على خدمات الهولنديين. وبالرغم من عجزهما عن منافسة

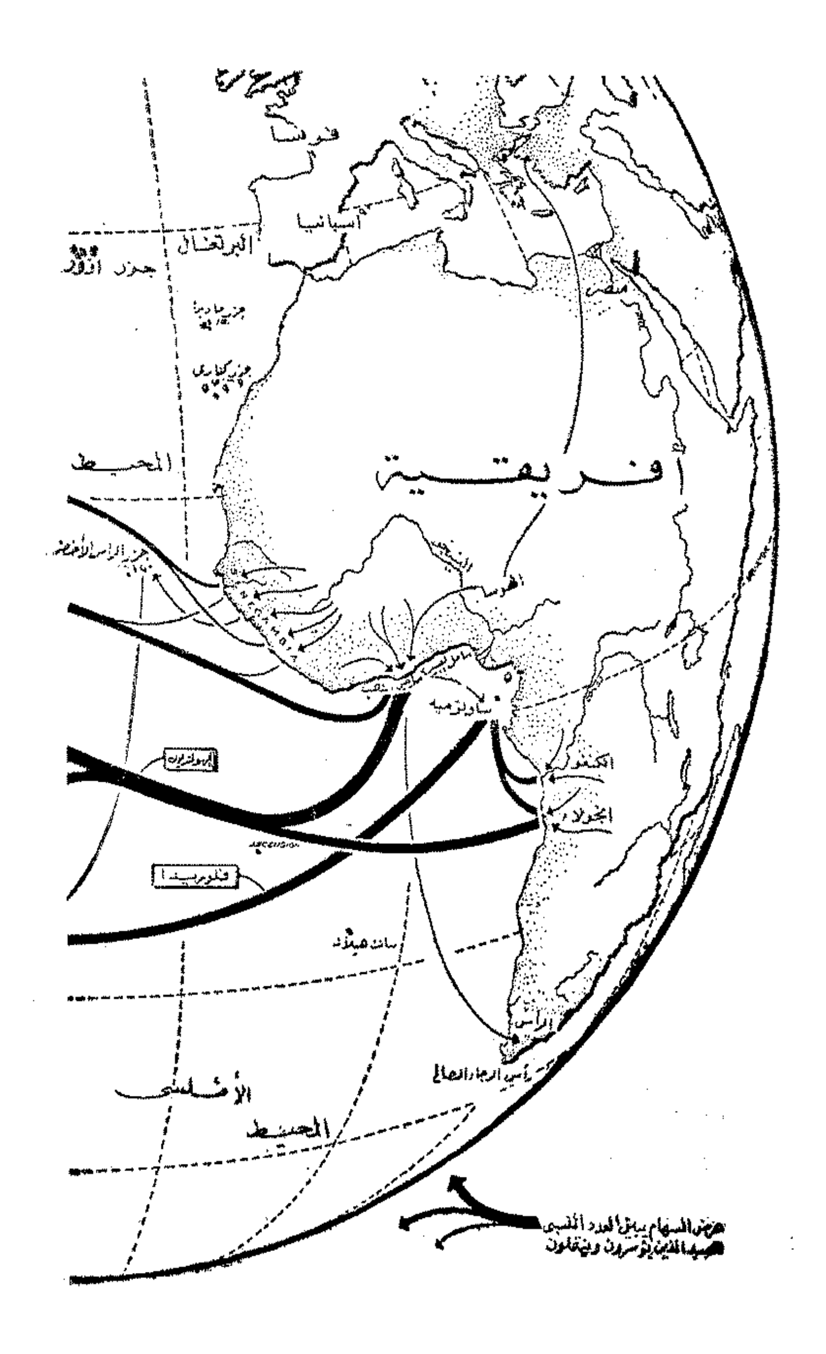
أصحاب السفن الهولنديين الأكفاء فى التجارة الحرة ، استطاعتا إقامة الحواجز الجمركية وتحريم الاستيراد، حتى يتسنى لهما تشجيع التجار من أبنائهما. كانت هولندة أوفر عدداً وأعظم قوة من البرتغاليين ، ولكنهما لم تملك من الموارد ما يكفى لتجهيز أسطول تجارى وبحرية فعالة ، وبذلك تمكنت إنجلترا من تنفيذ التنظيمات التى فرضتها لتحطيم مركز الهولنديين .

كان أصحاب السفن الخاصة من البريطانيين والفرنسيين قد عهد إليهم بصورة غير منتظمة ، ومنذ أواخر القرن السادس عشر ، بمزاولة تجارة الرقيق والتهريب، ولكن لم تكن لهم مستعمرات تابعة لبلادهم يستطيعون بها احتكار التجارة إلا بعد أن لحق الهولنديون بالسبق الذى حققه الإسبان والبرتغاليون . وعن طريق الحرب البحرية والتشريعات المقيدة لتجارة المستعمرات ، فرضت إنجلترا وفرنسا سيطرة تجارية على الأقاليم التابعة لهما ، ثم انتزعا السيطرة على تجارة الشرق والمحيط الأطلسى بوجه عام . وإذ كانت إنجلترا أقل تدخلا فى الشئون الأوروبية ، لهذا كانت أوفر حرية فى التركيز على البحر ، وصارت لها اليد العليا بانتهاء العقد الأخير من القرن السابع عشر ، وانحازت عدة قبائل من الفانتى المشتغلة بتسويق الرقيق والمقيمة على ساحل الذهب إلى الدخلاء الإنجليز طواعية ضد الهولنديين المستقرين هناك ، وأبرمت العقود مع الدول الزنجية من اليوروبا وداهومى التى كانت قد أخذت فى الظهور وأطلق عليها جميعاً اسم ساحل العبيد . أما التجار البرتغاليون الذين ظلوا متمسكين بقدر كبير من التجارة بين أنجولا والبرازيل ، فكانوا يزودون السفن التابعة لحليفهم البريطانى القديم بالشحنات من العبيد .

وحصلت فرنسا على تلك الثروة المثلة فى الرقيق ، من الدول الزنجية المستقلة على ساحل العبيد ، وعلى امتداد سواحل مختلفة (السنغال ، غمبيا ، جابون إلخ.) مما أهملته الشعوب الأخرى . وبعد إنشاء المزارع الكبيرة الغنية فى هايتى لم يعد « العهد القديم Ancien Régime » فى حاجة إلى أسواق الرقيق الأجنبية ، أو إلى أرض جديدة لتنفيذ مشروعاته البحرية .

لم يشعر الأوروبيون بالكثير من وخز الضمير حول أخلاقية الاسترقاق . فبالرغم من أن امتلاك البشر ملكية خاصة كان أمراً غير عادى للغاية فى أوروبا فى العصور الوسطى وعهد النهضة ، إلا أنه يمثل خروجاً على القانون . فقد تقبل معظم علماء اللاهوت والمحامين والأشخاص المسئولين دعوى تجار الرقيق بأن الإفريقيين أفضل حالا فى ظل الإشراف المسيحى أفضل حالا منهم عند الوثنيين أو المسلمين من ملاك الرقيق . وقالت الحجة إنه طالما كان الرق شيئاً « طبيعياً » عند الإفريقيين فما على الأوروبى إلا أن يتأكد من أن العبد المشترى يستعبد بطريقة عادلة تتمشى مع القانون الإفريقى ، غير أن هذا كان أمراً يصعب جداً تقريره ، والواضح أنه لم يكن فى الإمكان الاطمئنان إلى أن السيد نفسه ينطق بالحقيقة ، إذ نادراً ما كان الأوروبيون يعرفون من الذى قام بعملية جلب العبيد ، بل ولم يقابلوا الآسرين ، وأقل من هذا كان مبلغ فهمهم للنواحى الدقيقة فى قانون الاسترقاق التقليدى عند الإفريقيين . بطبيعة الحال ، كان الوسطاء أو الآسرون يدعون أن الاسترقاق له مايبرره ، وغالباً ما كانوا يضيقون من نطاق القانون حتى يتسنى الحصول على مزيد من العبيد « بطريقة قانونية » . وكانت المنافسة بين الجماعات الإفريقية على الربح من تجارة العبيد ، عاملا شجع على


تجارة الرقيق بأفريقية الغربية
الطرق والحجم في القرن السابع عشر
امريكا الشمالية
الشمالى
الاطلسى
برمودا
اسبانيا
فلوريدا
كوبا
الجديدة
امريكا الجنوبية
برتغالية
بيرو
شيلى
الجنوبى
الامبراطورية الاسبانية
BARBADOS


فرنسا
اسبانيا
البرتغال
جزر آزور
مصر
أفريقية
المحيط
الكنغو
انجولا
سانت هيلانة
الرأس
رأس الرجاء الصالح
الأطلسى
المحيط
ASCENSION
عرض السهام يبين العدد التقريبى للعبيد الذين يؤسرون وينقلون

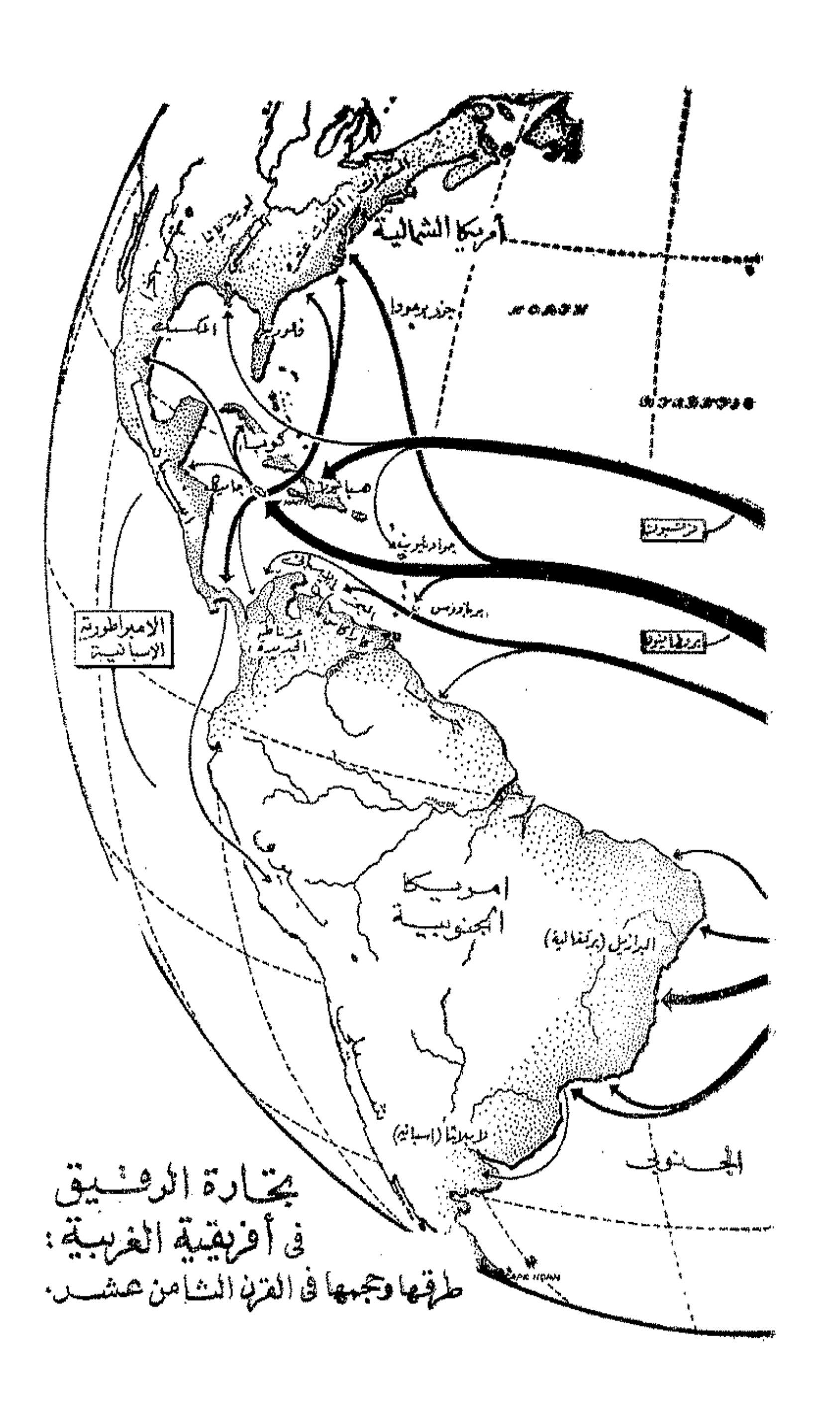
حدوث زيادة ملحوظة فى الحروب وبخاصة الحروب المستميتة التى لا معنى لها ، إذ لم تعد الحرب تشن أصلا لرفع ظلم أو اكتساب شرف ، كما لم يعد يحد منها الاتفاق المتبادل أو الشرائع الدينية . لقد تحولت الحرب فى إفريقية من عملية محلية ، غالباً ما كانت وليدة الطقوس،إلى صراع مستميت من أجل غزو لا معنى له ، والحصول على ثروة القبيلة وإنقاص عدد أفراد العدو فى نهاية الأمر . لم يعد الشرف والنصر أهداف الحرب . وحتى فى حالة الهزيمة فى المعركة ، فإن القبيلة التى تستولى على أكبر عدد من الأسرى كانت تحقق أعظم الربح . وربما كان الأثر الناجم من هذه الثورة فى الحروب أشد وقعاً على إفريقية الغربية ، حيث كانت طرق نقل العبيد وتطور التجارة قبل مجيء الأوربيين ، أشد تعقيداً ؛ ولكن الأثر كان عميقاً أيضاً فى الكونغو وأنجولا بالنسبة إلى الفلاحين والرعاة البانتو الذين وصلوا حديثاً إلى هذين البلدين .

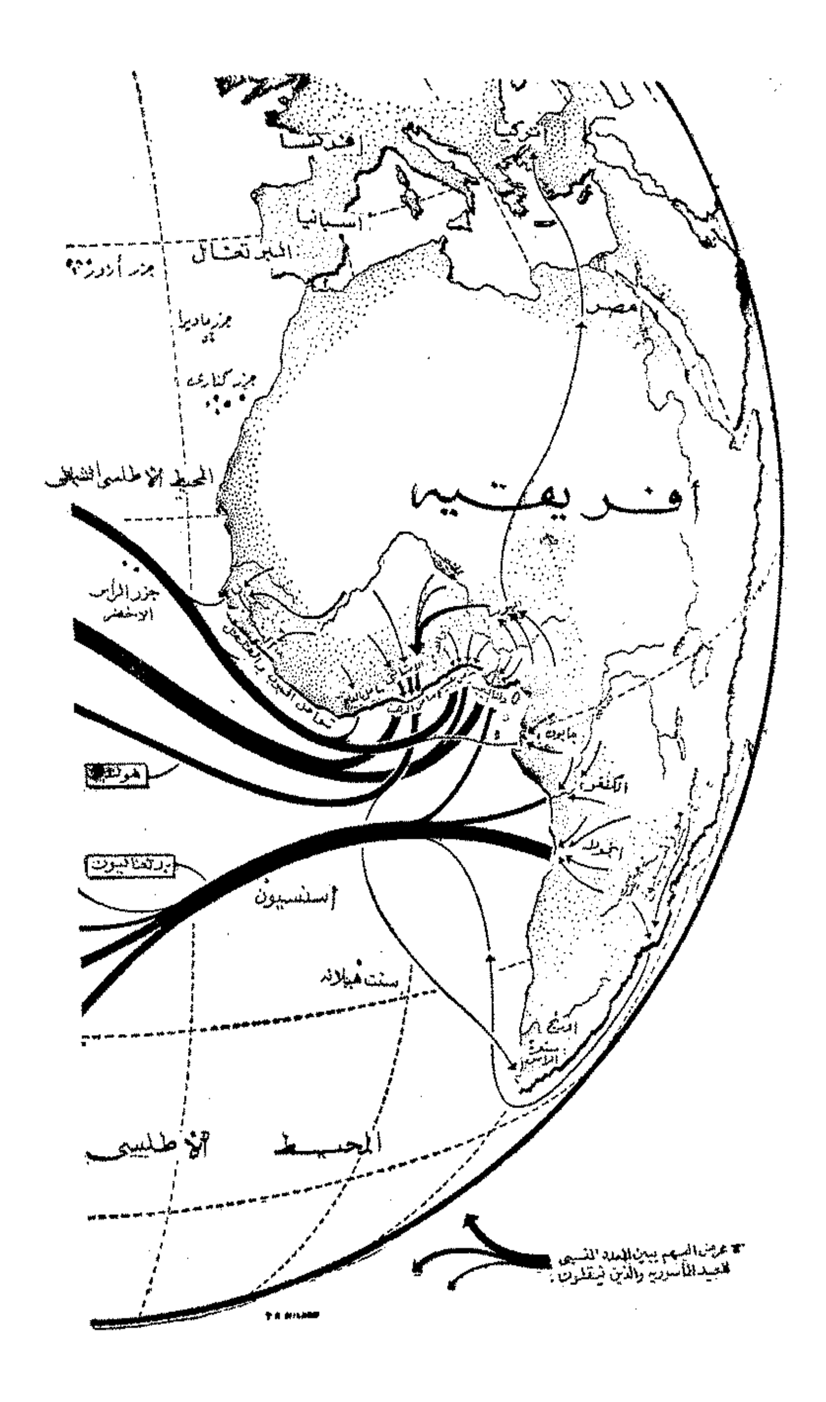
وإذا استثنينا عدداً قليلا من الغارات فى السنغال وغمبيا خلال العقد الأول من القرن الخامس عشر ، فإن الأوربيين فى شمال الكونغو لم يتدخلوا أبداً فى اقتناص العبيد ، إذ كانت العمليات فى هذه المنطقة — التى ربما ورد منها ما يتراوح بين ثلثى وثلاثة أرباع العبيد — تتم دائماً عـــن طريق الوسطاء الإفريقيين . وكانت تستخدم وسائل عدة فى التبادل .

وفى منطقة السنغال وغمبيا انتقلت المحطات الرسمية من الساحل إلى الجزر القريبة منه قبل نهاية القرن الخامس عشر (جزر الرأس الأخضر للبرتغال ، جوريه قرب داكار الحديثة ، لفرنسا وبريطانيا) . وعلى البر كان عدد قليل من الوافدين الذين «أصبحوا من أبناء البلاد» وزعماء القبائل المقيمة على الساحل ،

يأخذون أو يشترون الشحنات لحساب الأوربيين الذين يأتون على فترات متقطعة . وعلى طول شاطىء الحبوب والفلفل (ليبيريا الحديثة) كانت التجارة تجرى من وقت لآخر بين قباطنة السفن الذين يأتون بصفتهم الفردية والقبائل المتفرقة هناك . وفى جميع هـــذه الحالات كان العبيد يؤسرون فى الغارات أو الحروب فى داخل مناطق تبعد حوالى ٥٠٠ ميل من الساحل ، وهى غالباً فى فوتاجالون أو بين قبائل الماندنجو ، وذلك قبل بيعهم إلى الوسطاء المقيمين عند الساحل .

وعلى طول ساحل الذهب، وإلى مسافة حوالى ١٥٠ ميلا على كل من جانبى المحطة البرتغالية الأولى فى إلمينا ، أقام الأوربيون سلسلة من المستودعات التجارية ، يطلق عليها أسماء مختلفة من قبيل الحصون والمصانع والمحطات والمخازن أو المستعمرات . وفى جميع الحالات كانت هذه المحطات مراكز تجارية — لاتسليح إلا تسليحاً خفيفاً — وكانت كل منها تُستأجر من القبيلة المحلية من جماعة الفانتى الذين ينتمـــون إلى زنوج الأجان ، وكانت المفاوضات بشأن المعاهدات أو العقود الخاصة بكل محطة تجرى بين الموظفين الذين يمثلون الأوربيين والفانتى ، بما يقرب من الإكراه الذى نلقاه فى أية علاقات ، فى ذلك الحين أو الآن ، بين دول ذات سيادة ولـكنها غير متكافئة . وكان الاتفاق فى العادة ينص على تحالف عسكرى بالتبادل ، وأداء إيجار المحطة على هيئة سلع أوربية،واستئجار العدد اللازم من العمال للعمل فى أرصفة الميناء مقابل أجر يدفع لهم ، واتفاق تجارى عام يتضمن العبيد . وأقامت البرتغال أربع محطات (بما فيها إلمينا) بعد عام ١٤٨٢ ، ثم بنيت محطة خامسة على مسافة بضعة أميال فى الداخل ، كمحاولة لإحياء إنتاج الذهب حوالى سنة ١٦٢٣ ، ولـكن ما إن





تجارة الرقيق
في أفريقية الغربية:
طرقها وحجمها في القرن الثامن عشر.

حلت سنة ١٦٤٢ حتى كان الهولنديون قد استولوا عليها جميعاً . وحاولت البرتغال أيضاً إقامة محطة سادسة ولـكنها تخلت عنها حوالى سنة ١٨٧٢ .

وأقام التجار الهولنديون أولى محطات عشر فى سنة ١٥٩٨،وظلوا بها حتى سنة ١٨٧٢ . وأعقبتهم بريطانيا التى شيدت ثلاثة عشر حصناً فيما بين عامى ١٦٣١ ، ١٧٨٧ ، وانتهى حكمها فى عام ١٩٥٧ . وبنت السويد محطة فى ١٦٣٢ ، وأخرى قبل طردها فى ١٦٥٧ على أيدى الدنمرك التى أضافت خمس محطات أخرى ، ظل بعضها قائماً حتى عام ١٨٥٠ . وبعد عام ١٦٨٥ أقامت بروسيا براندنبرج ثلاث محطات ثم تخلت عنها بعد ذلك بأربع عشرة سنة . وحاولت فرنسا إنشاء محطة حوالى سنة ١٦٨٨ ، ولـكنها نبذتها عندما رفض المشترون منها قبول عبيد ساحل الذهب . وآخر محطة أنشأتها إحدى قبائل الفانتى فى سنة ١٧٩٨ ولـكنها أخفقت بسبب الحروب النابوليونية،والحظر الذى فرضته بريطانيا فى العقد التالى على تجارة الرقيق . ولقد تم تداول معظم هذه المحطات من يد لأخرى عدة مرات ، بفعل الغزو أو الشراء أو التبادل .وحوالى سنة ١٨٠٠ كانت الحصون التى يجرى استخدامها هى أحد عشر لهولندة ، ثمانية لبريطانيا، خمسة للدنمرك ، وحصن واحد للفانتى . وبحلول عام ١٨٧٢ كان لبريطانيا وهولندة ١٢ ، ٨ مخازن تجارية عاملة ، على التوالى .

وغالباً ما كان توريد الحصص المقررة لمحطات ساحل الذهب ، سبباً فى عمليات متشابكة ومنافسة حادة . وكثرت الحروب بين الزنوج من حلفاء المحطات المتنافسة . وكان الفانتى الذين يحصلون على العبيد إما بطريق الحرب مباشرة

أو بالاتجار مع الأشانتى ، هم الذين يوردون العبيد بانتظام إلى كل دولة أوربية على ساحل الذهب باستثناء هولندة ، إذ كان تجار الأخيرة فى العادة يشترون العبيد مباشرة من الأشانتى، حيث كان بين الهولنديين وحدهم والأشانتى اتفاق تجارى بالرغم من أنهم كانوا يضطرون غالباً إلى الاعتماد على الفانتى . وكان الأشانتى بدورهم يحصلون على أسراهم إما بالحروب أو عن طريق التجارة مع قبائل الساقانا المجاورة والمقيمة بعيداً عن الشمال،وفى السنوات المتأخرة ربما كانوا أيضاً يشترون عدداً قليلاً من صغار المجرمين والمسجونين البانتو من التجار الهوسا الذين يسيرون إلى الداخل .

وكانت بلاد الأشانتى بوصفها مخزن معظم التجارة التى تصل إلى ساحل الذهب من إفريقية الغربية كلها ، فى مركز له مزاياه وخطورته فى الوقت نفسه . فمن جهة نجد أن الحروب المتكررة بقصد أسر العبيد ، والدفاع المتكرر ضد الغارات التى يشنها الفانتى من جهة أخرى ، كل هذا شجع على تقدم فن الحرب ، كما أن التجارة مع السافانا وتوفير الحماية منها كانا يتوقفان على تنظيم يمكن الاطمئنان إليه ، للتجارة والحكم . وقبل انتهاء القرن السابع عشر كان الأشانتى قد تحولوا من شعب زراعى مسالم إلى حلف عسكرى اتسع نطاقه بالغزو أولاً، ثم بالتهديد والإغراء . وفى حوالى عام ١٧٠١ تكون اتحاد من الحلفاء الأشانتى ، تطور إلى شعب متماسك تحت زعامة أوكومبو أنوكى كبير كهنة وزعيم قبيلة كوماسى الأشانتية . وتزعم الأسطورة أنه فى أثناء اجتماع سرى هام ضد أعضاء الحلف ، تلقى أنوكى من السماء كرسياً مذهباً كانت تتجسد فيه روح القبائل المتحالفة ، وهنا أصبح الكوماشين (زعيم كوماسى) ملكاً على الأشانتى .

وتحولت بالتدريج المنازعات بين الفانتى إلى تعاون ضد مملكة أشانتى التى كانت تسيطر على الظهير hinterland ، غير أن الأخيرة استطاعت المحافظة على مركز منيع تقريباً نظراً لأن قبائل السافانا كانت تعتمد عليها اعتماداً كلياً من أجل الحصول على الملح والعدد،وغيرها من منتجات الأوروبيين التى كانت أشانتى بدورها تحصل عليها من الفانتى . واشتد الطلب على العبيد من جانب أمريكا فى أواخر القرن الثامن عشر،وبذلك اشترى الأشانتى مقادير كبيرة من السلاح والذخيرة من التجار الأوربيين . وسهلت الأسلحة الجديدة الفتوح التى ضخمت عدد العبيد الآتين من الداخل . وتبين السجلات الخاصة بالعبيد ارتفاعاً ملحوظاً فى عدد الأسرى من المناطق الداخلية،والذين كانوا يضمون فى نهاية الأمر — بعد عام ١٨٠٠ — الكثيرين من الدول الإسلامية مثل الهوسا . وبعد عام ١٨٠٣ حاولت جيوش الأشانتى طرد الفانتى من الساحل لكى يجعلوا اتصالهم مباشراً بالأوربيين ، وأحرزوا بعض النجاح بالنسبة إلى الهولنديين ممن كان لهم قبل ذلك اتصال مباشر بالأشانتى ، ولكن البريطانيين دافعوا عن الفانتى ، وقادوا المحطات الأوربية الأخرى فى حمل الغزاة على الارتداد .

وإلى الشرق من الفانتى كانت التجارة قائمة مع شعب « جا » الذى تحرك صوب الساحل من أجل الاتصال بالمحطات البرتغالية التى تقع فى أبعد المناطق بالشرق . ولم يتجمع المستوطنون من شعب الجا حول أكرا قبل انتصاف القرن السابع عشر ، ولم يتمكنوا أبداً من إنشاء اتصالات هامة مع الداخل ، وهى الاتصالات التى ميزت تجارة العبيد والملح بين الأشانتى والفانتى ، وهذا هو بعض السبب الذى من أجله أخفق الدنمركيون الذين كانت معظم حصونهم

فى بلاد الجا شرق أكرا ، فى الحصول على مورد منتظم من العبيد كما كان الحال بالنسبة إلى البريطانيين والهولنـــديين الذين كانوا يتاجرون عن طريق الفانتى .

وعلى مسافة بعيدة فى اتجاه الشرق ، أسهمت تجارة البرتغاليين مع بنين فى إفساد صناعة البرونز الشهيرة عند بنين وآيف ، ولـكنها استوردت الأسلحة النارية التى سمحت لبنين بإنشاء إمبراطورية كبيرة تمتد من لاجوس إلى دلتا النيجر . وتضاءل اهتمام البرتغال بعد أن استبعدت بنين وباعت معظم الشعوب التى غزتهم ؛ وتدهورت بنين فى القرن السادس عشر فأضاعت ما كان لديها من الفنون والرخاء والتنظيم الحكومى الفعال ، وتحولت إلى عمليات إعتباطية من سفك الدماء ، وحكم عسكرى متقلب وخراب اقتصادى ، ولم يعد من مصلحة الأوربيين المخاطرة وسط الفوضى السائدة ، كما أصبح العبيد ضحايا نظام جديد وهو تقديم الضحايا فى الطقوس الدينية ، والتمجيد الرمزى للشهرة العسكرية ، والسياسة القائمة على القتل والشراهة التى لا حد لها التى كانت موضع التشجيع . واضطرت القبائل المجاورة إلى الاتحاد من أجل الدفاع عن النفس وإلا هلكت .

ووراء بنين وعلى مقربة من إيبادان الحديثة فى نيجيريا ، قامت دولة اليوروبا فى أويو التى ازدهر فيها ، فى عصر مبكر ، فن نحت الحجارة وصناعة الحديد ثم أشغال البرونز ، منذ حوالى ألف سنة خلت . ربما أدخل الهوسا بعض الأفكار المتقدمة عن الحكم . وكانت آيف المركز المبكر وظلت المركز الدينى بعد أن انتقل الزعيم (الافين) إلى أويو . وزادت أهمية التنظيم والدفاع

عندما اشتد ضغط سنغاى والإسلام من ناحية الشمال ، ثم من ناحية بنين من الجنوب ، وهذا ما جعل التنظيم العسكرى لازماً بحلول نهاية القرن السادس عشر ، وأصبح من العادة إرسال جيش ضد أحد الجيران فى كل عام ، من أجل إحراز المجد واقتضاء الجزية والحصول على العبيد . وأنشئت مستعمرات لليوروبا فى الأقاليم المفتوحة ، وبهذا خلقت كتلة ثقافية حول أويو وآيف ، نتيجة امتزاج القبائل بعضها ببعض ، وحولت الدول البعيدة مثل داهومى فى الغرب إلى دول حاجزة تؤدى الجزية ، ولا شك أنها تعلمت الكثير عن التنظيم ، ووصل الألافين ذروة قوته فى القرن الثامن عشر ، أى بعد أن بدأ تجار الرقيق الأوربيون فى ساحل الذهب البحث عن موارد إضافية للعبيد . وكان الألافين يتاجر معهم فى حرية عن طريق لاجوس ، وهى دولة تابعة له اقتطعت من بنين الآخذة فى الاضمحلال ، ولكنه نادراً ما سمح للأوربيين بإقامة محطات دائمة .

وإذا استثنينا بعض الغــــارات البرتغالية المبكرة ، فإن أول اتصالات للأوربيين شرقى ساحل الذهب ، حدثت حوالى نهاية القرن السابع عشر . وظهر أن موقفاً ليس مختلفاً عما كان فى ساحل الذهب قد أخذ فى النشوء ، ويتمثل فى قيام سلسلة من الدول الصغيرة على امتداد الساحل ، وبخاصة دولة هويداه ، وهى دولة كانت راغبة تماماً فى تأجير المحطات ، وفتح طريق لجلب الرقيق من الداخل . كان وجه الاختلاف أن الدولة القائمة فى الداخل ، على خلاف الأشانتى الأوائل ، كانت الآن منظمة تنظيماً طيباً إلى حد ما . هذه الدولة ، وهى داهومى التى تدربت على أيدى اليوروبا ، بدأت على الفور فى الغزو وأسر العبيد وفى مزاولة التجارة على نطاق واسع بدرجة يمكن الاعتماد

عليها ، مما كان ميعث سرور الأوربيين . وأدرك ملك داهومى أنه يجنى ربحاً خاصاً إذا ما سيطر على المنطقة الساحلية ، ونجح — بخلاف الأشانتى — فى غزو الساحل . ثم عمد فيما بين عامى ١٧٢٤ ، ١٧٢٩ ، إلى تنصيب ولاة من قبله على الدول الوسيطة الصغيرة ، وألغى جميع المعاهدات . كان فى استطاعته باستمرار أن يورد العبيد الممتازين دائماً ، وبسرعة وعلى نحو يمكن الاعتماد عليه ، وهكذا استمرت التجارة ، ولـكن الداهوميين قاموا بإدارة المحطات بأنفسهم ـ فكان الأوربيون يأتون إلى الشاطئ كتجار صرف وتحت موافقة داهومى . كانت أجومى ، العاصمة القائمة فى الداخل ، هى التى تحدد الثمن ، ولـكن هذا الترتيب وفر على الأوربيين الـكثير من المال والرجال إذ لم تـكن هناك أعباء إدارية يضطلعون بها .

وسيطر الملك على الاقتصاد مباشرة ، مما مكنه أن يصبح حاكماً مطلقاً يعتمد فى إدارة البلاد وجمع الضرائب على بيروقراطية غالباً ما كان يخصى أفرادها حتى يحول دون قيام أية مصالح قد تقف فى وجه إرادته الملـكية . وكان كل موظف ، بما فى ذلك الملك ، خاضعاً من الناحية النظرية للملـكة الأم التى كان مفروضاً فيها أنها تمثل الضمير الناصح وإن لم تملك السلطة التنفيذية ، وامتدت صورة معدلة من هذه السياسة الطقسية إلى الجيش . غير أنه لأغراض الغارات بقصد جلب الرقيق والاشتباكات الحربيـــــة الـكبرى ، فضل الداهوميون استخدام فرقة منتقاة من « النساء المحاربات » كلهن من العذارى ، ولا يخضعن لأحد ؛ على خلاف الحال بالنسبة إلى الرجال . هذه الإدارة المستبدة التى تتولى الحصول على العبيد ، كانت من الناحية الفنية دولة تابعة إلى الأفين أويو الذى أثبت أنه لا يمكن أن يهزم ، ولـكن الأمازونات اتجهن

غرباً لمقابلة الأشانتي حيث خطت الحـــدود بين الجانبين في عام ١٧٥٠ .
وتكررت الثورات من قبل دول الساحل مثل هويداه وعدرا الصغيرة وبوبو،
ولكنها ثورات كانت تنتهي باستبعاد القائمين بها . ولكن داهومي لم تتمكن
أبداً من إقامة علاقات تجارية مع الدول الإسلامية على طول النيجر أو غزوها ،
ولهذا كان مورد الرقيق أقل من الشبكة التجارية الواسعة التي أنشأها الأشانتي
على ساحل الذهب .

وفي دلتا النيجر ، جنوب شرق ساحل العبيد ، لم تكن هناك دول قوية
للتعامل معها . وكان العبيد الوافدون من هذه المنطقة يباعون بأثمان منخفضة ،
إذ المرجح أنهم كانوا أقل من غيرهم دراية بأية مهارة فيما عدا الزراعة . لم يكن
صغار ملاك العبيد ليرغبون في اقتنائهم ، ولكنهم كانوا صالحين للعمل في
المزارع الكبيرة بالبرازيل ، وفي حزام القطن الأمريكي . وبعد اختراع حلج
القطن في نهاية القرن الثامن عشر زاد إنتاج القطن بسرعة . وكان قباطنة السفن
قد بدأوا يكتشفون في أوائل القرن ، أن في الإمكان اجتناء الأرباح حتى عن
طريق نقل عبيد دلتا النيجر الأرخص ثمناً وأقل مهارة ، ممن عظم الطلب عليهم
الآن . كانت تجارة الدلتا تنطوي على أداء رسم صغير لكل من مئات الزعماء
ذوي السيادة ، يعقبه شراء عدد قليل من العبيد الذين سبق أسرهم في الحروب
المحلية المتوطنة في هذا الإقليم . وبعد ذلك تسير السفينة بضعة أميال في اتجاه
أعالي النهر ، وتبدأ مفاوضات جديدة وتجارة من جديد . وقد تكون الشحنة
التي تم الحصول عليها ، في بعض الحالات ، عبارة عن السجناء الذين أسرهم
الجانبان المتحاربان في اشتباك وقع بينهما حديثاً ، أو قد تكون جماعة من الرجال
اشتراهم زعيم محلي أو أسرهم بينما السفينة تنتظر موعد الإبحار . ونظراً لعدم

وجود مخازن أو محطات فى المادة ، ونظراً لعـــدم وجود معاهدات منتظمة ، أو اتفاقات دائمة فى الغالب ، لذلك درج تجار الرقيق على شراء بعض العبيد ، وشحنهم على دفعات صغيرة إلى أن يتم امتلاء السفينة . وغالباً ما كانت الأحوال الصحية رديئة تماماً حتى قبل أن تقلع السفينة ، هذا الموقف بالإضافة إلى عدم توافر التفتيش قبل الإبحار وهو ما كانت تشترطه داهومى ، كان معناه أن العبيد الذين يصلون إلى أمريكا كانوا أقل سلامة من الناحية الصحية وتمساً من عبيد القرون السابقة .

وفى خلال الجزء الأخير من القرن الثامن عشر ، حين أصبحت هايتى سوقاً لا تشبع ، زاول التجار الفرنسيون نشاطهم على سواحل جابون ، مستخدمين نفس الأساليب،ووجدوا شحنة العبيد من البانتو شبيهة بما وجده أصحاب السفن الخاصة ، البريطانيون والبرتغاليون ، فى دلتا النيجر . وظلت البرتغال تستغل مملكة الكونغو على أساس غير رسمى ولكنه مجز ، مثلما كانت تفعل فى الأيام الأخيرة لتجربة المانيكونغو . ومن المرجح أن التجارة من أنجولا والتى كانت تخضع رسمياً للاشراف ، كانت المصدر الذى يزود عدداً من العبيد أكبر مما كان يأتى من أى جزء آخر فيما عدا ساحل الذهب ،ولكن الأسلوب المتبع كان مباشراً وبسيطاً على صورة أكثر مما كان فى أى مكان آخر . وكان الكشافون البرتغاليون من المولدين ، وكذلك زعماء البانتو ممن استخدمت معهم أساليب القهر أو الخداع ، يقدمون سيلا منتظما من المجرمين الحقيقيين أو المفتعلين، ومن أسرى الحرب والهاربين ممن كانوا يباعون بلا قيد لكل من يأتى فى طلبهم ، لا فرق بين هولنديين وبريطانيين وفرنسيين أو برتغاليين . وكانت أعظم نسبة من أهل أنجولا تتوجه إلى البرازيل . ولكنهم كانوا يوزعون

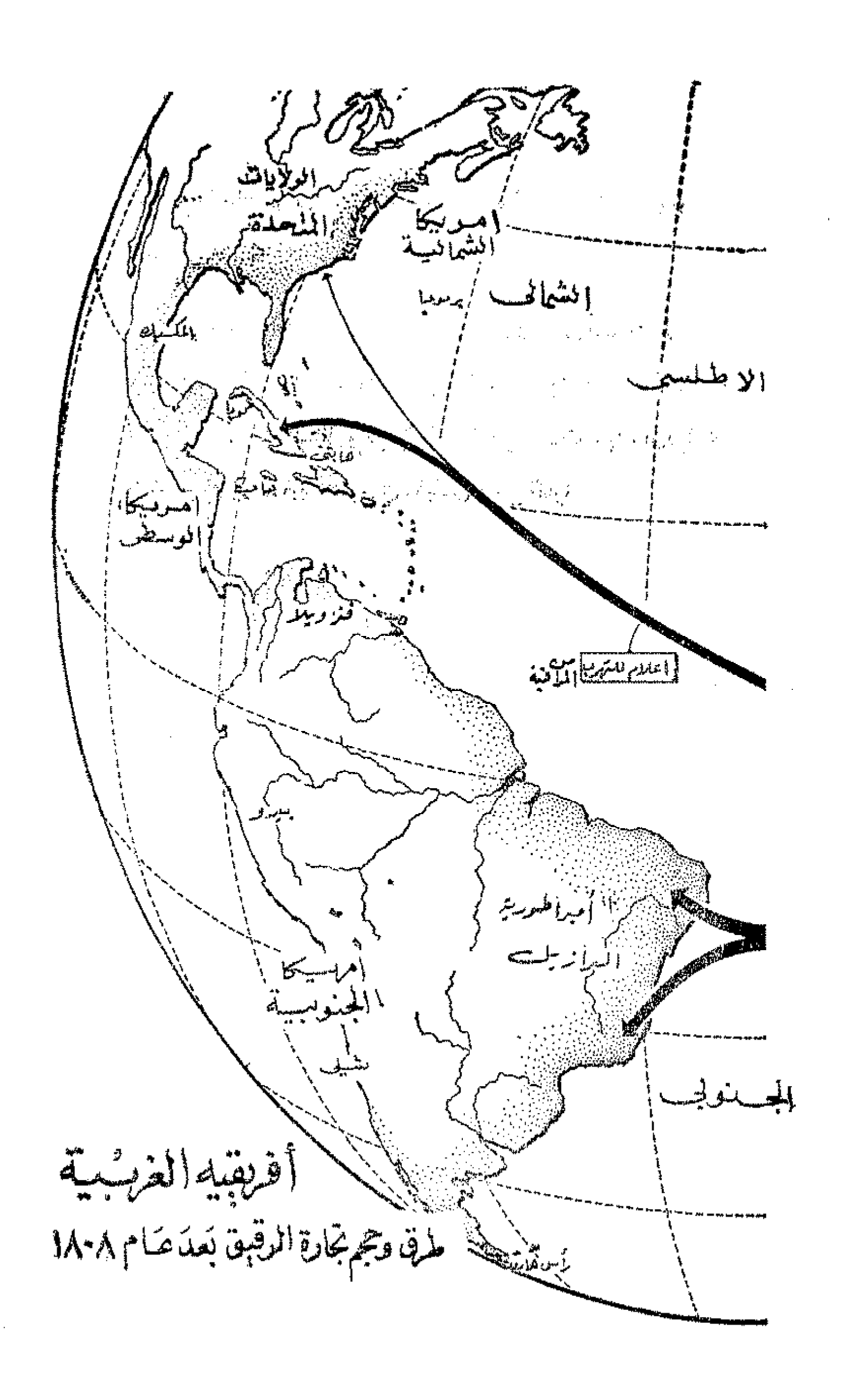
بسخاء على جميع المناطق التى تستخدم العبيد فى العالم الجديد . وتوغلت التجارة البرتغالية فى نهاية الأمر إلى مسافة فى الداخل تبعد ٣٠٠ ميل عن الساحل ، وتشمل معظم أنجولا الحديثة ،وجزءاً كبيراً من حوض الكونغو الأدنى .

ليست هناك إحصائيات يمكن الاطمئنان إليها فى معرفة عدد الأفريقيين الذين جيء بهم إلى أمريكا. إن التقديرات تتراوح بين ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ وأكثر من ٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ، وربما أسهمت الحركة المضادة للرق فى حدوث هـذا الاضطراب لأن التقديرات ظلت تتضخم لكى تحث حركة الإلغاء خلال القرن التاسع عشر . ولقد ضاع أودمر الكثير من السجلات التجارية ، ولكن بقى منها ما يكفى لأن نعرف على الأقل نسبة العبيد الذين كانوا يموتون خلال الرحلة الشاقة عبر المحيط ، وهى حوالى ١٢ فى المائة فى السفن الفرنسية ، مقابل ١٧ فى المائة فى السفن الهولندية والبريطانية ، وبلغت الخسائر البرتغالية فى القرون الأولى حوالى ١٥ فى المائة ، ولكن لما أرغم الضغط من أجل إلغاء الرق، التجار على المغامرة ، ارتفعت نسبة الضحايا إلى ٢٥ أو ٣٠ فى المائة .

وفى عام ١٨٦٠ حين انتهى معظم تجار الرقيق ، كان فى أمريكا الشمالية والجنوبية ما بين سبعة وثمانية ملايين شخص من أصل إفريقى . وفى المناطق التى توجد بها إحصائيات عن السكان ترجع إلى أوائل القرن ، يظهر أن نسبة تتراوح بين ثلث ونصف هذا العدد مصدرها التكاثر الطبيعى . إن عدد الذين وفدوا من إفريقية لا بد أن كان بين ٣٫٥ ، ٥٫٥ مليون . فإذا أضفنا عدد من كانوا يموتون فى الطريق . لبدا أنه ما بين ٤ ، ٦٫٥ مليون نقلوا من إفريقية فيما بين عام ١٤٤١ ونهاية عصر الرق ؛ عبر الأطلسى فى الثمانينات من القرن التاسع عشر .

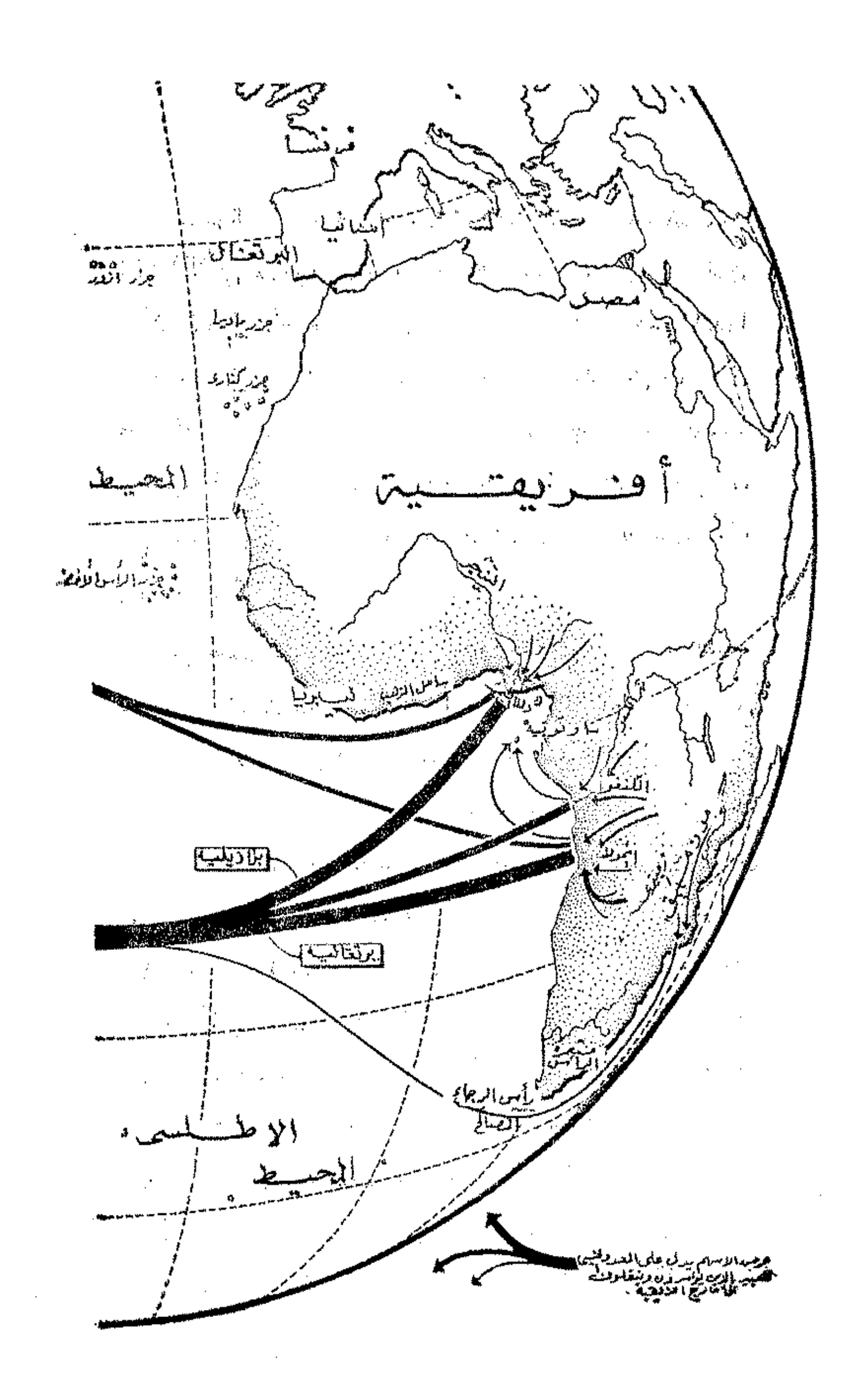
وبيع حوالى ٥٠٠٬٠٠٠ فى المستعمرات الثلاث عشرة . نصفهم قضى بعض الوقت أولاً فى جزر الهند الغربية التى وصل إليها مايقرب من ١٫٥ — ٢ مليون ولكن البلد الذى أصبح يعرف باسم الولايات المتحدة، وكذلك الإسبان أعادوا شراء حوالى ثلث هذا العدد ، ولا بد أن البرازيل قد حصلت على ١٫٥ مليون على الأقل ، لكن العدد لا يزيد على ٣ ملايين . بينما أوربا وساوتوميه وجنوب إفريقية وغيرها من المحلات المتفرقة كان نصيبها يتراوح بين ربع ونصف المليون . وهـذا أيضاً يدل على أن ٣٫٥ — ٥٫٥ مليون وصلوا إلى الأسواق الأجنبية .

بل وأصعب من هذا أن نعرف من أية أجزاء من أفريقية جاء العبيد ، وهذا راجع إلى أن تجار الرقيق نادراً ما وجهوا مثل هذا السؤال ، ولكن السجلات الرئيسية دمرتها الشركات والحكومات التى يمسها الأمر . ربما جاء ثلثا العبيد من ساحل الذهب وأنجولا بالتساوى ، ولكن هناك مناطق عدة كانت لها فترات اشتهرت فيها بتوريد العبيد، مثل الكونغو فى القرنين السادس عشر والتاسع عشر ، وساحل العبيد فى القرن الثامن عشر، ودلتا النيجر فى التاسع عشر . وثمة جهات كانت توردهم على فترات متباعدة أو بأعداد صغيرة على فترة طويلة . وسيطرت البرتغال على تجارة القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وهولندة على التجارة خلال ثلاثة أرباع القرن السابع عشر ، وبريطانيا فى السنوات ١٦٧٢ —١٨٠٨ ، وبعد ذلك كانت الغلبة لسفن الولايات المتحدة والبرازيل وإسبانيا وفرنسا . ومن الواضح أن عدد العبيد كان يتفاوت تفاوتاً بالغاً من قرن إلى آخر ، ولكن إذا نظرنا إلى المجموع الكلى وجدنا أن بريطانيا والبرتغال كانت كل منهما تنقل حوالى ٣٢ أو ٣٣ فى المائة من الشحنة



أفريقية الغربية

طرق وحجم تجارة الرقيق بعد عام ١٨٠٨



والأراضى الواطئة حوالى ١٨ فى المائة ، وفرنسا حوالى ١٢ فى المائة ، والولايات المتحدة (بعد ١٧٨٣) حوالى ٥ فى المائة .

وبنهاية القرن الثامن عشر ارتفعت فى كل بلد أوربى أصوات الاحتجاج ضد المساوىء والشكوك المتعلقة بأخلاقية الاسترقاق البشرى — وترتب على الأثر الناجم من هذه المسائل وعن الإصلاحات التى تولدت عنها ، أن نشأ اتجاه جديد نحو إفريقية وتغيير جذرى فى الحياة فى داخل القارة .

ورطة العدالة

كان الأوربيون قبل القرن الثامن عشر ، يعتقدون أنه ينبغى الحكم على عادات الإفريقيين وفق المستويات السائدة عندهم . لقد كان الرق منتشراً بين الشعوب الإفريقية منذ عصور ما قبل التاريخ ، ولم يشعر الأوربيون الذين اتجروا بالعبيد إلا أن عليهم التزاماً بأن يتبعوا القانون الإفريقى ، وأن ينشروا المسيحية حيثما يتيسر لهم هذا. لم يكن الإنجيل برنامجاً أو مستوى للعمل الاجتماعى ، ولكنه رسالة الخلاص من هذا العالم . ولذلك خلال القرون الثلاثة الأولى من التوسع فيما وراء البحار لم يظهر سوى قدر يسير من الغضب الشعبى فى أوروبا . أجل ، فباستثناء تجار الرقيق وملاك العبيد لم يشهد أوروبى أبداً كفيلا زنجياً أو فهم ما ينطوى عليه الاسترقاق من معنى بالنسبة إلى الإفريقيين الذين تعرضوا له .

غير أن معارضة الرق كانت موجودة دائمة ، ولقد تكرر الاحتجاج من جانب بعض رجال الكنيسة الكاثوليكية فى البرتغال ضد النظام خلال فترة السنوات الأربعمائة والخمسين التى شهدت مزاولة هذه التجارة . ومن وقت لآخر فى إنجلترا وغيرها من البلاد ارتفعت أصوات شجاعة أشربت نفوس أصحابها بالروح الإنسانية ، ولكن من الذين استمعوا إليها لم يفهم إلا القليلون المشكلة التى هاجمتها تلك الأصوات .

حاول كل بلد أوربى أن ينظم التجارة أو أن يضمن مزاولتها « بطريقة عادلة » . فكان المفروض أن جميع العبيد يؤخذون طبقاً للقانون الإفريقى السائد — أى فى حرب « عادلة » أو بوصفهم مجرمين ثبتت إدانتهم — وكان لا بد من شرائهم بطريقة مشروعة . وبالرغم من ميل الزعماء الإفريقيين إلى توسيع قائمة « الجرائم » وشن حروب لا ضرورة إليها بقصد الحصول على العبيد ، لم تكن لدى الأوربيين وسيلة فعالة يميزون بها بين من استرقوا بصورة عادلة ومن استرقوا بطريقة تتنافى مع العدالة . كانوا يعتبرون من الخطأ الاستيلاء على بلاد إنسان آخر أو فرض المستويات الثقافية والقانونية الأوربية على المجتمعات الأخرى . وبهذا كان فى الإمكان عقد معاهدات مع القبائل الصديقة ، تضمن لها الحماية من الاسترقاق ، وتتضمن الوعد بشراء العبيد الذين تحصل عليهم هذه القبائل بطريق الحرب أو التجارة من جيرانها .

بطبيعة الحال ، أسهم هذا الاتجاه إسهاماً مباشراً فى تنمية التجارة إذ ظن الأوربيون أنهم يسدون خدمة للأفريقيين — فضلا عن أنفسهم — بشراء العبيد ، إذ يكون السادة المسيحيون أكثر عدلا من الملاك الوثنيين ، والعبد الذى يتحول إلى المسيحية يضمن الحرية والمساواة الكاملتين فى الحياة الآخرة ، كما يتعلم الإفريقيون القيمة المعنوية للعمل بينما يسهمون فى تحقيق رخاء العالم المسيحى .

وكانت إسبانيا هى وحدها من بين الدول المسيحية ، التى اعتبرت تجارة الرقيق غير قانونية ، فلم تسمح أبداً لسفنها بالاشتغال بها ، ونفذت الأمر الخاص بهذا الشأن بشدة (وإن كان هناك استثناءان ، أحدهما استعباد كريستوف كولمبس

الهنوت ، هو ما خوكم وسجن من أجله فى عام ١٥٠٠ ، والآخر هو الهزنون فى القرن التاسع عشر ، وكانت البحرية الإسبانية أضعف من أن توقف نشاطهم) : ومع هذا ، فقد سمح بتملك العبيد ـ بل ولقى التشجيع ـ على أساس أن فيه فائدة لكل من الإفريقيين والإسبان ، ولكن السفن البرتغالية والهولندية هى التى كانت تقوم فعلا بنقل العبيد من إفريقية .

كانت محاولة أوربا احترام وتقبل العادات الإفريقية نبيلة من الناحية النظرية ولكنها خطيرة من الناحية العملية لأنها خدمت الاقتصاد الأوربى أكثر مما خدمت الاقتصاد الإفريقى . لم يكن من التقاليد الإفريقية استرقاق الشخص بصفة دائمة ، أو اعتبار العبيد ملكية خاصة غير مقيدة ، أو جعلهم عنصراً أولياً فى تجارة الجملة . ولم يكن من عادة الأوروبيين تملك الآدميين أو استعمالهم من أجل اجتناء الربح الخاص ، ولكن جرت التقاليد بأن تكون لملاك العبيد حرية كاملة فى استعمال مقتنياتهم أو التصرف فيها . وفى هذه الحالة اندرجت عادة الرق الإفريقية فى المذهب الأوروبى عن حقوق الملكية المطلقة ، وهذا الاندماج بين نظامين تقليديين ولد الاضطراب والتشويهات والخطر الناشىء عن سوء الاستعمال أو الانحراف .

وزادت الهجمات على نظام العبودية فى أثناء القرن الثامن عشر لأن كتاب « التنوير » من أمثال جون لوك وفولتير وجان جاك روسو كانوا جميعاً يدعون أنه لا وجود لغير قانون عالى واحد . فما يتنافى مع الأخلاق فى مكان ما هو خطأ فى كل مكان ، لأن جميع الناس يخضعون « لحكم » العقل ويملكون نفس الحقوق الطبيعية . وانتشرت على نطاق واسع الروايات عن الأحوال

التى كان يعيش فيها العبيد ، وذلك فى الصحف الشعبية الحديثة النشأة . وجاءت حركات اليقظة الدينية وبخاصة الحركات الجماهيرية مثل مولد الميثودية فى إنجلترا ــ فوضعت التأكيد على الجانب الإنسانى . وإذ عجز تجار الرقيق وملاكه عن أن يقنعوا أحداً بحججهم القديمة اضطروا بصورة متزايدة إلى تأكيد حقوق الملكية والضرورة التجارية وحماية الاستثمار . وكلما زاد تكرار الحجة المادية زادت قوة رد الفعل الإنسانى النزعة .

وكانت جمعية الأصدقاء فى عام ١٧٢٧ أول من استنكر الرق ، وبدأ الكويكرز فى كل من إنجلترا وبنسلفانيا يحررون من لديهم من الزنوج . وأثرت حركة جون ويزلى الميثودية التى كانت تضع التأكيد على الأخلاقية الشخصية ، فى وليم ويلبرفورس ، وهو سياسى بريطانى كان على دراية بالتفكير السائد فى عهد التنوير . وفى عام ١٧٦٥ ظهرت فى إنجلترا جمعية معاداة الرق بزعامته وعملت على إقناع البرلمان بأن من الخطأ تملك أى فرد من أبناء البشر فى أى مكان بالعالم . وعندما أقنعت الجمعية فى عام ١٧٧٢ كبير القضاة مانسفيلد بأن القانون العام يضمن الحرية لجميع الناس أصبحت إنجلترا أول بلد يلغى الرق . واقتصرت النتيجة المباشرة على أن أصحاب المزارع فى جزر الهند الغربية امتنعوا عن الإتيان بالعبيد الشخصيين إلى إنجلترا ، ولما كان القرار لا يسرى خارج الجزر البريطانية كان لابد من إقناع البرلمان بأن هناك مستوى أخلاقياً متجانساً حتى داخل الإمبراطورية البريطانية .

وأخيراً حرم القانون الصادر فى عام ١٨٠٧ الاتجار بالرقيق فى المياه البريطانية وتصديرهم إلى جميع المستعمرات البريطانية أو استيرادهم منها . وكانت البحرية

الملكية مسئولة عن مراقبة السفن البريطانية ولكن الحروب التى شنت ضد نابليون حالت دون تطبيق القانون بصورة منتظمة طيلة سنوات عدة. وواصلت الكثير من سفن الرقيق البريطانية أعمالها — كما كان حالها من قبل — وملاحوها بريطانيون وتدعى الحصانة إذا تحدتها داورية بحرية . ومن أجل وقف هذا التهرب تحت ستار العلم البريطانى، يرجع بعض السبب الذى دعا السفن البريطانية إلى بدء تفتيش السفن الأمريكية . لم تكن هناك بطبيعة الحال طريقة مؤكدة لمعرفة ما إذا « كانت السفينة الأمريكية » سفينة تجارية مشروعة أو سفينة تزاول تجارة الرق ويتولاها بعض الإنجليز من الخارجين على القانون . وكانت توقف كثير من السفن المشروعة وذلك أثناء البحث عن تجار الرقيق أو لأسباب أخرى. واحتجت أمريكا وأعقب ذلك نشوب الحرب فى عام ١٨١٢ . (كان دستور الولايات المتحدة المكتوب فى عام ١٧٨٧ يطالب السفن الأمريكية بالامتناع عن مزاولة تجارة الرقيق بعد عام ١٨٠٨ ولكن هذه المادة لم تطبق إلا بعد الحرب الأهلية) .

بل وزاد من مضايقة البريطانيين وجود ثغرتين ينفذ منهما تجار الرقيق ، الأولى أنه بمجرد وصول العبيد إلى المستعمرات البريطانية يصبح مركزهم قانونياً تماماً ، والثانية استمرار قانونية مركز تجار الرق الأجانب. كانت الوسيلة الوحيدة لمنع التهريب هى إلغاء الإغراء ، ولهذا حرر البرلمان فى عام ١٨٣٤ جميع العبيد فى الإمبراطورية ولكن — بسبب استمرار نظرته المحافظة إلى الملكية — خصص ٢٠ مليون جنيه لتعويض ملاكهم السابقين . ومن بين الدول الأجنبية كانت للبرتغال أعظم مصلحة فى الرق . فبعد عام ١٨١٥ وافقت على عدم مزاولة هذه

التجارة شمال خط الاستواء ولكنها خرقت الاتفاق لكى تشترى العبيد علىفاق دلتا النيجر وتبيعهم فى الغالب فى جزر الهند الغربية . وفى سنة ١٨١٨ نالت بريطانيا حق تفتيش السفن الفرنسية وحجز أى عبيد تجدهم ، وأجبرت البرتغال بالتدريج على السماح بهذا أيضاً . وكان المهربون البرازيليون والبرتغاليون لايزالون يواصلون نشاطهم بشدة فى صفوف قبائل اليوروبا فى عام ١٨٦١ . واستمرت التجارة بين أنجولا والبرازيل بصورة قانونية تماماً وبغير ماحدود ، بالفعل ، حتى عام ١٨٧٨ . وازدهر التهريب غير القانونى لمدة عقد آخر من الزمان . ولم يتوقف إلا عندما أصبحت البرازيل فى عام ١٨٨٨ آخر بلد كبير يلغى الرق . وواصلت الداوريات البريطانية المكافة بوقف تجارة الرقيق، تزاول عملها وغالباً ما كانت تقبض على المهربين ، حتى عام ١٩٠١ .

وقد اتهم بعض النقاد الحديثون البريطانيين بأنهم أجبروا البلاد الأخرى على التخلى عن تجارة الرق لكى يحطموا الاقتصاديات الأجنبية وليس بسبب نزعتهم الإنسانية ، ومن المحقق على وجه التأكيد أن بريطانيا كانت تسعى إلى التسلط على تجارة القرن التاسع عشر ، ولكن من الصعب أن نفهم السبب الذى من أجله قضت على تجارة الرقيق المجزية جدا — والتى كانت محتكرها بالفعل — لو لم تكن مدفوعة بروح إنسانية .

لم يشعر المشربون بالروح الإنسانية أن مسئوليتهم انتهت بتحريم تجارة الرق وتحريم تملك العبيد . فإذا كانت المستويات العالية للعدالة قد تطلبت هذه الإصلاحات فإنها تطالب الأوربيين أيضاً بأن يهتموا بأمر الزنوج الذين تحرروا فى أمريكا، وبأنماط الاستعباد السائدة فى المجتمعات الإفريقية التقليدية ووجهت

بريطانيا والولايات المتحدة معظم جهودهما المبكرة إلى العبيد السابقين فى أمريكا . إن المشكلة — وهى امتصاص عنصر جديد أو التصرف فيه ، فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية لمجتمع أبيض أفراده من الأحرار ، مشكلة لم تصبح ذات صلة مباشرة بأفريقية إلا عندما اقترح أصحاب النزعة الإنسانية إرجاع الزنوج إلى القارة التى سبق أن وفدوا منها . وبعد ذلك بوقت بدأ الأوربيون يدركون أن المشكلة الأخطر والأهم هى التناقض بين مستوياتهم ومستويات التقليد الإفريقى . هذه المشكلة المتشابكة سوف نبحثها بعد أن نستعرض الأثر الناجم من الإلغاء بالنسبة إلى إفريقية ذاتها .

ولقد واجهت بريطانيا أول مشكلة واسعة النطاق يشكلها الزنوج الأحرار فى أمريكا وذلك عند ختام الثورة الأمريكية . فالعبيد الذين سبق لهم الفرار من المستعمرات الأمريكية الثائرة إلى نوفاسكوشيا حصلوا على حريتهم مقابل ولائهم للتاج. وزاد عدد العبيد الذين أصبحت كندا مسئولة عنهم ، بسبب مجئ غيرهم من الزنوج المعترف بهم أحراراً ولكنهم نقلوا من جزيرة جاميكا بعد ثورة العبيد الماثلة . وزاد من حدة المشكلة الزنوج الذين تحرروا فى إنجلترا بعد الحكم الذى أصدره اللورد مانسفيلد فى عام ١٧٧٢ ، وغيرهم ممن استولت عليهم داوريات البحرية من سفن العبيد غير المشروعة فى المحيط الأطلسى، وبدا ان الحل يتمثل فى « إرجاع هؤلاء الأفريقيين إلى وطنهم » .

ولما كانت معرفة الأوربيين بالفوارق القبلية فى داخل أفريقية يسيرة نسبياً مالوا إلى الظن بأن جميع « الأفريقيين » متشابهون وأن العبيد السابقين سوف يصبحون أسعد حالا فى أى مكان تقريباً « بقارتهم » منهم فى وسط مجتمعات

بيضاء غريبة عنهم. هذا الرأى أغفل حقيقة وهى أن الكثيرين من هؤلاء الزنوج اتخذوا ثقافة أوربية وأساليب أوربية.

وكانت أول مشكلة عملية واجهها الأوربيون عند بدء عملية « إرجاع » الزنوج « إلى وطنهم » هى اختيار المكان المناسب فى أفريقية. لم يكن فى الإمكان إرسالهم إلى دول حسنة التنظيم مثل داهومى أو اليوروبا أو الأشانتى حيث يقضى عليهم أو يستعبدون بوصفهم دخلاء عليها. ولم تكن أمثال دلتا النيجر أو أنجولا أو الكنغو من المناطق التى تدعو إلى الرجاء بسبب سيطرة تجار الرقيق من البرتغاليين أو رجال القبائل، كما اعترضت الدول الأفريقية المتحالفة مثل الفانتى. كانت هناك منطقة واحدة تقع بين السنغال وساحل العاج، وهى منطقة تفتقر إلى التنظيم ويقل فيها السكان، ويمكن فيها الحصول على الأرض ومنع الاسترقاق. واختار الإنسانيون البريطانيون، ومن بعدهم الأمريكيون، أجزاء من هذه المنطقة، وتعرف الآن باسم سيراليونى وليبيريا.

وفى عام ١٧٨٧ وصل إلى سيراليونى وتحت رعاية بريطانية، أول المستوطنين الوافدين من نوفاسكوشيا. كانت الفكرة نبيلة، ولكن لم تعد الخطط الواقعية لتنفيذها. فرفضت القبائل الوطنية أن تبيع الأرض إذ اعتبروا المستوطنين دخلاء، يجوز لهم على أحسن الفروض استئجار منطقة صغيرة، وهكذا اضطر المستوطنون المتأربون Europeanized إلى أن يعملوا فى خدمة تجار الرقيق وأن يشتغلوا وكلاء بالموانى لحساب شركات جزر الهند الغربية التى تزاول هذه التجارة، ثم تحطمت آمالهم بسبب المرض أولا، ثم أخيراً نتيجة هجوم قبلى قضى عليهم فى عام ١٧٩٠.

ونظمت عملية التوطين الثانية فى عام ١٧٩١ على أيدى شركة سيراليون. ومن أجل تمويل نقل المستوطنين الجدد من نوفاسيكوشيا، ودفع نفقة الإدارة، اعتمدت الشركة اعتماداً كلياً على أسر العبيد الوطنيين وبيعهم. ولكى يحول البرلمان دون هذا منحها إعانة فى عام ١٨٠٠ وأضفى عليها سلطة بوليسية أكبر، وبعد ذلك بثمانى سنوات استولت الحكومة على الشركة وجعلت من سيراليون مستعمرة تابعة للتاج البريطانى.

كانت الأرض فى هذا الجزء من أفريقية تعتبر طبقاً للتقليد الأفريقى ملكاً لسلالة أول رجل زرع التربة. ولم يكن فى الإمكان بيعها أبداً، ولهذا اضطر المستعمرون إلى أن يستأجروا الأماكن من أصحابها القبليين لكى يقيموا فيها مدنهم ومزارعهم. قاومت وزارة المستعمرات بشدة أى اتصال بين المستعمرين والقبائل وبذلك عجزت عن أن تدرك أنه إذا لم تجر المفاوضات بين الطرفين فسوف يضطر المستوطنون إلى القتال من أجل الحصول على الأرض، وإلا واجهوا الموت جوعاً. وبعد أربعة عشر عاماً اشتد خلالها الجدل، كان المستوطنون فيها يعتمدون اعتماداً كلياً على المنح من جانب الإنسانيين والبرلمان، سمح بإجراء المفاوضات واستئجار أراضى القبائل. ولم يشترِ أى من المهاجرين أرضاً حتى نهاية القرن حين حل قانون نقل الملكية الإنجليزية محل القانون التقليدى، وجعلت التطورات التكنولوجية فى الإمكان زراعة أراضى المستنقعات التى لم تستخدم أبداً من قبل.

أما اهتمام الولايات المتحدة الذى نما بعد مشروع سيراليون بجيل فكان كله مغامرة أقدمت عليها هيئة خاصة بالرغم من أن بعض رجال الحكومة

الاتحادية غالباً ما أبدوا اهتماماً بالأمر . ففي عام ١٨١٦ رخص للجمعية الأمريكية للاستعمار بنقل الزنوج الأحرار من المجتمع الأمريكي دون اعتبار هذا وسيلة معادية للرق . وبالرغم من اتهام أهل الجنوب للجمعية بإثارة الاضطراب عن طريق إذاعة اهتمامها بالحرية فقد حصلت الجمعية على الكثير من التأييد من جانب ملاك العبيد والبيض من أهل الجنوب فضلا عن ذوي النزعات الإنسانية من أهل الولايات الشمالية . إن التقرير الذي وضعته الجمعية عن سنة ١٨١٩ يعبر عن الروح التي سرت في أول مشروع للتوطين فيماوراء البحار ، قامت بتنفيذه أمريكا في أوائل القرن التاسع عشر .

وأن أشكالا جديدة للحكم ، على غرار تلك الأشكال التي هي موضع فخر أمريكا وافتخارها ، تشهد بعدي ما يدينون به لسادتهم السابقين ، والأعداد الوفيرة من الرجال الأحرار يغنون وهم (يطوفون بشواطيء) نهر الكنغو .. باللغة التي تسجل دستور أمريكا وقوانينها وتاريخها ، وهي أناشيد المديح لأب البشرية المشترك .

وبعد ذلك بعامين تم شراء أرض جنوبي سيراليوني . وأصبحت المحطة الأولية التي أنشئت في مونروفيا وهي مشتقة من اسم الرئيس جيمس مونرو — عاصمة « مقاطعة مونسيرادو » ، وساعدت السفن البحرية الأمريكية المستوطنين على مقاومة الهجمات التي كانت تشنها القبائل المحلية .

وبعد أربع سنوات منحت الجمعية دستوراً لمقاطعة مونسيرادو بينما أنشأت جمعيتان خيريتان أخريان مواطن للاقامة خاصة بهما على مسافة بعيدة صوب الجنوب بحذاء الساحل ، فأقامت جمعية بنسلفانيا ومسيسيبي للاستعمار محطتها

فى مقاطعة جراند باسا ، وأقامت جمعية ماريلاند محطتها فى «ماريلاند بأفريقية» وكان لكل جمعية طابعها الذى يميزها — ولهذا ظلت كل مستعمرة — ويحكمها كفيلها الأبيض — منفصلة عن جيرانها . وهذه المستعمرات لم تكن تضم أكثر من ١٥٠٠٠ من العبيد السابقين وحوالى ٥٠٠٠ من الزنوج الذين حرروا فى البحر (على أيدى البحرية البريطانية فى العادة) .

وسرعان ما وضح أن موارد الإحسان المحدودة ورفض معظم الزنوج الأحرار الهجرة سوف يمنعان « التهجير » من أن يحل المشكلة الاجتماعية الأمريكية . وبحلول عام ١٨٣٤ كانت الجمعية الأمريكية قد ضمت إليها المشروعين الآخرين وأدمجت المستعمرتان تحت اسم « ليبيريا » وأعدت مدرسة القانون بهارفارد دستوراً نموذجياً ، نص على وجود حاكم للجمعية يعاونه « مجلس المشرة » ويتكون من المستوطنين ولكن احتفظ الحاكم لنفسه بحق الفيتو . ورفض أهل ليبيريا المشروع إلى أن تنازلت الجمعية عن هذا الامتياز بعد خمس سنوات من المفاوضات . وفى عام ١٨٤١ عين أول حاكم زنجى للبلاد ، فأصبحت تتمتع بالحكم الذاتى فعلا .

طالبت ليبيريا باستقلالها بعد عام ١٨٤٧ ، فلم تعترض الولايات المتحدة أو الجمعية الأمريكية للاستعمار وإن امتنعتا عن الإعتراف الرسمى إلى حين نشوب الحرب الأهلية . وخلال هذه الفترة واصلت السفن الحربية الأمريكية الدفاع عن المستوطنين المقيمين بالساحل ضد الهجمات . وظلت ماريلاند قائمة بوصفها مستعمرة منفصلة عن غيرها ، فى ظل الجمعية التى أنشأتها إلى أن ضمت إلى ليبيريا باتفاق الطرفين فى عام ١٨٥٧ .

ظل الحكم خالصاً فى أيدى الليبيرين الأمريكيين ونسلهم المباشرين . وكان هناك مظهر كاذب من الحضارة كان إلى حد كبير تقليداً لمجتمع الزارع فى أمريكا، بل ووصل أحياناً إلى حد تطبيق نظام الرق . ولم يجرؤ المستوطنون على التوغل فى الداخل إلى ما وراء مرمى المدافع البحرية ، إلى أن فض النزاع مع القبائل الوطنية فى القرن العشرين .

إن إعادة التوطين لم تحل مشكلة الزنوج سواء فى الولايات المتحدة أو فى جامايكا البريطانية ، وفى أفريقية لم تؤد العملية إلا إلى خلق مشكلة استعمارية لأن المستوطنين كانوا على درجة من التشبع بالثقافة الأوربية بحيث كان من الصعب أن يمتصهم الأهالى الوطنيون . وفى سيراليون اضطرت بريطانيا إلى تنظيم مجتمعين زنجيين مختلفين اختلاف البيض والزنوج فى ممتلكاتها ذات الأجناس المتعددة . لم تصبح ليبيريا الأمريكية « نموذجاً » وإنما كانت دولة ذات طابع أوربى تتبادل الخوف والسيطرة على الزنوج المقيمين بالداخل . وإلى مسافة بعيدة نحو الشرق وعلى طول سواحل الذهب والعبيد والنيجر وفى السافانا حيث كان الاسترقاق يجرى على نطاق واسع والأهالى أكثر تركزاً ، خلق إلغاء الرق مشكلات أحست الدول الأوربية بأنها مسئولة عن حلها . كان الاسترقاق من أجل إشباع طلب السوق الأمريكية قد حول نظاماً محلياً إلى سباق شامل على التصدير أنقص عدد السكان ، وشجع الحروب والشقاق ، وحطم بالفعل أنماطاً مستقرة من التجارة والزراعة المشروعتين ، ومقابل هذا لم يأت الأوربيون فعلا بشىء سوى البضائع المادية ، وكانت المسيحية والتعليم تبدوان شيئاً ينم عن النفاق حتى فى نظر القبائل التى تحالفت مع الأوربيين . وبينما تعرضت أوربا خلال عصر الرق لتغييرات اقتصادية واجتماعية وثقافية

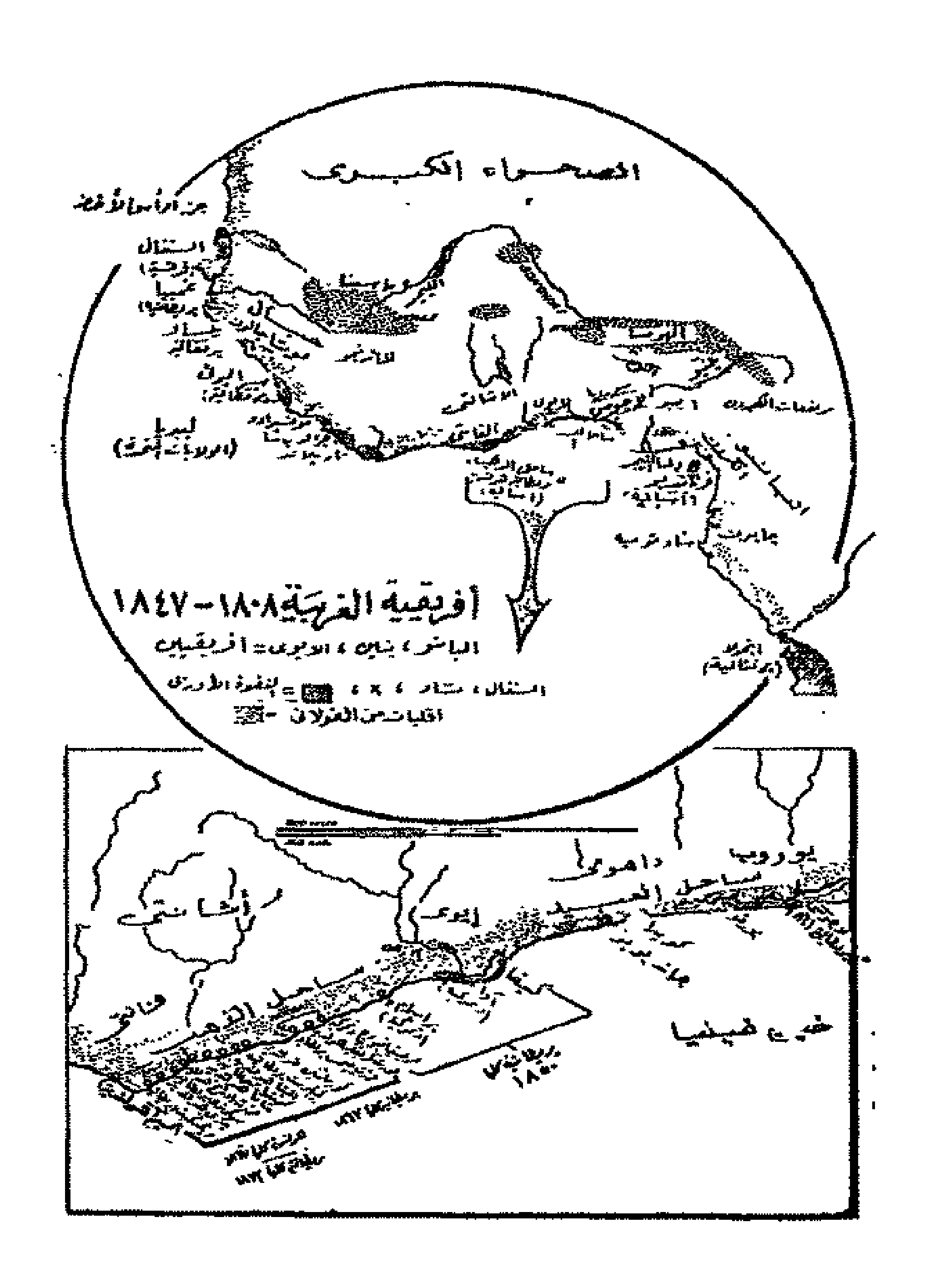
شكلت الحضارة الحديثة فإن القدرات الأفريقية التى كان يمكن أن تكون خصبة وتتقبل هذه المؤثرات ، اتجهت نحو تجارة لم يكن فيها محل لأفكار جديدة أو مختلفة ، وبعد ٤٠٠ سنة تقريباً حين غير الأوربيون نظرتهم وحرموا الرق استتاحت دول أفريقية كثيرة قامت على تجارة الرق ، بسبب الأسواق التى خسرتها من جراء ذلك . فالتهريب ، والضغط الأوربى من أجل وقف الاسترقاق ، وموجة جديدة من الحروب التنافسية اليائسة ، والنقص فى القوة الشرائية للاقتصاديات المتركزة على الرق — كل هذا أسهم فى إحداث اضطراب بعيد المدى فى داخل أفريقية . وصار واضحاً بصورة متزايدة أنه إذا كان على الأوربيين أن ينفذوا الحظر المفروض على تجارة الرقيق عبر المحيط الأطلسى فلابد من أن يمنعوا الرق فى منبعه لأن الحصار البحرى لم يستطع أن يحول دون استمرار التهريب الجزى . . ولكى يتسنى جعل الاسترقاق أمراً غير قانونى فى أفريقية كان لابد من أن تصبح النظرية الأوربية عن القانون العالى الأولية والغلبة على القانون الأفريقى .

وعلى ساحل الذهب منحت للأوربيين أفضل فرصة لتطبيق هذه الفكرة فمن طريق الحصون أو المحطات الدائمة التى احتفظوا بها بمقتضى المعاهدات المعقودة مع الفانتى ، حاولوا إدخال التجارة المشروعة لتحل مكان تجارة الرقيق ، وكانت حجة الأوربيين أن هذه المعاهدات لايمكن التخلى عنها لأنها تنطوى على التزام بالدفاع عن الفانتى ضد تهديدات الأشانتى من الداخل ، وكان البريطانيون قد ساعدوا فى عام ١٨٠٦ على صد هجوم من هذا القبيل ، وحين توقف الاتجار بالرقيق جدد الأشانتى والذين كانوا وسطاء أقوياء فى هذه التجارة — هجومهم ضد الساحل . واشتبكت القوات البريطانية

والهولندية والدنمركية في القتال الذى استمر منذ حظر تجارة الرقيق في عام ١٨٠٧ إلى أن هدأت الأحوال بعد ذلك بتسع سنوات . وفى أثناء هذه الحرب استولى الأشانتي على الماهدات أو « المذكرات » من الفانتى ، ومعنى هذا العمل طبقا للتقاليد السائدة أن تدفع إليهم الإيجارات من الآن فصاعدا .

وبعد صلح عام ١٨١٦ كانت المنافسة بين الدول الأوربية من أجل التحكم في التجارة المشروعة فى مثل حدة الصراع بين الأشانتي والفانتى تقريبا . وسرعان ما وضح أن بريطانيا ؛ وهى الدولة الصناعية الرئيسية ، كان لديها ما تبيعه إلى أفريقية أكثر مما لدى غيرها ، ولهذا أصبحت صاحبة الغلبة على ساحل الذهب . ثم حرضت بريطانيا والدنمرك والأراضى الواطئة حلفاءها من الفانتى ضد حلفاء الدول الأخرى . ومالت كل دولة بصورة متزايدة إلى إملاء السلوك الذى يجب أن يحتذيه الفانتى وبخاصة من أجل محاولة منعهم من الاتجار فى الرقيق .

من المرجح أن هذا العمل كان غير قانونى إذ لم يكن الأوربيون سوى مستأجرين فى البلاد ، ولكن الشر الظاهر الذى يمثله الرق بدا فيه المبرر لمثل هذا التدخل . وأوضح البريطانيون بصورة متكررة إنهم يعتزمون مغادرة الحصون بمجرد أن يمنع الفانتى الرق منعا فعالا ويعقدوا صلحاً ثابتاً مع الأشانتى . ونشبت حرب أخرى مع الأشانتى فى عام ١٨٢٥ واضطر البريطانيون إلى البقاء لكى يساعدوا حلفاءهم الفانتى . لكن ، بدلا من الاكتفاء بإنزال الهزيمة بالأشانتى ثم الإنسحاب ، استولى البريطانيون على « مذكرات » المعاهدات من العدو . وطبقا للقوانين المحلية جعلهم هذا الإستيلاء أصحاب الحصون التى كانوا


الصحراء الكبرى
أفريقية الغربية ١٨٠٨-١٨٤٧
أشانتي
داهومي
يوروبا
ساحل العبيد
ساحل الذهب
خليج غينيا

يشغلونها . وأرسلت مذكرات الدنمرك التى جرى الاستيلاء عليها أيضاً ، إلى كوبنهاجن كدليل على الصداقة بين البلدين . ولكن ظل الأشانتى محتفظين بالمذكرات الهولندية . وبدا أن بريطانيا أصبحت أكثر تورطا بصورة مباشرة عن ذى قبل ، ولكن حكومتها أعادت ترديد عزمها على التخلى عن الساحل ، وأنجزت وعدها بعد ذلك بثلاث سنوات ونقلت المحطات إلى أيدى لجنة من تجار لندن وانسحب الممثلون الرسميون .

وإذا استثنينا سيراليونى وليبيريا ومستعمرة زراعية فرنسية فى السنغال ، فإنه لم تكن هناك مصالح أوربية أخرى شمالى الكنغو . وحين توقفت عملية الاسترقاق تـــوقف الاتجار والاتصال الرسمى بداهومى وجابون . وقصرت البرتغال اتصالاتها الرسمية على أنجولا حيث استمرت مزاولة تجارة الرقيق بصورة غير مشروعة معظم القرن التاسع عشر . وتضاءلت ثروة داهومى وأهميتها بسرعة برغـــم أن صرحها القائم على الملكية المطلقة والبيروقراطية الكاملة والجيش ظل قوياً . وانقسمت دولة اليوروبا إلى سلسلة من الوحدات المحلية التى تنافست فيما بينها بمرارة من أجـــل مواصلة الاتصال المنقطع بالمهربين البرازيليين والبرتغاليين واستطاعت جزيرة لاجوس الرملية التى تتحكم فى الميناء الجيد الوحيد على ساحل العبيد ، المحافظة على استقلالها بتحريض جيرانها ضد بعضهم البعض من أجل الوصول إلى مهربى العبيد أو للحصول على الواردات من الملح والسلع المصنوعة .

وفى شرقى ساحل العبيد لم يكن ثمة وجود أبداً لمحطات أوربية أو دول إفريقية منظمة تزاول التجارة . ولذلك فعندما ألغى الرق لم تكن هناك أرض

للتصرف فيها أو معاهدات تحالف للتمسك بها . وشجعت التجارة فى زيت النخيل والعاج لكى تحل محل تجارة الرقيق ، ولكن انصب الاهتمام الرئيسى على استبعاد المهربين . وكان الوحدات القبلية صغيرة ولايمكن التنبؤ باتجاهاتها بحيث يمكن أن تثمر المعاهدات المضادة للرق أو أن تجرى المفاوضات المشتركة . وفضلا عن هذا ساد الاعتقاد الثابت بأن دلتا النيجر ليس لها منفذ إلى الداخل أو اتصال به . كانت مصاب النهر الكثيرة ينظر إليها لا على أنها دلتا وإنما على أنها مجموعة كبيرة من الصخور القصيرة التى عرفت باسم « أنهر الزيت » وكلها ترتفع على هيئة سلسلة جبلية شاسعة من الجرانيت تمتد عبر البلاد حوالى مائتى ميل نحو الداخل .

ولم يكن طريق نهر النيجر الأدنى واتجاهه معروفين حتى بالرغم من أن بعض الرواد الأوربيين كانوا قد أصبحوا على بينة تماماً بالقسم الأعلى منه الذى ينساب داخل السافانا . وكانت الحكومة البريطانية تحاول التخلى عن أية مصالح لها على الساحل ، ولم تتورط أبداً بشكل مباشر فى « أنهار الزيت » ، ولكنها قدمت تأييداً بالغ القدر للكشوف الجغرافية فى الداخل . وكان منجوبارك قد اكتشف الكثير من مجرى النيجر الأعلى والأوسط ، ومات فى سلسلة من الشلالات على مقربة من بلاد الهوسا فى عام ١٨٠٥ . واستؤجر هنريخ بارت من ألمانيا كى يعبر الصحراء الكبرى وقدم بعد ذلك بوقت قصير تقريراً عن أحوالها الجغرافية والسياسية . وفى عام ١٨٣٠ عبر كلابرتون، ر . لاندر الصحراء أيضاً وأنزلا زورقاً فى نهر النيجر — ثم ظهرا فى « أنهار الزيت » حيث التقيا بتجار من بريطانيا — الأمر الذى أثار الدهشة الكبيرة فى نفوس الجميع . لم تتابع الحكومة هذا ولكن التجار بدأوا يسيرون بسفنهم

فى هذه الشبكة النهرية المكتشفة حديثاً ، وبذلك خلقوا عداوة عنيفة بين القبائل المقيمة فى المجرى الأدنى والتى جرى تخطيها ، ولكنهم نجحوا أيضاً فى تقليل عدد العبيد الذين كان يحصل عليهم المهربون فى الدلتا (ولم يكن المهربون ليجرأون على التوغل فى مياه النهر المحدودة خاصة إذا تأكدوا من وجود السفن البريطانية هناك) . لقد حلت التجارة المشروعة محل الرق بفعل المنافسة والظروف المواتية ، ولم تكن للتجار مزايا خاصة أو مستودعات ، ولكن بعد عام ١٨٤٠ وجدوا هم والقبائل المقيمة على النهر أن تبادل زيت النخيل والعاج بالمنتجات الأوربية أمر يعود بالنفع على الطرفين .

وكانت آثار الاتجار فى الرقيق قد امتدت نحو الشمال من منطقة الغابات المطيرة ، إلى مسافة بعيدة عن الساحل ، كما تضاءل بسرعة الاستقرار السياسى والرخاء الاقتصادى منذ القرن السادس عشر . والعوامل التى أسهمت فى هذا هى تحول تجارة مبادلة الذهب بالملح على أيدى البرتغاليين والذى أعقبه الغزو المراكشى الشره وإعادة توجيه قبائل الغابات من تجارة السافانا إلى التجارة الساحلية . ومن بين جميع مناطق السافانا كانت بلاد الهوسا أقلها تفككاً ، إذ كان تقليدها الحكومى المستنير قائماً على الاستقلال الذاتى المنبعث عن اللامركزية كما كانت تشتغل بالصناعة (بخاصة القماش والعاب) على خلاف الحضارات التى تقدمتها فى إقليم السافانا .

وكان الإسلام قد دخل بلاد الهوسا خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين حيث أحدث تأثيراً بالغاً فى بنيان الحكم وفى تطور أدب الهوسا ولكن تأثيره كدين شعبى كان سطحياً . وربما هذا التهاون ، وربما رخاء بلاد

الهوسا واستقرارها فقط ، من العوامل التى اجتذبت البدو من الفانتى المعادين للاسلام فى حوالى الوقت نفسه . وواصل الإسلام انتشاره ببطء فى القرون التالية إلى أن توغل فى صفوف الفولانى المتجولين وذوى النزعات الانفصالية، تماماً كما انتشر فى صفوف مضيفيهم الهوسا الحاكمين .

كان الزعيم الفولانى عثمان دان فوديو ، على خلاف معظم أتباعه المشتغلين بالرعى ، يعيش بين سكان المدن من الهوسا وعندما رجع من الحج إلى مكة فى عام ١٨٠٢ أوحى إليه بالدعوة إلى تطهير الإسلام ، فشن الفولانى بزعامته الجهاد أى الحرب المقدسة ضد دول الهوسا التى تسيطر عليهم ، وفيما بين عامى ١٨٠٤ ، ١٨١٠ سقطت أمام توسع إمبراطورية عثمان الفولانية ، دولة إثر أخرى فضلا عن أجزاء من بلاد اليوروبا المجاورة وبقية صنغاى القديمة . كان القتال عنيفاً . وفى موجة من الإرهاب القصير الآن ولكنه كان عنيفاً ولده التعصب الدينى ، حل الدمار بالكثير من الآثار غير الإسلامية فى ثقافة الهوسا بما فيها معظم وثائقهم التى يفتقر إليها الباحثون الحديثون افتقاراً شديداً . ولما كان النظام السياسى مستمداً من تعاليم القرآن فقد ظل موضع الإبقاء عليه بعناية وإن أصبح يخضع لساردونا أو إمبراطور مركزى اتخذ من سوكوتو مقراً له واتخذ عثمان دان فوديو ذلك اللقب وعين أمراء من الفولانى أى رؤساء النواحى على رأس كل دولة من دول الهوسا . والواقع إذن أن الإمبراطورية كانت تديرها مجموعة صغيرة من المنظمين الفولانى الذين اقتصروا على أن فرضوا أنفسهم على نظام الهوسا القديم . واستمرت كل دولة من دول الهوسا تضطلع بوظائفها كما كانت تفعل ذلك قرونا، وظلت بغير تغيير معظم القوانين والبيروقراطية التقليدية الكبيرة والإدارة اليومية للشئون المحلية .

كان الإسلام منذ ذلك الحين يمارس بالأسلوب السنى نوعاً فى جميع أرجاء ما يعرف الآن باسم نيجيريا الشمالية ولكن حماسة الجهاد سرعان ماهوت إلى استبداد وتوسع شخصى ، واتجه الغزاة الفولانى بصورة متزايدة إلى شن الغارات من أجل أسر العبيد وبخاصة فى الجنوب الشرقى على مقربة من مرتفعات الكميرون حيث اعتادت دول الهوسا الحصول على عبيدها . كانت الأسواق التى تستوعب هؤلاء الأسرى تنضب ببطء — فطريق الأشانتى مثلاأغلق حين منع البريطانيون التجارة الساحلية ، وكان الاتصال بالهربين عند لاجوس مستحيلا بسبب انقسام دولة اليوروبا إلى شيع متشاحنة ، واستمرت المبيعات للأتراك ، ولكن الدبلوماسيين الأوربيين فى الآستانة فضلا عن الأساطيل فى البحر المتوسط حاولوا منعها . ربما كانت قوة الفولانى البشرية أصغر من أن تسمح لهم بالسيطرة على بلاد الهوسا إلى ما لانهاية . فعندما خبا التعصب سهل إفساد هؤلاء السادة ، ومال الأمراء بصورة متزايدة إلى العطف على الجهات التى يحكمونها ، وبالتوسع أخذت بيروقراطية الهوسا وتقاليدهم القانونية تتحدى سلطان الفولانى ببطء وأصبح السارد ونا رمزاً دينياً بحتاً ، وعندما حلت العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ، عادت الدول المتمتعة بالاستقلال الذاتى ، إلى الظهور من الناحية العملية .

إلا أنه قبل أن تغير روح الجهاد الذى شنه عثمان دان فوديو حمل نائبه أحمدو لوبو حماسه إلى الأقليات الفولانية المتفرقة فى جميع أرجاء أقاليم السافانا . ففضلا عن بلاد الهوسا ، كانت أقوى مجموعة هى بين الماندنجو الذين يعيشون بين نهرى النيجر والسنغال على مسافة نحو الداخل من السنغال الفرنسى ، وحذا أحمدو لوبو حذو مولاه فى قلب حكومات مضيفيه ، ولكن حكم « إمبراطورية ماسينا »

التى أقامها (١٨١٠ — ١٨٤٤) لم يكن ذا أهمية بالقياس إلى رد الفعل فى نفوس جيرانه إزاء أفكاره الدينية والسياسية .

وكان اللذان سارا على نهجه عمرجا كمفو تاجالون بعد عام ١٨٣٨ ، وساموري أحد الغزاة المصاميين من الماندنجو فى السبعينات من القرن التاسع عشر . هذان الرجلان وضعا حداً للفوضى والعزلة فى السافانا لا بفعل حكمهما وإنما لأن توسعهما السريع جعلهما على اتصال مباشر بالأوربيين الذين سيطروا على الداخل منذ ذلك الحين .

وطالما أحست الدول الأوربية بأن مسئوليتها لاتمتد إلا إلى الدول المتحالفة معها والمقيمة على امتداد الساحل ، فإنها لم تهتم بما يجرى فى الداخل أو بالدول التى لم تكن تتاجر معها . أجل ، فطالما لم تجر التجارة فى الرقيق تحت أنوفهم ، أحس البريطانيون — وربما على نحو أشد منه عند سواهم — أن الحكم أو التدخل العسكرى إجراء غير ضرورى إن لم يكن غير سليم ، وساد الرأى بأن الحرية فى ممارسة التجارة المشروعة تسير جنبا إلى جنب مع التقدم لكلا المشترى والبائع ، وأصبحت وزارة الخارجية مسئولة عن حماية مثل هذه التجارة ، ولكن الحكومة لن تقوم بأى عمل إيجابى خلاف القضاء على السفن المشتغلة بتجارة العبيد . واستطاع التجار البريطانيون طرد الأوربيين الآخرين فى سلام ، إذا كان إنتاج بريطانيا أكبر وكانت أثمانها التى تبيع بها أقل . كانت بريطانيا تؤمن بالمنافسة الحرة ووجدت ذلك من صالحها ، وتقبلت الدول الأخرى الفكرة أيضاً ولكنها كانت تفتقر إلى المصنوعات والمصلحة اللازمة لزحزحة البريطانيين من مواقعهم .

لهذا كان من الأمور المنطقية كلية أن تنسحب الحكومة البريطانية من ساحل الذهب فى عام ١٨٢٨ وألا تكون لها مصلحة رسمية فى تجارة دلتا النيجر ، وبمجرد إقرار السلام على الساحل فسوف تؤدى « القوانين الطبيعية » التى تحكم الضرورة الاقتصادية إلى نشوء الظروف التى ترضى بطريقة آلية كلا من الأفريقيين والأوربيين . وبعد خروج البريطانيين من ساحل الذهب تولى شئونهم الدبلوماسية والتجارية موظفون فى سيرا ليون أو أحيلت إلى لندن ، وشغل التجار المحطات فى بلاد الفانتى وأداروا شئونهم فى دلتا النيجر .

كانت تجارة ساحل الذهب تتولاها لجنة تجار لندن وهى هيئة خاصة . واختار التجار جورج ماكلين ، وهو ضابط جيش قوى الشكيمة ، للمفاوضة من أجل إقامة سلام فعال مع الأشانتى الذين لا يستقر لهم حال . وحتى يتسنى له حماية طرق التجارة المارة ببلاد الأشانتى وهى لازمة للعمليات التجارية الناجحة ، جعل من نفسه حكما يفصل فى جميع المنازعات التى تنشب بين القبائل وحذرت الحكومة اللجنة من أن هذا العمل يشكل إدارة أوربية وهو ما أرادت بريطانيا تماما أن تتجنبه ، ولكن ماكلين واصل سياسته إذ أحس هو واللجنة أن التجارة تعتمد على تنظيم القبائل .

إن حزم ماكلين الاستثنائى وإخلاصه غير المتحيز وصبره الذى لا ينفد ، كل هذا أوجد فى ساحل الذهب عصراً لم يسبق لمثيل ، من السكينة والتعاون . كان الأفريقيون يطمئنون إلى رأيه الذى ضم إلى القدرة على تقبل الكلمات العنيفة البطء الطويل الأمد الذى تتصف به المفاوضات التقليدية مع القبائل ،

وهى فترة كانت تعتبر شيئاً فريداً بين الأوربيين فى ذلك الوقت . وكان يجب السفر فى الداخل دون أن يصحبه حرس حربى ، كما أنه — على خلاف سياسة الحكومة البريطانية — لم يستخدم القانون الأوربى إلا بوصفه مكملا للعادات الوطنية . وكانت النتيجة أن انتشر سلطان ماكلين بسرعة وأصبح موضع الاحترام الكبير من جانب كل من الفانتى والأشانتى .

وخشيت الحكومة أن تؤدى سياسة ماكلين واللجنة إلى التورط الشديد فى شئون الوطنيين ، ولهذا راحت تخرج التجار فى عام ١٨٤٣ ، وبعد ذلك استأنف الموظفون البريطانيون حكمهم المباشر على الحصون وأعدوا الخطط للتقليل من عدد الالتزامات السياسية التى سبق أن اتفق بشأنها التجار . وكان ماكلين خلال توسعه فى عام ١٨٣١ قد عقد هدنة بين الفانتى والأشانتى أبقت عليها الحكومة حتى عام ١٨٧١ ، ولكنها ظلت مترددة بشأن معظم المسائل الأخرى .

وإذ كانت قد تمت تهدئة الأشانتى عندما استؤنف الحكم المباشر ، حول الموظفون انتباههم إلى المنازعات البسيطة التى تقسم دول الفانتى . ومن أجل تهدئة الساحل وقع « عقد » مع الفانتى يقضى بتحكيم بريطانيا وتنظيم العلاقات بين القبائل . ربما كان الغرض من عقد عام ١٨٤٤ تقوية التجارة البريطانية ، أو لعله كان خطة يراد بها تثبيت الأمور فى المنطقة قبل انسحاب الحكومة . لقد ظل النقاد البرلمانيون يدعون إلى الانسحاب بقصد التقليل من النفقات ، ولكن لم يتحقق أبدا الهدوء الذى يحدث بعد ذلك .

كانت تكاليف إدارة المستعمرة تشكل مشكلة مستمرة ، وتثير استياء

دافعى الضرائب البريطانيين . كان التجار ، لا الحكومة ، هم الذين يجنون الأرباح ، ولكن لم يكن فى الوسع فرض الضرائب عليهم أو مطالبتهم بأداء رسوم جمركية على التجارة لأن هذا يتيح للمحطات الهولندية والدنمركية فرصة البيع بأثمان أقل مما يبيعون به ، كما تتعارض أمثال هذه التعريفات الجمركية مع سياسة حرية التجارة . كان الحل الوحيد هو الاستحواذ على المحطات الأجنبية التى تثير الانقسام فى صفوف الفانتى ، وعندئذ يمكن فرض الضرائب مباشرة عليهم . وفى عام ١٨٥٠ باعت الدنمرك راضية ما كان لها من مصلحة ، واستردت بريطانيا « المذكرات » التى تقرر حق الملكية ، وخفت حدة الاضطراب التنافسى كان معنى هذا مزيدا من التورط ولكن بدا الآن أن فى الإمكان تحقيق السلام والوحدة . ثم طلب إلى رؤساء الفانتى أن يتولوا جباية الضرائب من رعاياهم ، وإذ استخدم البريطانيون عقد عام ١٨٤٤ مبرراً لتصرفاتهم أدخلوا على قوانين الفانتى نصاً يقضى بفرض ضريبة على الرؤوس ولكن لم يجمع شىء منها إذ لم يكن فى استطاعة الرؤساء فرض الضرائب بغير موافقة قومهم .

كانت المحطات الهولندية لاتزال تتخلل المحطات البريطانية على طول ساحل الذهب . وظلت قبائل الفانتى المتحالفة مع أحدى الدولتين ، تسعى إلى تحطيم منافسيها المتحالفين مع البلد الأوربى الآخر . وفى عام ١٨٦٧ وافقت الدولتان على تبادل الحصون ، فأصبح القسم الغربى من الساحل هولنديا بينما انتقل الجزء الشرقى إلى بريطانيا ، وصار من المأمول الآن أن يسود السلام والوحدة فى كل قسم ، بل ربما كان فى الإمكان فرض رسم جمركى صغير لتغطية نفقات الإدارة (وليس لأغراض الحماية) .

.. إلا أن السلام حال دونه نشوء سوء تفاهم كبير . لقد أحس الفانتي من أهل القسم الغربي أن حلفاءهم البريطانيين خانوهم حين تخلوهم إلى أيدى أعدائهم الهولنديين وأبلغت بريطانيا جميع الفانتي — سواء في الشرق أو في الغرب — أنها بصدد الانسحاب إلى المحطات التابعة لها ولن تحاول بعد ذلك الدفاع عن الفانتي أو القيام بدور الحكم في المنازعات التي تنشب بينهم . إن تبادل المحطات الذي تم بين الإنجليز والهولنديين بدا الآن مشروعا للانسحاب أكثر منه إعادة تنظيم للحلفاء التقليديين . وكان من المنطقي تماما أن يتراءى للفانتي أن هذا العمل يحلهم من الميثاق الموقع في عام ١٨٤٤ ، ومن الصعب أن نعرف ماذا كان رأى البريطانيين آنذاك في ذلك الاتفاق .

وتصرف أحد زعماء الفانتي كما لو أن العقد أصبح لاغيا . فبعد أن اتخذ لنفسه لقب الملك جون أجرى أعلن أن الحاكم البريطانية لم تعد لها الولاية على شعبه وراح ينشيء جيشاً . وعمد غيره من الفانتي إلى تكوين حلف بقصد الدفاع عن أنفسهم ضد الهولنديين وحلفائهم الأشانتي في الغرب والشمال . وأقر حلف الفانتي قانونا أساسيا يمتاز بالنضوج وهو دستور مانكسيم **Mankesim** لعام ١٨٧١ وينص على أن يرأس الاتحاد ملك يختار بالانتخاب ، وجمعية تمثيلية ، وهيئة قضائية دائمة ونظام للتعليم العام . وأرسلت نسخة منه بالطرق الدبلوماسية السليمة إلى المحطات البريطانية « للعلم » .

وإذ استشعرت بريطانيا الرعب من جراء النتائج التي أسفر عنها اتفاقها مع هولنده ، عمدت إلى التصرف على نحو أثار دهشة الفانتي ، إذ طلبت أن يكون لها حق الفيتو على دستور مانكسيم ، ويظهر أنه ساورتها فكرة بأن

الفانتى يضمون صفوفهم من أجل طرد الأوربيين . إننا نعرف الآن أن العداء بين الفانتى والأشانتى كان يزداد بسرعة ، ولكن الأوربيين الذين لم يفهموا إلا القليل من الشئون الوطنية ، تملكتهم الفكرة بأن الفانتى يتحالفون مع الأشانتى : فلو انقلب الحكم الذاتى عند الفانتى إلى فوضى — وكان رأى البيض أن الزنوج من الهمجية بحيث لا يستطيعون تنظيم أنفسهم — فسوف يتعين على بريطانيا أن تعود من جديد إلى تهدئة البلاد . وفضلا عن هذا فالتعامل مع بيروقراطية فانتية أصعب بكثير منه مع الزعماء التقليديين المستقلين ، ولهذا فإن الحلف سوف يهدد السلام الذى أرادته بريطانيا .

وكانت الأراضى الواطئة أشد عزوفاً عن استعمال القوة ضد الفانتى . كانت تجارتها تعتمد على حرية الوصول إلى بـــلاد الأشانتى ، واضطربت تجارتهم اضطراباً خطيراً نتيجة رد الفعل الذى سرى فى نفوس الفانتى بسبب تبادل الحصون . وبقدر ما كانت تجارة الهولنديين بسيطة نسبيا فعندما حل عام ١٨٧٢ كان رأيهم قد استقر على بيع ما لهم من مصلحة إلى البريطانيين . بدا الإجراء الآن فى أول الأمر حلا معقولا لكثير من مشكلات ساحل الذهب . ولكنه أثار أزمة بالدرجة الأولى من الضخامة .

كانت بريطانيا والدنمرك تملكان منذ عام ١٨٢٥ حصونهما بسبب استيلائهما من الأشانتى على « المذكرات » أو حقوق الملكية . غير أن المذكرات الهولندية لم يتم الاستيلاء عليها ، ولذلك ظلت محطات الهولنديين ملكا للأشانتى ويجب أداء الإيجار عنها بانتظام . وعندما جرى تبادل الحصون مع إنجلترا فى عام ١٨٦٧ واصلت هولنده إرسال الهدايا إلى ملك

الأشانتى ولكن بريطانيا لم تفهم هذا عندما اشترت المصالح الهولندية بعد ذلك بخمس سنوات . كانت إنجلترا تعتقد أن الهدايا مجرد وسيلة لتشجيع تجارة تسير فى طريق التدهور ، وكان ينبغى لها أن تعلم فى هذا الوقت أن أمثال هذه المدفوعات ضرورية بدلا من أن تظن العكس وإذا كان الأشانتى يعتبرون الهدايا نوعاً من الإيجار توقفت بريطانيا عند أدائه ، لهذا قدموا احتجاجاً ثم عمدوا أخيراً إلى مهاجمة الأقاليم الساحلية . وظنت بريطانيا أنها ببعث الحياة فى العقد وبنيل الاختصاص على الساحل بأسره ، تستطيع كفالة السلام والاستقرار بدون التوغل فى الداخل أو تحمل نفقات كبيرة .. وبدلا من ذلك اضطرت إلى التوغل فى الداخل على نحو لم يكن له مثيل من قبل . مثل هذا التطور الجديد سبب تنقيحاً حاسماً للسياسة [1] .

لم تتأثر الأحوال فى دلتا النيجر بمثل هذه الأزمة فزاد الاتجار الحر بسرعة بعد اكتشاف النهر وارتياده ، ولهذا عينت وزارة الخارجية قنصلا لها بعد عام ١٨٤٩ . كان القنصل يقيم فى فرناندبو على مسافة من الشاطىء ، ولكن كان من السهل الوصول إليه بالأسلوب الدبلوماسى المادى لكى يساعد التجار فى المفاوضات التى يجرونها مع الزعماء فى الدلتا . وكان انعدام التنظيم القبلى يخلق أحياناً ظروفاً خطيرة . وكثيراً ما طلب التجار من القنصل أن يدعم بالتأييد الدبلوماسى ولكن وزارة الخارجية أصرت بثبات حتى عام ١٨٧٢ على رفض التدخل ، وبعد ذلك سمح للقنصل بالتحكيم فى المنازعات التى تنشأ حول العقود وبتنظيم الحملات التأديبية وأخيراً انتقل إلى كالابار على الساحل .

(١) عالج المؤلف هذا التطور فى الفصل السادس عشر من الكتاب ، وهو خارج عن الجزء الذى ترجمناه . (المترجم)

ولكن ظلت الشئون أساساً داخلة فى نطاق العلاقات الخارجية بدلا من الإدارة السياسية .

وكانت المصالح البريطانية النظامية قليلة فى ساحل العبيد ولكن واصلت البحرية مصادرة عدد من سفن العبيد التى تزاول هذه التجارة بطريقة غير مشروعة من لاجوس إلى البرازيل . وبحلول عام ١٨٥١ كانت المنافسة على السيطرة على مثل هذا التهريب قد أصبحت حادة بين قبائل المنطقة . فحاولت داهومى القوية الاستيلاء على الميناء بقوة قوامها ١٨٠٠٠ من محارباتها اللائى لا يقهرن ، ولكن جنود لاجوس وإن لم يكونوا فى بسالة معظم أعدائهم الداهوميين ، كانوا راغبين فى القتال وكسبوا المعركة وقطعوا سبيل التجارة المشروعة إلى بلاد الداهوميين وجزء من أرض اليوروبا . وأعقب ذلك نشوب حرب بين أفراد الأسرة المالكة . وأثارت روايات الرحالة عن ازدياد الفوضى ، الانزعاج فى نفوس ذوى الميول الإنسانية ، فتم احتلال ميناء لاجوس ولكن دون احتلال أى أرض تجاورة . وفر تجار الرقيق البرازيليون وأعيد فتح طرق التجارة .

كانت بريطانيا وحدها هى التى تورطت إلى درجة لها شأنها فى أفريقية الغربية خلال الثلاثة أرباع الأولى من القرن التاسع عشر . لقد حاولت تقييد مصالحها ولكنها وجدت أن النزعة الإنسانية المعادية للرق وكذلك حرية التجارة لا يمكن أن يحققا نجاحاً بغير التدخل الحكومى المتزايد . وبانتصاف القرن التاسع عشر كانت قد أرسيت الأسس التى سيقوم عليها بعد ذلك الغزو الإمبراطورى والتقسيم التنافسى والحكم الاستعمارى فى أفريقية الغربية .

من بنت إلى الزنج

عاش الأقزام حول البحيرات العظمى فى عصور ما قبل التاريخ ،أما البوشمن فسادوا فى كل مكان آخر شرقاً وجنوباً ولا نزال نجد جيوباً من كلا الشعبين ، ولكن التطور التاريخى يبدأ بسلسلة من التسربات الأجنبية حدثت فى تعاقب بدأ العلماء فى توضيحه ، ويظهر أن أولها كان تفرقا رقيقا للكوشيين الأفرو آسيويين أو شعب سيدامو الذين انتشروا نحو الجنوب بعد أن هبطوا من المرتفعات الأثيوبية قبل مولد المسيح بقرون قلائل . ويعتقد علماء الآثار أن هؤلاء المستوطنين الزراعيين جاءوا إلى الفلاحين بنظام زراعة المدرجات على جوانب التلال وبنحت الأحجار لأغراض البناء وبسلسلة من المحاصيل الجديدة .

وعلى مقربة من المحلات التى أقاموها عند بحيرة فكتوريا ، يظهروا أنهم قضوا على الأقزام ، إلا أننا نلاحظ أن سكان الجهات الممتدة بعيداً فى اتجاه الجنوب تقبلوا الشعب الخومى، ويحتمل أنهم علموه المبادئ الأولية فى استخدام الحديد . وكان للغزاة الكوشيين تأثير بالغ حتى بالرغم من صغر أعدادهم وقلة الآثار التى خلفوها بعدهم .

وكان المصريون القدماء يذكرون من وقت لآخر الساحل الشمالى الشرقى والذى أطلقوا عليه اسم بنت — ولكن السبأيين من أهل اليمن الحديثة كانوا أقل الأقوام المهمة الذين ثبت بصورة مادية وصولهم إلى الساحل . وفى ظل

حكمهم بدأ الاتجار فى منتجات بلاد العرب والهند وشرق أفريقية . وكانت هناك محلات قلائل للتجارة والزراعة الاستوائية فى أيام الرومان بالقرب من خط الاستواء، ولكن من المشكوك فيه وجود كثيرين من الهنود أو الإندونيسيين إن وجدوا بين المستعمرين . ربما استخدمت الأفكار الشرقية الخاصة ببناء السفن والمحاصيل ، ولكن من الممكن أن تكون هذه قد جاء بها بنو سبأ فى أثناء التجارة التى زاولوها .

ولم يكن للزنوج وجود فى شرق أفريقية إلى أن بدأت الطليعة التى تتكلم لغات البانتو تخرج من الغابة قرب البحيرات العظمى فيما بين عامى ٥٠٠ و ٨٠٠ للميلاديين . وبالرغم من أن البانتو كانوا ينشئون تنظيماً عسكرياً بسيطاً أثناء هجرتهم عبر الغابة من الكاميرون فلا بد أنهم كافحوا من أجل اجتياح الدول القائمة على جوانب البحيرات والتى أنشأها الفلاحون الكوشيون ممن عرفوا قطع الحجر ونحته . وفى النهاية انتصر الزنوج لأنهم كانوا يفوقون المدافعين عدداً ويقلدون التنظيم السائد فيهم .

وظهرت ممالك على شواطىء البحيرات مثل بوجندا على بحيرة فكتوريا وبفيورو على بحيرة ألبرت وروانـدا وأوروندى شمالى بحيرة تنجانيقا ، وسادت لهجات البانتو واشتغل الأقزام فى رواندا وأوروندى حيث لم يقض عليهم الكوشيون من شعب سيدامو بالصيد والقنص ، واقتبست الأنماط الكوشية فى التنظيم وبناء البيوت والزراعة . وواصل زنوج آخرون من البانتو — ربما هم الذين خرجوا من الكنغو بعد ذلك بوقت قليل — سيرهم حتى بلغوا تنجانيقا ومنها واصلوا سيرهم إلى كينيا بعد احتلال مناطق البحيرة ، وأعقبت

ذلك موجة باتنوية أخرى سارت فى الممر الممتد بجوار البحيرة والذى يخترق الغابة ، حتى يتسنى لها الوصول إلى روديسيا الشمالية ، وروديسيا الجنوبية ، ونياسالاند . وعلى خلاف ما فعل الأقزام ، يظهر أن البوشمن فروا جنوباً أمام هذه الموجات الزاحفة أو أبيدوا .

وقبيل عصر المسيح قرر التجار من بنى سبأ الانتقال من اليمن فى بلاد العرب المجدبة إلى الجبال الأشد خصباً فى أثيوبيا ، وحولهم المبشرون الوحدانيون إلى المسيحية فى القرنين الرابع والخامس ولكن الصراع مع المدعين الآخرين فى المنطقة حال بينهم وبين مواصلة نشاطهم فى الملاحة والاستعمار . وكانت ردود الأفعال فى نفوس من زحزحوهم من الشعوب موضع الشعور بهسا فى النهاية على امتداد البحيرات العظمى بينما حل محلهم العرب والفرس فى التجارة الساحلية .

وظل الزنوج الذين يعيشون على طول مجرى النيل الأعلى واقعين قروناً كثيرة تحت تأثير الثقافة الكوشية ولغة أثيوبيا المجاورة لهم ، وعن طريق هذا الاتصال جاءت الماشية إلى الوادى . ولما غزا بنوسبأ المرتفعات فر الكثيرون من الكوشيين متجهين نحو الغرب كى يجدوا ملجأ لهم بين الزنوج . هذا المزيج الناتج أى النيلوتيون أوجد مزيجاً من لغات النيجر والكنغو واللغات الأفرو — آسيوية وبعد ذلك بدأ البدو النيلوتيون ينتشرون فى اتجـاه البحيرات العظمى حيث التقوا بممالك البانتو الآخذة فى النمو ، وأخيراً أقام معظمهم فى مرتفعات كينيا وتنجانيقا ولكن نجحت مجموعتان منهم فى إجراء ترتيبات خاصة فى بوجنده وبنيورو وروواندا — أورو ندى .

إن ذبابة تسى تسى التى تحمل مرضاً يفتك بالماشية لا وجود لها فى الجهات الممتدة بحذاء البحيرات ، وبذلك كان فى الإمكان أن تعيش قطعان النيلوتيين فتزيد من ثراء اقتصاد البانتو . وسرعان ما انتقلت أساليب تربية الماشية إلى الجنوب عن طريق الممر المرتفع الخالى من الذبابة والمؤدى إلى سهول الروديسيتين وجنوب إفريقية . وأصبح رعـــاة الماشية النيلوتيون طبقة ممتازة فى بونيورو وبوجنده وهما أبعد الممالك القائمة فى إقليم البحيرات فى اتجاه الشمال ؛ ولكنهم نجحوا فى رواندا وأوروندى فى فـــرض سيطرتهم على الحكم بطريق التفاهم أو القتال .

وفى هذه الممالك البعيدة فى اتجاه الجنوب شـــكل الباتوتسى النيلوتيون (الواتوتسى) أرستقراطية منعزلة تحكم جماهير البانتو واحتفظوا بخواصهم الجنسية المميزة بما فى ذلك ارتفاع قامتهم الكبيرة ، وكانوا يكنون الاحترام لسرعة الحركة والفراغ . من المتوقع أن يلقى المرء هذه الصفات المتميزة فى جماعة غريبة نشأت فى البلاد ، كانت تذكر مقدرتها العسكرية وعمتخفيها كراهية العمل الذى يقوم به الفلاحون . وفى كل حالة حلت لغة البانتو محل اللغة النيلوتية ولكن ظلت الماشية الأساس الذى يقوم عليه النشاط الأساسى .

وساعد النيلوتيون الأغنياء فى بونيورو وبوجنده زعمـــاء البانتو الذين منحوهم امتيازات خاصة حتى يصبح الأخيرون ملوكاً مطلقى السلطان تقريباً . وكانت مساحات شاسعة وجماهير كبيرة من الأهلين تحكمها بيروقراطية دائمة ومجلس يجمع بين المهام القضائية والتنفيذية .

وتوسعت بونيورو بسرعة عن طريق الغزو العسكرى خلال القرن التاسع

عشر، وقسمت البلاد إلى مناطق وضعت تحت إدارة الرؤساء المخلصين ، وغالباً ما كان الملك يقوم بالرحلات من أجل الإشراف على قطعانه المتناثرة من الماشية ، وعلى الوصول إلى رؤساء النواحي وبذلك لم يكن هناك بلاط دائم أو أبهـــة كثيرة . إلا أن بوجنده كانت غير ذات شأن نسبياً إلى أن توسعت بونيورو إلى الحد الذى تجاوز طاقتها وفى أوائل القرن التاسع عشر نشبت ثورة عجلت بتفكك الأخيرة . .

. وسرعان مابرزت بوجنده بوصفها الدولة ذات الغلبة فى منطقة بحيرة فيكتوريا ، وفى هذه الدولة كانت الماشية أقل أهمية من زراعة الدخن التى ازدهرت حول البحيرة . لم يكن لدى هذا المجتمع أسباب كثيرة تدعوه إلى التوسع ولكن ربما لأن بوجنده لم تكن ذات طابع عدوانى — سعت كثير من القبائل فى المحيط بها إلى التماس حمايتها وبدأت تؤدى الجزية بانتظـــام . كانت للملك أو الـكاباكا عاصمة دائمة أدخل فيها النيلوتيون الـكثير من مظاهر الأبهـــــة والطقوس ، كما كان له أيضاً جيش عظيم من المحاربين وعنده مئات من الزوارق الحربية التى تستخدم إما للدفاع عن حلفائه أو لإجبارهم على أداء الجزية المستحقة . ورغم أن الـكاباكا وصل بمساعد النيلوتيين إلى مركز الحاكم المطلق بالفعل ظلت رعاياه زمناً طويلا تفضل الزراعة المستقرة على الغزو ، وأصبح الأتباع الجدد رعايا مخلصين فى العادة ، إذ كان يحكمهم رؤساء محليون يستأهلون الثقة بدلا من قوات الاحتلال أو عملاء بوجنده ممن قـــد يثيرون الاستياء فى النفوس[1] . ومنح الزعماء المعينون سلطة القضاء وجباية

(١) فى لغات البانتو يستدل على التغييرات التى تطرأ على الاسم الأساسى بإضافة مقاطع قبله . مثال ذلك أن الـكلمة الأساسية جاندا يشتق منها بوجندة (أرض جانده) ، باجندا (شعب جانده) ولوجندة (لغة جندة) وبالمثل نجد كلمات بونيورو ، بانيورو ولونيورو مشتقة من نيورو .

الضرائب وبذلك توفر الاستقلال الذاتى المحلى إلى جانب الخدمة الخاصة للكاباكا صاحب السيادة .

لم ينشب صراع بين الدولتين حتى عام ١٨٦٩ حين أحيت بونيورو نزعتها التوسعية واحتكت بشبكة من القبائل التى تؤدى الجزية. ولكن نشوب صراع حاسم بينهما حال دونه وصول الأوربيين فى العقد التالى . كان المراقبون الأوربيون يعتقدون فى أول الأمر أن الكاباكا أكثر ثقافة وليناً من مقابله فى بونيورو ، وأكدت تقارير الرحالة الطابع المتقن والمستقر لبلاط بوجنده وأهمية الزراعة ونظام الحاربين والبحارة الذى يلفت النظر وبدت دور إقامة الملوك فى بونيورو « قذرة » ومتأخرة ، ولكن المعروف الآن أن هذا المظهر الخارجى الهزيل كان يرجع إلى حد كبير إلى طبيعة البلاط غير الدائمة .

أما وراءه فقامت حكومة تستطيع أن تحكم مساحات أكبر وكانت أقل اعتماداً من نظام الحكم فى بوجنده على تبادل الامتيازات .

وفى جنوب غربى بوجنده وتورو وبونيورو قامت مملكتا رواندا وأورونى (روانى) . هذه الدول الخمس كانت تتشابه من نواح كثيرة كما كانت الفوارق بينها تستحق الذكر ، ولكنها جميعاً شكلتها المؤثرات النيلوتيـــة .

وكان للكوشيين الأوائل من أهل سيدامو تأثير قليل على رواندا ولهذا نجى الأقزام الذين قتلوا فى المواضع الأخرى على قيد البقاء . وفضلا عن هذا لما لم يكن للبانتو فى هذه الجهة أسلاف من السيدامو يحتذى حذوهم لهذا كانوا أقل تنظيماً حين وصل النيلوتيون من الشمال الشرقى . ونتيجة لهذا لم يجلب

الغزاة إلى هؤلاء الباتنو أفكار السيد امو فحسب ، وإنما أصبحوا أيضاً طبقة ممتازة فى أيديها السيطرة السياسية والاجتماعية الكاملة . ولذلك كان تأثيرهم أكثر فجائية ووضوحاً وثورية منه حول بحيرة فكتوريا .

ولم تكن لروانда أو أوزوندى عواصم ثابتة ، واحتفظ الباتوتسى الحاكمون ببلاط راق ولكنه متنقل يتولى إدارة شكل من الإقطاع . أما الباهوتو الذين يتكلمون لغة الباتنو وهم السكان الأقدمون فهبطوا إلى منزلة الفلاحين المزارعين ولم يسمح لهم بالقتال أو تملك الأرض وبذلك أصبحوا رقيقاً فعليين . وكانت ملكية الارض والحق فى جباية نسبة مئوية من إنتاجها متركزين فى أيدى الملك الباتوتسى الذى كانت سلطته مطلقة . واشتغل الأقزام المعروفون فى هذه الجهة باسم الباتواء بصيد الحيوان والحراسة كما اشتغلوا أتباعاً وخدماً للملك وطبقته الأرستقراطية . وكانت تربية الماشية تعتبر امتيازاً ولهذا لم يكن يمتلك القطعان سوى الباتوتسى الذين كانوا محاربين أيضاً . كذلك سيطرت الطبقة الحاكمة على السلطات القضائية والإدارية والاقتصادية فى كل بلد .

وتعلمت قبائل الباتنو التى تحركت صوب الشرق من ناحية البحيرات العظمى تربية الماشية من شعب الجلا الكوشى المقيم فى جنوب أثيوبيا ومرتفعات كينيا . ولم تكن المجتمعات الباتنوية القاطنة بين البحيرات والمحيط الهندى تتطلب أو تتلقى تنظيماً معقداً ولكنها استعارت نظاماً قانونياً واسع النطاق وأساليب طقسية كثيرة من جيرانها الكوشيين والسيد امو والنيلوتيين .

وبأوائل القرن العاشر كانت طلائع من الباتنو قد سارت فى الأرض الفضاء على طول البحيرات العظمى حتى وصلت الشاطىء الجنوبى لنهر زمبيزى . كانوا

فى ذلك الوقت من صناع الحديد المهرة، وأضافوا إلى هذا فن قطع الأحجار الذى تعلموه من الكوشيين المتناثرين على هيئة جماعات صغيرة فى وسط البوشمن بشرق أفريقية . كذلك اتبع البانتو تقليدهم المعتاد القائم على امتصاص أو طرد أو إبادة البوشمن الذين فى طريقهم ، ووجدت رواسب معدنية غنية لمسافة ٢٠٠ ميل على كل من جانبى نهر زمبيزى وازدهرت المحاصيل وقامت تجارة مجزية مع التجار العرب على طول ساحل المحيط الهنــــدى قبل عام ١٢٠٠ الميلادى .

وكان الكوشيون قد مارسوا بعض التعدين والتجارة منذ القرن السابع ولكن التجارة لم تزدهر إلا بعد أن أقام البانتو الأول والذين يطلقون على أنفسهم اسم سوثو بأعداد كبيرة . وبعد حكم دام حوالى ٢٠٠ عام طغى عليهم البانتو المعروفون باسم شونا والذين يبدو أنهم جاءوا بالماشية من البحيرات العظمى عن طريق الممر الخالى من ذبابة تسى تسى . وبحلول عام ١٤٥٠ كان الشونا قد أنشأوا مملكة وأطلقوا على حاكمهم لقب « مونوموتابا » وبدأوا فى إنشاء مستعمرات تحيط بها أسوار مبنية من الحجارة .

وكان أوسعها نطاقا وأشدها مدعاة للحيرة زمبابوى . فى هذا الموقع وجدت قرى خشبية وطينية منذ بدء التعدين فى القرن السابع ، وكانت الحجارة تستعمل زمناً طويلا لإقامة أماكن الاحتفالات ولكن الثابت الآن أن استخدام الحجارة كان فى عهد إمبراطورية المونوموتابا فى القرن الخامس عشر .

وكان النظام السياسى يعتمد على جمع الجزية من الجيران الذين يجرى غزو

بلادهم ، وربما كانت إحدى هذه القبائل هى التى قلبت حكم المونوموتابا فى حوالى ١٦٠٠ ،واحتلت المدن المبنية بالحجارة،وأضافت مبانى جديدة .وبعد عام ١٦٩٣ استولى الباتنو المعروفون باسم روزوى على المنطقة وأعادوا بناء الكثير من الصروح الأصلية ،ونشروا البناء بالحجارة فى الأجزاء الأخرى من روديسيا الجنوبية . وفى ١٨٣٤ تحطم الروزوى على أيدى الغزاة من الزولو الوافدين من الجنوب ،وانتهت فجأة معرفة البناء بالحجر واحتلال المدن المشيدة بالحجارة . وليس ثمة شك فى أن الزنوج الباتنو هم الذين ابتدعوا ونفذوا فكرة إقامة زمبابوى ، لقد لوحظ وجود البناة بالحجر من الباتنو فى عهد حديث مثل الأربعينات من القرن التاسع عشر على مقربة من شلالات فكتوريا ، وفى العشرينات فى الترنسفال . وثمة تشابه مع فن البناء بالحجارة فى أثيوبيا بما يدل على أن أصل هذا الفن كوشى ، ولكن الدوافع الخاصة على استخدامها للزينة ترجع إلى الباتنو فى حوض الكونغو . إن تصميات ووظائف الصروح المعدة للاحتفالات تمثل ذروة الأفكار التى أمكن إرجاع أصلها إلى مرتفعات الكاميرون .

وخلف التجار العرب روايات مكتوبة عن تطور زمبابوى ومبانى المونوموتابا الأخرى ، وزارها المبشرون والتجار والمبعوثون البرتغاليون عدة مرات ، وخلفوا وراءهم روايات واضحة . إن تحديد تاريخ الكربون وفحص الجماجم والحقائق الفنية والتقدم الهام فى الدراسات عن الباتنو — كل هذا ساعد على توضيح تاريخ المدن الحجرية . إن الاضطراب المتعلق بزمبابوى التى أصبحت «سراً غامضاً» ذا أبعاد تدعو إلى السخرية يمكن إرجاعه إلى مصادر ثلاثة ، فما من واحد من المكتشفين الأوائل فحص الخرائب قبل ذلك أبداً .

وعرقل الأبحاث . إن المنقبين وصلوا إلى الخرائب ودنسوها قبل أن يتمكن العلماء من دراستها، ولذلك كان لا بد من القيام بحفريات واسعة النطاق ، ومن التذرع بالصبر الكثير قبل أن أمكن إيجاد الحل . والمصدر الثالث أن معظم الزوار غير المدربين اخترعوا نظرية خيالية مثيرة تعتبر الزنوج من « الانحطاط » بحيث كانوا عاجزين عن التخطيط والبناء بالحجارة .

هناك أشياء كثيرة غير مؤكدة ، ولكن الصورة العامة واضحة ، والاختلاف قليل حول النقاط الكبرى بين السلطات المدربة التي فحصت موقع زمبابوى [١] .

إن ساحل شرق أفريقية شقة ضيقة ورملية من الأرض ، وتحول الغابات والمرتفعات دون سهولة الوصول إلى الداخل ، ونتيجة لهذا ظل التوغل وراء الساحل قليلا جداً حتى بدء القرن التاسع عشر . وكان السبئيون القدماء من أهل بلاد العرب قد أنشأوا تجارة يسيرة مع الكوشيين المتفرقين فى أفريقية الشرقية، ولكنها تضاءلت حيث ركزوا جهودهم على غزو أثيوبيا فى فترة مبكرة

(١) من العدد بين المصادر الخاصة بزمبابوى نذكر :

Gertrude Caton-Thompson : The Zimbabwe Culture : Ruins and Reactions (London, 1931).

والملاحظات الأحدث عهداً والواردة فى كتاب ج . ديزموند كلارك :

The Prehistory of Southern Africa.

(هارموندز ورث ، ١٩٥٩ ، ص ٢٨٩ — ٣١٣) .

وثمة خلاصة هامة من الجدل حول زمبابوى تجدها فى كتاب بازيل دافيد سون :

Old Africa Rediscovered.

(لندن ١٩٦٠ ، ص ١٩٦ — ٢٣٠)

من العصر المسيحى . ربما وجدت مراكز تجارية على امتداد الساحل، ولكن لم يكن لها تأثير دائم على شرق أفريقية . وأقام غيرهم من العرب والذين حلوا محلهم بالتدريج على طول الساحل تجارة غير منتظمة مع المدنيين السكوشيين فى وادى زمبيزى ، ولكن لم يحدث تطور واسع النطاق إلا بعد وصول البانتو وتحالف المنظمات العربية .

وانتشر الإسلام إلى جميع القبائل فى الصحراء العربية خلال القرن السابع ، ولكن التوجيه السياسى كان من الصعب تحقيقه، واحتفظ البدو فى عمان الواقعة فى الطرف الشرقى من بلاد العرب باستقلالهم لأنهم كانوا يتطلعون إلى البحر بدلا من الصحراء سعياً وراء العيش .

وسيطرت مسقط ،وهى الميناء الوحيد بعمان ، على القبائل المقيمة فى الداخل، وحوالى عام ٧٥٠ الميلادى جعل انتشار النظرية الإسلامية فى الحكم ، فى الإمكان قيام حاكم مركزى اتخذ لنفسه لقب إمام عمان .

كان لدى قبائل الصحراء من العمانيين القليل من المنتجات القابلة للبيع ، ولكنهم وجدوا ربحاً يجتذبهم فى القرصنة ، وفى نقل البضائع لحساب الغير ، فأنشئت المستودعات فى الهند وبلاد فارس وشرق أفريقية . وقامت التجارة على أساس تبادل الذهب والعبيد من أفريقية بمنتجات الهند وفارس من القماش والأدوات المنزلية وعقود الخرز . وكان النيلوتيون السودانيون والزنوج والذين يأسرهم أحياناً السبئيون المحاربون فى أثيوبيا ، يباعون فى أسواق الرقيق الفارسية .

ولكن ما نعمت به فارس فى القرن التاسع من سلام ورخاء تحطم بسبب المنازعات الدينية ، والخلافات حول وراثة العرش والثورة التى قام بها العبيد .. واغتصب الجنود من الأتراك سلطة الخليفة ، وضغط الأشراف الفرس من أجل الحصول على السيطرة السياسية وإعادة النظر فى التعاليم الإسلامية . ومات الألوف فى هذه الفوضى ، والتمس غيرهم ملجأ فى سفن العمانيين ، ونقلوا إلى الساحل الأفريقى الشرقى حيث عاونهم التجار والبحارة العمانيون على إنشاء محلات دائمة لهم . كانت عمان حاميتهم وكفيلهم ، ولكن المدن كانت فارسية فى تصميمها ومستقلة فى سياستها .

وكانت المحلات التى أنشئت على الساحل من زمبيزى إلى الصومال الحديث تعرف فى مجموعها باسم الزنج (وهى الكلمة العربية لأثيوبيا) ولكن لم يكن هناك تنظيم مركزى ، فبنيت كل مدينة مستقلة على جزيرة لتكون فى مأمن من الهجوم والمرض . وإذا استثنينا التجارة التى بدأت تنمو بعد وصول البانتو فى القرن التالى كان الاتصال قليلا مع البر . وقامت المزارع الكبيرة لزراعة أشجار زيت النخيل ، وبدأت أولاً فى الجزر ، ثم انتقلت إلى الشقة الساحلية الضيقة ، وكان من السهل الحصول على العبيد للعمل فى هذه المزارع إذ كان تنظيم البانتو الذين وصلوا إلى الساحل ضعيفاً . وإذ استقرت أحوال بلاد الزنج ونمت زادت التجارة بسرعة ، وإذ وجد المنظمون من الهند الساحل مجزياً بدأوا فى السيطرة على الملاحة والمصرفية والزراعة ، وأصبح العرب العمانيون والفرس طبقة حاكمة تنعم بالفرع ، وبدأت مختلف الجماعات المقيمة على الساحل من البانتو والعرب والهنود (والأخيرون يعرفون باسم بنيان Bunyan) فى ابتداع مزيج ثقافى سواحلى جديد . كانت السواحلية ، كلغة ، مزيجاً من المفردات

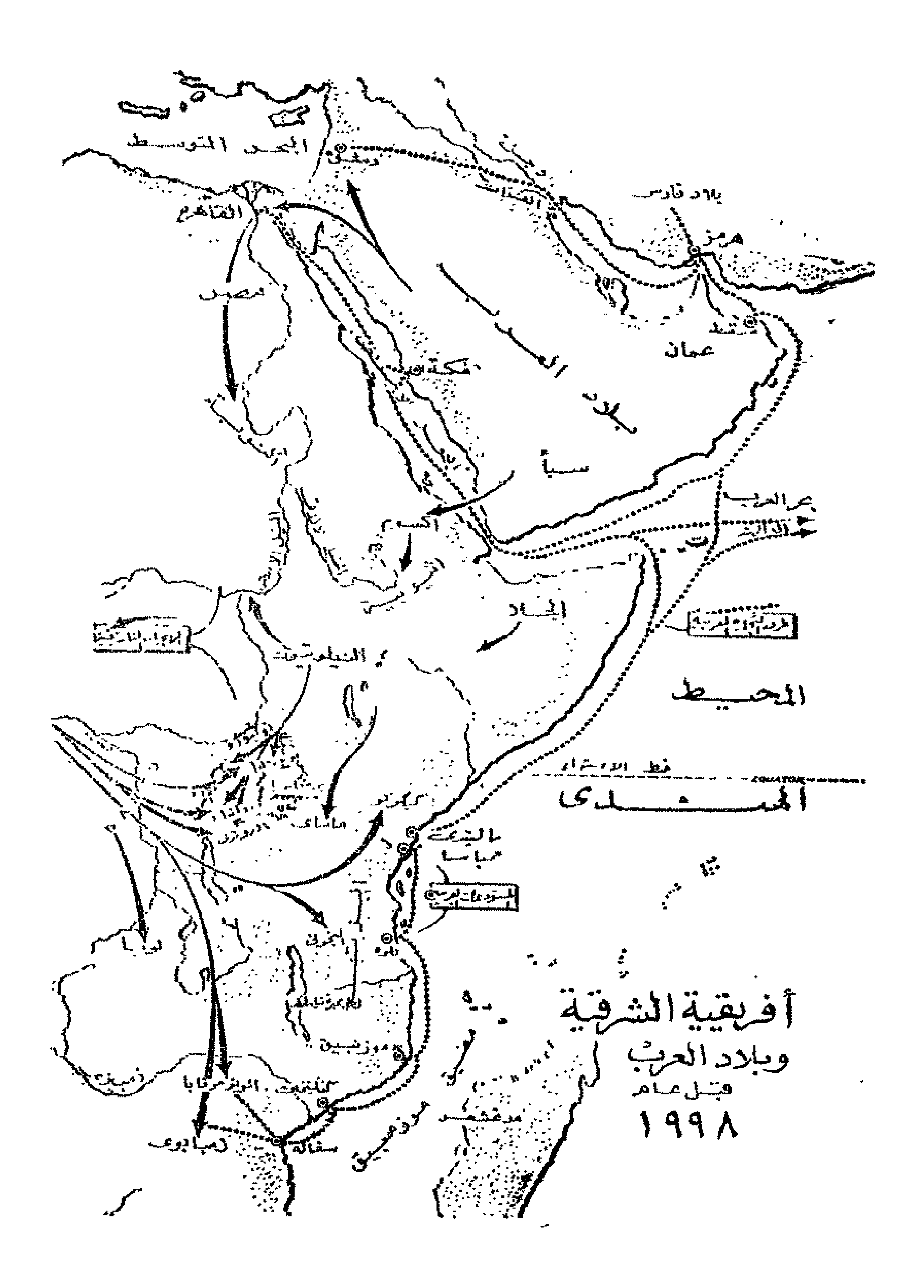
الباتوية والعربية ، ولكنها تكتب بحروف عربية ، وغلبت التجارة على المنطقة وغالباً ماحقق الحكام المسلمون والمنظمون الهنود الثراء، لكن ثقافتهم كانت مستعارة من فارس وعمان .

واستخدم معظم العبيد فى المزارع القائمة على ساحل أفريقية الشرقى بالرغم من وجود سوق منتظمة لهم فيما وراء البحار . وكان الخدم من الزنوج من المظاهر المألوفة فى بلاد العرب وفارس والهند حتى أن الصين اشترت عدداً قليلا منهم فى السنوات التى أعقبت ذلك العصر .

ومع ذلك نادراً ما استخدموا فى العمل الزراعى الواسع النطاق ، ولهذا كان الطلب الخارجى عليهم محدوداً دائماً . لسنا نجد اليوم الكثير من الزنوج فى هذه البلاد لأن تجار الرقيق من بلاد الزنج لم يصدروا سوى الخصيان من الذكور ، وهذا بطبيعة الحال منع إغراق البلاد بهم، وساعد على استئناس العبيد والخدم . وكانت للزنوج سوق مضمونة تزودها بالعبيد الذين يحلون محل من ينتهى أمره منهم .

وبحلول القرن الخامس عشر كانت السفن تأتى من وقت لآخر إلى مدن الزنج من كانتون ، ولكن أحداً من الصينيين لم يقم هناك بصفة دائمة. وواصل العرب السيطرة على السياسة وجباية الرسوم الجمركية ولكن سمح للأجانب بالتحكم فى التجارة ذاتها : الهنود والصينيون فى البحر ، والبانتو فى داخل أفريقية الشرقية . وكانت المدن ذات السيادة مثل كلوة أو ممباسا تفرض الجزية من وقت لآخر ، أو تبعث الاضطراب فى التجارة ، أو تمارس النفوذ العسكرى فى الموانى الأخرى ، ولكن ظلت كل محلة مستقلة من حيث الجوهر .

والحق كانت كل مدينة من مدن الزنج مختلفة عن غيرها . فالميندى وممباسا



البحر المتوسط
دمشق
بلاد فارس
هرمز
القاهرة
مصر
مسقط
عمان
بلاد العرب
سبأ
المحيط
الهندى
ممباسا
موزمبيق
سفالة
أفريقية الشرقية
وبلاد العرب
قبل عام
١٩٩٨

على ساحل كينيا كانتا دولتين لهما أهميتهما من ناحية المزارع القائمة فيهما، وتحكمت ممباسا كذلك فى تصدير العبيد فى تلك المنطقة . كذلك تخصصت كلوة القائمة على الساحل الجنوبى لتنجانيقا الحديثة فى العبيد . وكانت تجارة زمبابوى فى الذهب تمر عن طريق سفالة الواقعة عند مصب نهر زمبيزى . ولما كانت تجارة مدينة موزمبيق مع الداخل صغيرة جداً لهذا اعتمد رخاؤها أصلا على تحكمها الاستراتيجى فى مضيق موزمبيق ، وعلى عدد من المزارع التى أنشئت فيها . كانت حظوظ كل دولة لا تعتمد على الإنجازات الزراعية والعسكرية فحسب، وإنما تعتمد أيضاً على هجرات البانتو إلى الداخل ، تلك الهجرات التى لم يكن فى الإمكان التنبؤ بها .

فإذا انتقل الزنوج بعيداً أو تشددوا فى المساومة تضاءلت تجارة الرقيق والمزارع . إن تفوق العرب التجارى والسياسى والذى دعمه تدفق العمال البانتو ومنتجات المناجم من الداخل كان متأصلا فى الساحل الأفريقى الشرقى عندما حل القرن الخامس عشر . وفى ذلك الوقت حمل فاسكو دا جاما العلم البرتغالى شمالا من رأس الرجاء الصالح ، واقتصر أمر الأوربيين على أن استولوا على نظام الزنج المستقر الدعائم وتولوا إدارته .

إمبراطوريات ساحل أفريقية الشرقية

فى نهاية القرن الخامس عشر كانت كلوة تبسط سلطانها على المدن العربية الجنوبية، بينما سيطرت ممباسا على المدن الشمالية. وعندما شق أسطول ڤاسكو دا جاما المتجه إلى الهند طريقه بحذاء ساحل أفريقية الشرق فى مارس سنة ١٤٩٨ كانت موزمبيق أول ميناء اكتشفه فى بلاد الزنج. ظن العرب فى مبدأ الأمر أن الأسطول يمثل جماعة من التجار المسلمين الجدد، واعتقد البرتغاليون أنهم اكتشفوا مملكة مسيحية لعلها مملكة بريستر جون.

وسرعان ماتبددت الأوهام، فهاجم ڤاسكو دا جاما المدن وخدعها واحدة تلو الأخرى، حتى بالرغم من أن بعضها أبدى نحوه الود؛ واكتفى البعض الآخر باتخاذ موقف الحذر. ليس واضحاً ما إذا كان موقفه ناشئاً عن حماسة دينية أو عن خوف من قوة العرب أو مجرد نزعة إلى الفساد؛ وكانت ماليندى هى الوحيدة بين جميع مدن الزنج التى استطاعت فيما بعد أن تنسى موقفه وتعتبر نفسها صديقاً للبرتغال.

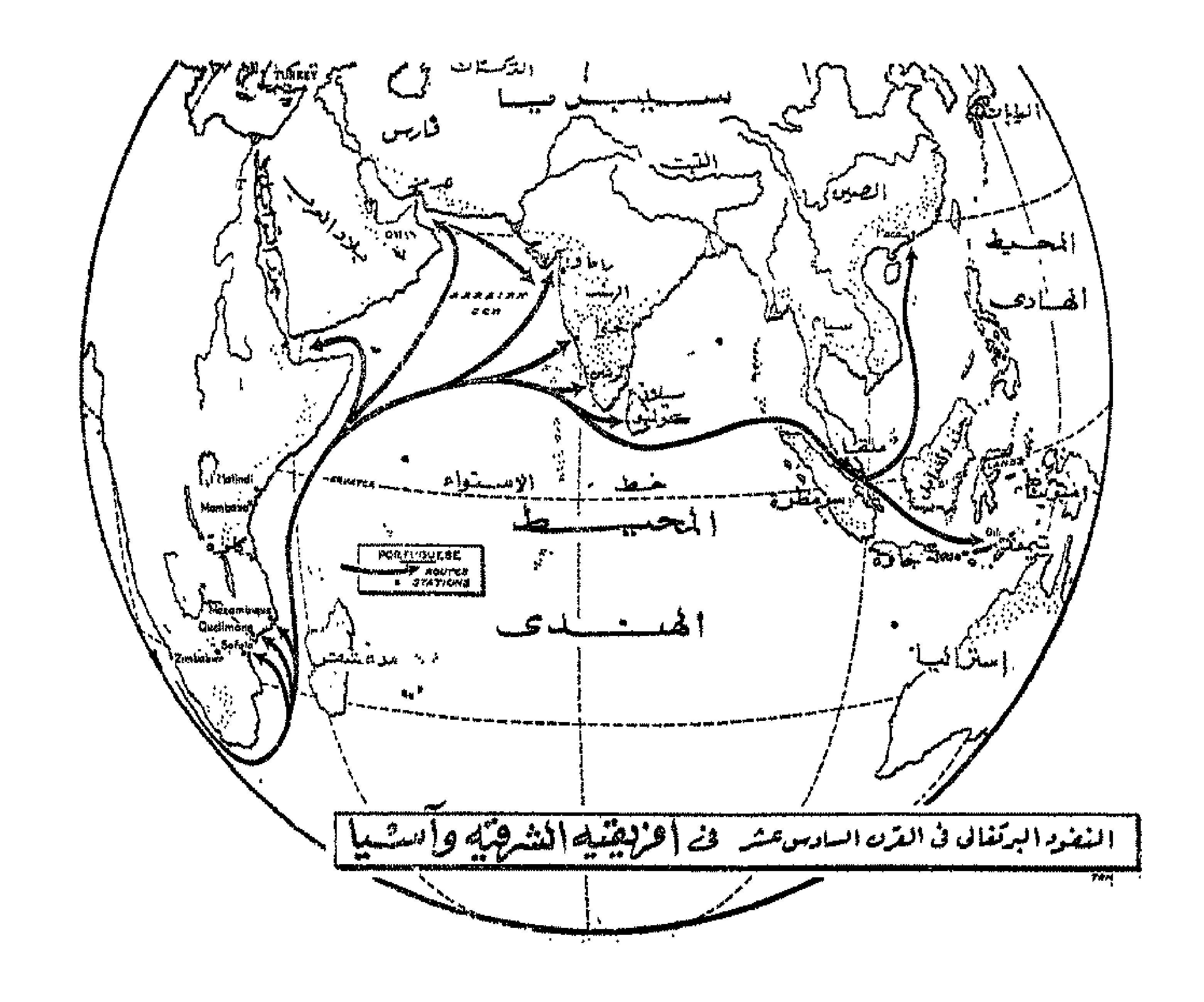
كانت الهند وجزر الهند الشرقية الهدف الرئيسى. ففى ١٥٠٩ — ١٥١٠ أخضعت حملة عسكرية برتغالية بقيادة الفونسو البوكيرك وبصورة منظمة جميع المستودعات التابعة للعرب والهنود وأبناء الملايو، وتحكمت فى طرق التجارة المتفرعة منها. وأصبحت موزمبيق فى أفريقية وهرمز فى فارس وملقا على

مضايق الملايو وجوا فى شبه القارة الهندية أحجار الزاوية فى الإمبراطورية ـ وأدارت البرتغال طرق التجارة بين القارات بسفنها ، ورخصت للسفن الهندية والعربية بخدمة التجارة الفرعية على طول السواحل الأفريقية والآسيوية . ولم تملك البرتغال من القوة البشرية ما يمكنها من الحكم ومزاولة التجارة فى كل مكان ، ولذلك نظمت الموانى الثانوية فى البلاد عن طريق جباية الجزية بصورة متقطعة ، ومن وقت لآخر استقبلت الزوار . غير أن المناجم لم تغل أبداً من الثروة القدر الذى كان يريد التجار ، بل كان النجاح الذى حققته البعثات الدينية أقل إذ لم يكن فى مستطاع البرتغال توفير عدد من القساوسة بحيث يؤثر فى نفس المونوموتابا الذى يستطيع أن يقدر حقيقة القوة .

ونادراً ما كان يسمح للأوربيات بالتوجه إلى المستعمرات ولهذا توقف استمرار الحكم الأوربى على التزاوج مع الوطنيين ، وانتقلت التجارة البرتغالية بالتدريج إلى أيدى المولدين المخلصين خلال القرن السادس عشر .

وظل التجار الهنود يعرفون باسم « البنيان » كما كان الحال فى أوائل العصر العربى ؛ ولكن الهنود الذين اعتنقوا المسيحية والمولدين كانوا يعرفون باسم « الجويين » Goans إذ كانوا فى العادة من جوا وهى مقر إمبراطورية البرتغال الاستعمارية على ساحل ملبار بالهند .

كان التوغل فى الداخل عملية كثيرة التكاليف دائماً فى الرجال والمال ـ فبالرغم من المعاهدات التى عقدها كايادو لم يكن فى مقدور المونوموتابا السيطرة على قبائل البانتو الخاضعة لنفوذه . ولكى يتسنى الاحتفاظ بقبضة البرتغال على الداخل الذى يبشر بالخير ، شجعت المغامرين الجويين من

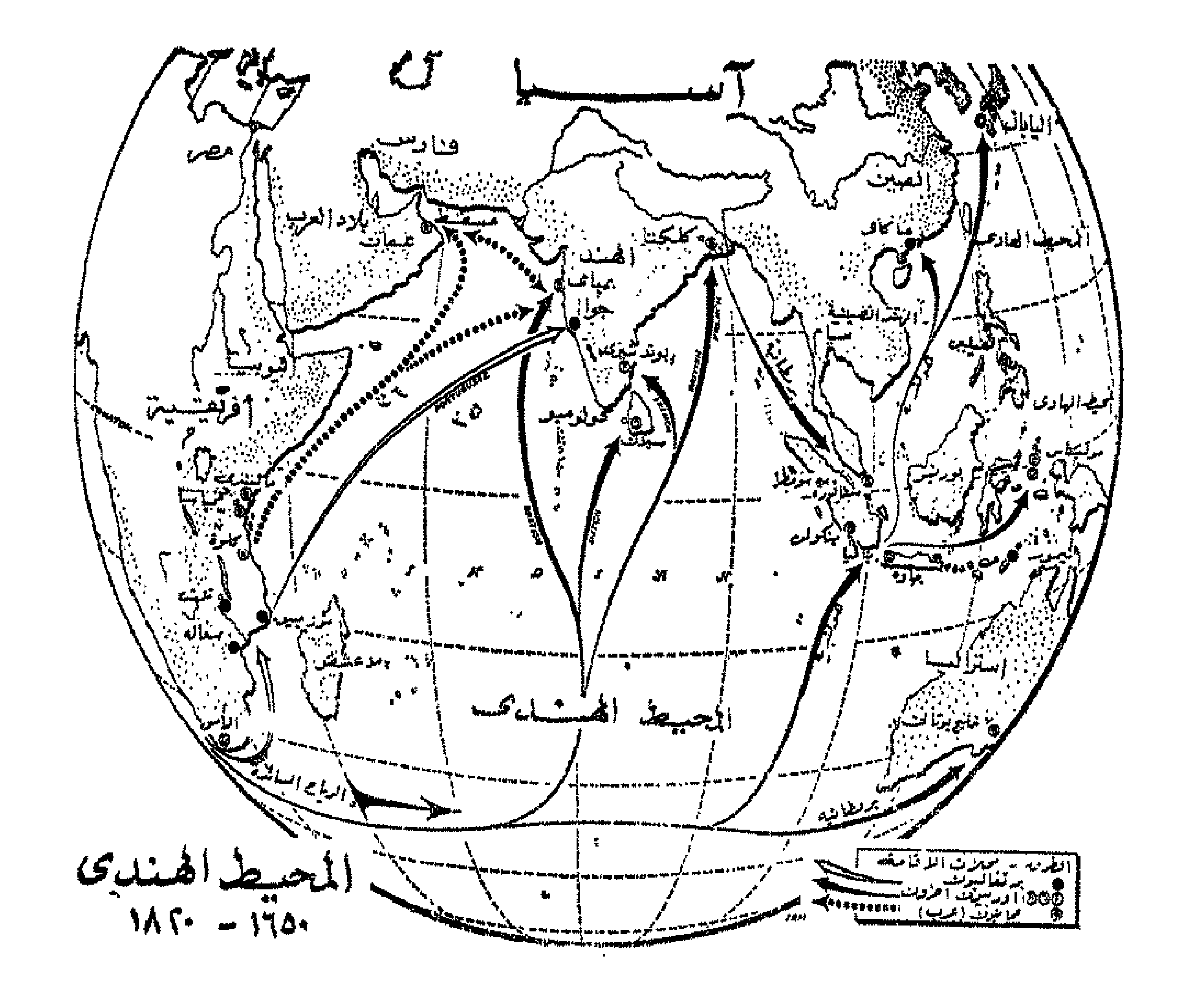


النفوذ البرتغالي في القرن السادس عشر في افريقية الشرقية وآسيا

أبنائها على الإقامة على جوانب المجارى العليا من نهر زمبيزى ، ومنحت إلى هؤلاء البرازيرو Prazeros المزارع الشاسعة على النحو الذى نجح فى البرازيل. ولكى يتمكن الأخيرون من الاحتفاظ بهذه المنح واستغلالها سمح لهم بجلب العبيد لأداء العمل ولتكوين جيوش خاصة ، وسرعان ما زالت الثقافة البرتغالية ومعها الدم الأبيض والطاعة للتاج . ولكن البرازيرو افتخورين فى عنف بامتيازاتهم الإقطاعية وجنسيتهم الأوربية ، واصلوا السيطرة على ضياعهم الكبيرة شبه المسلحة ، والتى تعيش فى حالة اكتفاء ذاتى عن طريق استخدام العبيد .

لم تكن أفريقية أبداً فى نظر المشروعات البرتغالية فى مثل أهمية جوا أو جزر التوابل ، وذلك باستثناء تجارة ذهب المونوماتابا عن طريق سفالة . وأصبحت جوا المستودع الرئيسى والطريق المؤدى إلى ثروة الشرق ، وجرى احتلال شرق أفريقية بقصد حماية طرق الملاحة بين الهند والبلد الأم ، ولمنع الدول الأخرى من تهديد الاحتكار البرتغالى بالحصول على موطىء قدم فى تجارة البلاد .

ولم تكن لدى البرتغال من المصلحة أو القوة البشرية ما يمكنها من احتلال جميع بلاد الزنج احتلالا فعــالا . ولم يحل دون بعث قوة العرب الاقتصادية أو السياسية المنافسة فى الأنحاء البعيدة نحو الشمال على الساحل ، سوى قوة الأسلحة البرتغالية . وتملك ممباسا وماليندى وكلوة برئاسة حكامها العرب التقليديين من الجزيات المفروضة عليها ، ومن القيود الخانقة التى قضت على ثرائها السابق .



المحيط الهندى
١٦٥٠ - ١٨٢٠

وفى عام ١٥٨٠ ورث فيليب ملك إسبانيا عرش البرتغال،ففقدت الأخيرة على الفور عميلها الرئيسى أى الهولنديين الذين حاولوا طيلة ثمانى سنوات إبعاد فيليب عن عرشهم . وبدلاً من الاتجار مع البرتغال أو تقديم الرجال للمغامرات البرتغالية بدأت الأقاليم الهولندية الآن تبعث بأساطيلها إلى الهند . كان فيليب أكثر اهتماماً بالفضة الأمريكية ، وبإخماد ثورة هولندة ، وبإعداد الأرمادا ضد إنجلترا منه بمشكلات البرتغال الاستعمارية .

وضاعت جزر شرقية لها قيمتها الواحدة تلو الأخرى ، وسقطت المحطات فى الهند أو تجاوزتها السفن ، وتحول الأمراء والتجار الذين درجوا على الاتجار مع البرتغال إلى القادمين الجدد . وحتى إذا تجنبت السفن البرتغالية المراكب الحربية الهولندية فإنها لم تعد تجد سوى القليل من العلاقات التجارية القديمة . وتخلصت المدن العربية بنجاح من القيود على التجارة ومن التزامها بأداء الجزية مما سبق أن فرضته البرتغال عليها .

وفى جميع أرجاء أوربا اكتسبت أفريقية الشرقية سمعة بأنها فقيرة وغير صحية ، ولم يعتبر الهولنديون أن تجارتها أو جزيتها شيء يستأهل الاهتمام . وفضلا عن هذا اكتشف الملاحون الهولنديون رياحاً سائدة جديدة أقوى وأوفر أمناً من التى تهب على طول الساحل الأفريقى الشرقى . وإذ اتجهوا شرقاً من رأس الرجاء الصالح تجنبوا الرياح الموسمية المتقلبة والمناطق الضحلة فى مضيق موزمبيق .

لم يكن من السهل دائماً تقدير الرحلة إلى الشرق عبر المحيط الفسيح إذ ظلت معرفة خطوط الطول مسألة تعتمد دائماً على الحدس الذكى إلى أن استخدم

السكرونومتر فى القرن الثامن عشر — ولكن الملاح الماهر كان يستطيع فى العادة أن يجد طريقه إلى الهند أو جاوة ، وكل منهما معناها ربح مؤكد (أخطأ بعض الملاحين الهولنديين تقدير المسافة فاكتشفوا أستراليا ونيوزيلندا قبل أن يجدوا الطريق المؤدى إلى جزر التوابل) . وكذلك تجنبت الساحل الأفريقى الشرقى بريطانيا وفرنسا اللتان خلفتا الهولنديين فى تجارة الهند .

وفى الوقت الذى بدأ فيه تدهور البرتغال كانت ممالك المونوموتابا تمزقها المنازعات ، فقبائل نجونى وجماعات السوثو شقت طريقها بنجاح عبر مناطق التعدين وهى تتجه جنوباً فى عامى ١٥٩٠ — ١٦٣٠ ، وحررت قبائل كثيرة من دفع الجزية إلى شعب المونوموتابا وحطمت التجارة الداخلية وتدخلت البرتغال باستخدام الجنود من أهل جواءواعترفت بأحد الأتباع المتمردين حاكماً جديداً على بلاد المونوموتابا ، بل ونجحت فى حمل خليفته على اعتناق المسيحية . كان الموقف شديد التعقيد والزعيم المسيحى—وهو ألعوبة فى يد البرتغال—بالغ الضعف ، وموارد البرتغال محدودة أكثر مما ينبغى ، ولم يكن فى الإمكان إعادة الرخاء والاستقرار إلى سابق عهدها ، وحتى قبل أن يخف الاضطراب فى العقد الثالث من القرن السابع عشر عاد العرب إلى تأكيد وجودهم . وفى سنة ١٦٩٣ خضع إقليم المونوموتابا تماماً للبانتو من جماعة روزوى الذين تقدموا من منطقة بحيرة تنجانيقا ، وكان اهتمام أوربا ونشاطها فى مناجم الذهب والمدن المشيدة بالحجارة قد انتهيا الآن .

وفى عام ١٦٢٢ بدأت عمان الواقعة فى بلاد العرب تساعد المسلمين من أهل

أفريقية الشرقية على طرد البرتغاليين،ولم ينتصف القرن حتى كان معظم الساحل عربياً بشكل واضح ، ولم يستطع البرتغاليون إلا الاحتفاظ بنقطة أو اثنتين لسنوات قلائل وذلك عن طريق تركيز قوتهم ، وعادت مدن الزنج إلى الظهور من جديد كمستودعات لتجارة الرقيق والزراعة العربيتين . وبفضل ما أظهرته عمان من مقدرة فى قتال البرتغاليين تمكنت من حمل بلاد الزنج على الاعتراف بالولاء الفعال لها أكثر مما كان عليه الأمر قبل عام ١٤٩٨ . حاولت البرتغال استرداد المدن الواقعة إلى شمال موزمبيق ولكن توازن القوة بين العمانيين والبرتغاليين تحقق فى النهاية فى رأس دلجادو الواقع بين موزمبيق وكلوة ، وفى اتجاه الجنوب أمكن حماية المصالح البرتغالية بفضل وجود البرازيرو وتجارة الرقيق التى ازدهرت بعد عام ١٦٤٥ ، ووضع حد من الناحية العملية لقوة عمان . ولم تتدخل الدول الأخرى فى شئونها لأنها لم تهتم بالأمر بالرغم من أن البريطانيين كانوا يقدمون لها بعض التأييد غير المباشر بحكم التحالف بين لشبونة ولندن ، ومعاهدة الزواج المعقودة فى عام ١٦٦١ . وفى شمال رأس دلجادو كان العمانيون الحماة الذين لقوا الترحيب فى المدن الساحلية العربية ، وبحلول عام ١٧٤٠ كان الإمام قد دعم ممتلكاته العربية بحيث أصبح قادراً على توجيه اهتمامه إلى الزنج .

كانت الهند أعظم عميل يُطمأن إليه بالنسبة إلى العبيد الذين تحصل عليهم عمان من شرق إفريقيا ، فقد كان فى وسع دول الأمراء أن تدفع فيهم أثماناً تربو على ماقد تدفعه فارس أو بلاد العرب . وكان قماش الهند وأدواتها المنزلية تباع بأثمان عالية فى بلاد الزنج ، ولذلك كانت عمان الوسيط فى تجارة أهملتها الدول الأوربية منذ انحطاط شـأن البرتغال ، طالما نشب العراك بين الأوربيين

حول الهند ظل مركز العمانيين آمناً ، إلا أن بريطانيا أخرجت الفرنسيين فى عامى ١٧٦٣ ، ١٧٩٩ ، وهزم تيبو صاحب آخر أمير موالٍ للفرنسيين ، وأصبحت بريطانيا الآن تتحكم فى طرق التجارة بين الهند وعمان ، ولكنها لم تحتل دول الأمراء ، ولذلك لم يطبق القانون الذى أصدره البرلمان فى ١٨٠٧ بتحريم تجارة الرقيق على أسواق عمان . واستمر العرب يتحدون الحظر البريطانى ، ولكن وزارة الخارجية عمدت إلى الضغط الدبلوماسى على سعيد الإمام الحاكم فى ذلك الوقت ، فوافق بمقتضى معاهدة مورسباى فى عام ١٨٢٢ على قصر الاتجار فى الرقيق على إمبراطوريته فى بلاد العرب وشرق إفريقية ، وعلى السماح للبحرية البريطانية بمراقبة شواطئها ، واستمر قدر بالغ من التهريب ولكن موانى الزنج بدأت تفقد بعض رخائها السابق .

وثارت ممباسا ، أقوى هذه المدن ، ضد السلطان وطلبت من الكابتن وليم أوين من رجال البحرية الملكية إعلان الحماية عليها . لقد اعتقد العرب أن فى الامكان إحياء تجارة الهند إذا ضمت ممباسا إلى الإمبراطورية ، غير أن الوزارة البريطانية كانت مصرة على الابتعاد عن شرق إفريقية كما سبق لها أن خرجت من ساحل الذهب .

وبعد أن ظلت ممباسا محمية تابعة لأوين لمـــدة عامين أعيدت رسمياً إلى السلطان سعيد فى عام ١٨٢٦ .

لكن أبت ممباسا النظر فى العودة إلى الإمبراطورية العمانية الآخذة فى الانحلال ، ولم يحل عام ١٨٣٥ حتى تمكن الإمام سعيد من إخضاع المدينة التى تحدته ، وهو لم ينجح فى هذا بفضل القوة العسكرية وإنما نجح باستخدام

الرشوة والحيلة والخداع . ففى أثناء الحصار الذى دام تسعة أعوام أقام قواعد أمامية فى زنجبار ، تلك الجزيرة الخضراء ذات المناخ البارد نوعاً فى بلاد الزنج . وبعد انتهاء القتال عاد إلى عاصمته فى مسقط ببلاد العرب . كانت مسقط حارة وجافة ، وبدت زنجبار أكثر أمناً وأدعى إلى البهجة من الميناء الصحراوى ، كما كانت مكاناً أنسب يستطيع عن طريقه استغلال شرق إفريقية ولذلك نقل السلطان العمانى عاصمته من مسقط إلى زنجبار فى عام ١٨٤٠ .

كان سعيد قد وصل إلى الحكم عن طريق قتل منافسيه فى عام ١٨٠٦ ، ثم تمكن بعد ذلك من الاحتفاظ بسلطانه وتوسيع نطاقه بطريق الدسائس التى لا تنتهى ، ولكنه حرص دائماً على التقرب إلى الدبلوماسيين الأوربيين الذين يشغلون مركزاً طيباً ، ولم يكن يستخدم جيوشه إلا كحل أخير بعد أن تحقق كل سبل المخادعة والمحاباة . كان الإمام مقتصداً فى نفقاته كما خلا من مظاهر الأبهة بالرغم من الزيادة السريعة فى الثروة الملكية ، واعتقد زوار سعيد أنه رجل كريم ونبيل على نزاهة حقيقية وإخلاص يتصف بإنكار الذات .

وبعد أن نقل سعيد عاصمته إلى زنجبار بوقت قصير بدأ فى تنفيذ برنامج واسع النطاق للتنمية فى ممتلكاته بشرق إفريقية، فاتسع نطاق زراعة الكاكاو وأشجار زيت النخيل ، وغرست فى زنجبار أشجار القرنفل التى جىء بها من إندونيسيا . وإذ تقدم تنفيذ المشروعات عظم الطلب على العبيد فاستغلت إلى أقصى حد الطرق القديمة التى كان يستخدمها تجار الرقيق ، وفتحت مسالك جديدة إلى الداخل،وسارت القوافل المسلحة فى مواعيد منتظمة إلى بحيرتى نياسا وتنجانيقا . وإذا استثنينا بعض المراكز الحربية والتجارية التى أقيمت على امتداد

طريق القوافل فلم تعمر أرض جديدة ولم ترغم قبائل جديدة من البانتو على الخضوع لحكم الزنج .

كان الكثيرون من البانتو يؤسرون بنصب الكمائن لهم أو بطريق الخداع ، أو بشن الهجوم المباشر ، وكان غيرهم يشترون من القبائل المتحالفة مع التجار ، وغالباً ما كان المال يدفع إلى قبيلة لحثها على مهاجمة جارة لها .

لقد ظل العرب قريبين من الساحل طيلة ألف عام حتى سنة ١٨٤٠ ، وخلال ثمانية عشر عاماً تقدمت قوافلهم ومراكزهم وعملاؤهم حتى وصلوا إلى أعالى الكونغو فى منتصف الطريق عبر أفريقية . وحمل تجار الزنج اللغة السواحلية إلى الداخل وجعلوا منها لغة مشتركة فى شرق أفريقية ووسطها ، ولكنهم ولدوا سلسلة لم يسبق لها مثيل من الحروب القبلية الوحشية ، فتحطمت الزراعة المستقرة واستعبدت قرى بأسرها من البانتو ، أو ذبح أهلها وتناقص عدد السكان بسرعة ووجد الأوربيون الذين احتلوا إفريقية الشرقية فيما بعد أن بعض المناطق كانت ما تزال تسودها الفوضى فى القرن العشرين .

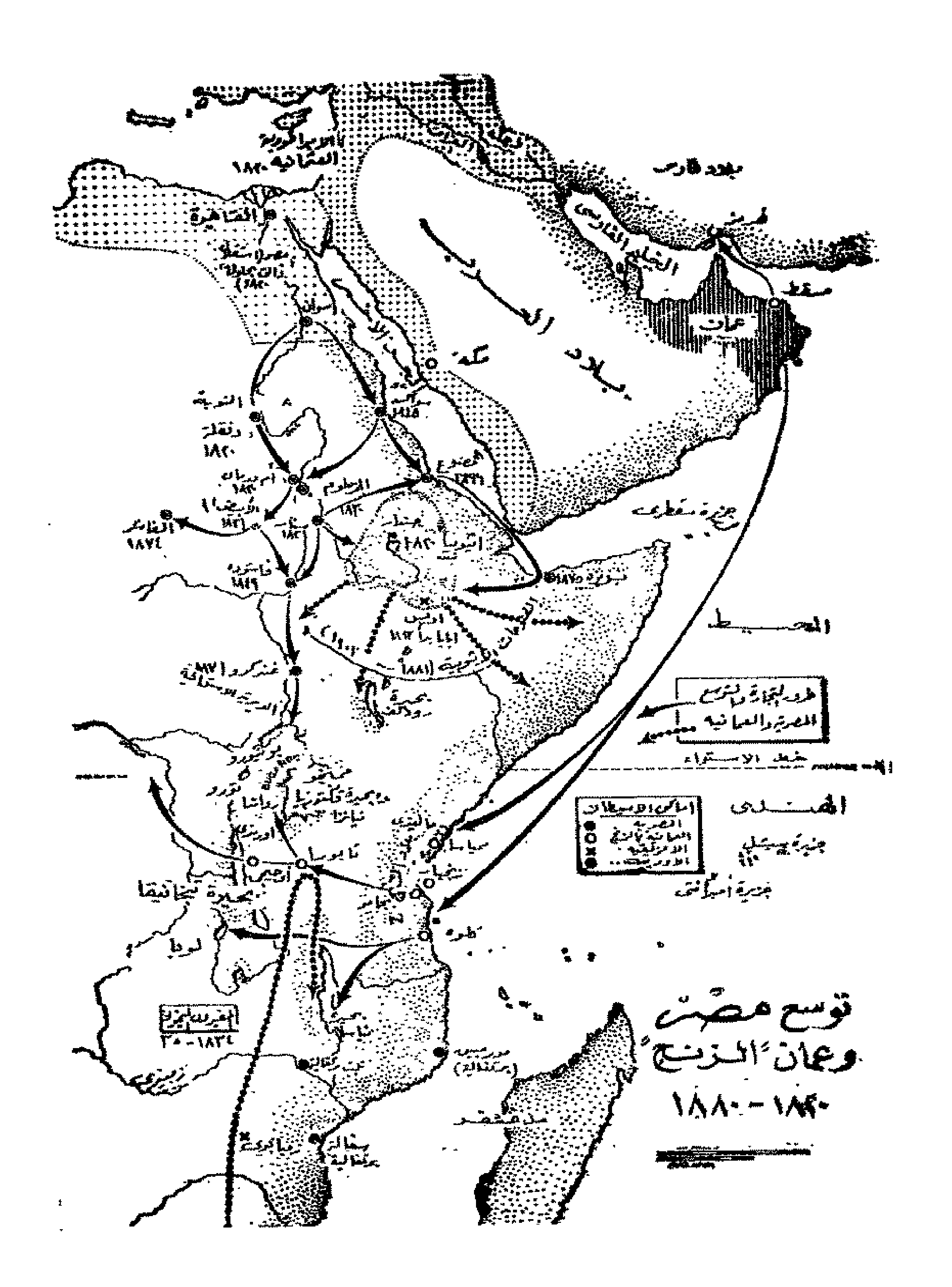
ونجحت زنجبار فى ظل حكم السلطان سعيد المطلق فى بسط سلطانها على الساحل من موزمبيق إلى الصومال ، فضلا عن عمان وبعض المواني فى بلاد فارس وبلوخستان . وشاع الاضطراب فى جزء كبير من الأقاليم الداخلية فى إفريقية ، واستطاعت زنجبار بفضل الاستغلال المنظم للمزارع أن تحتكر الإنتاج العالمي من القرنفل ، وزاد حجم تجارتها عشر مرات فى مدى عشرين عاماً .

وحرمت معاهدة هامرتون فى عام ١٨٤٧ تصدير العبيد من إفريقية وبذلك

فقدت عمان مورد العمل لمزارعها ، ولكن ظل يسمح لسفن العبيد بالسير بجوار ساحل الزنج ، وعجزت الداوريات البريطانية فى أعالى البحار عن التفرقة بين تجار الرقيق المسموح لهم بمزاولة تجارتهم على امتداد الساحل ، وبين أولئك الذين يقومون بتهريب العبيد بطريقة غير قانونية . وبعد عام ١٨٦١ لم يكن مفروضاً أن تحمل السفن العبيد ولكن قباطنة الزوارق العمانية سرعان ما تعلموا كيف يبعثون الشك فى نفوس البريطانيين بالإصرار على أن شحناتهم من الزنوج لا تتكون من عبيد وإنما من رجال يقومون بإدارة المجاديف .

ومات سعيد فى عام ١٨٥٦ ، وبعد سنوات خمس ثارت عمان إذ غضبت للخسارة التى عانتها فى العبيد ، ولأنها هبطت إلى مركز ضئيل ثانوى فى إمبراطورية الزنج . وأيدتها بريطانيا فى المطالبة بالاستقلال مؤملة بذلك إضعاف الحافز على خرق المعاهدات التى تحرم الرق — واضطر مجيد سلطان زنجبار الجديد إلى قبول التقسيم . أصبحت إمامة عمان منصباً منفصلا عن سلطان الزنج ، غير أن تجارة الرق لم تمت ولذلك بعثت بريطانيا فى عام ١٨٧٣ بالسير بارتل فرير Frere لإجراء المفاوضات بشأن عقد اتفاق لتحرير العبيد . أغلقت سوق الرقيق ولكن لم يعقبه التحرير إلا فى عام ١٨٩٧ فى زنجبار نفسها ، وفى عام ١٩٠٧ فى كينيا ، وفى عام ١٩١٩ فى تنجانيقا .

وخلال توسع تجارة الرقيق فى عهد السلطان سعيد وصلت بعض فروع طرق القوافل شمالا إلى الحدود الجنوبية لبوجندة والحافة الشرقية لرواندا — أوروندى ، وفى نفس الوقت كانت سلسلة أخرى من تجار الرقيق تقترب من حدود بوجندة الشمالية آتية من قواعد لها فى مصر .



توسع مصر
وعمان الزنج
١٨٤٠-١٨٨٠
بلاد العرب
بلاد فارس
الخليج الفارسي
مسقط
عمان
مكة
القاهرة
جزيرة سقطرى
المحيط
الهندي
خط الاستواء
بحيرة تنجانيقا
جزيرة سيشل

ظلت مصر قروناً خاضعة اسمياً لسيادة الأتراك العثمانيين فى الآستانة ،. وكان العبيد منذ الأزمنة القديمة ينقلون بطريق النيل . وأدى الفتح الإسلامى لمصر إلى عزل سلسلة من الممالك المسيحية القائمة فى حوض النيل الأوسط . استمر الرق قائماً ولكن التجارة كانت قليلة .

وفيما بين القرنين الحادى عشر والخامس عشر حدث تسرب إلى هذه الممالك انتهى باعتناقها الإسلام ، وخلال الفوضى كانت الدول القائمة فى حوض النيل أضعف من أن تشن غارات كبرى من أجل الحصول على العبيد .

وبدأت مصر غزواً منظماً لأعالى النيل فى عام ١٨٢٠ ، ذلك أن محمد على — وهو قائد عثمانى أثار هياج كل أوربا بسبب معاملته للمسيحيين اليونانيين — أصبح «خديوى» على مصر فجعل منها دولة ذات سيادة مستقلة عن الإمبراطورية العثمانية[١]. وجاء التوسع بالجد كما أدى إلى بعث الحياة فى تجارة الرقيق ، وسدت بريطانيا الطريق البحرى فى وجه هذه التجارة ، ولكن محمد على أنشأ طريقاً تجارياً فى الداخل يمكن أن يعتمد عليها ، وقبل وفاته كان قد تم تخطى أثيوبيا وعزلها ، ووصل المصريون إلى الحافة الشمالية ليوجندة الاستوائية أو إلى مسافة بعيدة فى اتجاه الجنوب ، كانت قوافل زنجبار القائمة بأسر العبيد تثير أعظم الذعر .

عند هذه النقطة بدأ اهتمام أوربا يشتد ، وراحت التقارير الواضحة الواردة

---

(١) كان محمد على والياً على مصر أما لقب خديوى فلم يبدأ استخدامه إلا فى عهد إسماعيل . كذلك من الخطأ القول بأن محمد على جعل مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، طبقاً للفرمان الصادر فى عام ١٨٤١ ظلت ولاية تعترف بسيادة الدولة العثمانية ، وإن حصلت بفضله على بعض مظاهر الاستقلال الداخلى (المترجم) .

من الداخل تبين الطابع غير المستحب لعمليات الاسترقاق ، ووضح أن الدوريات البحرية لم تحد من المساوىء بشكل فعال .

وعندما فتحت قناة السويس فى عام ١٨٦٩ تدخل الأوربيون فى شئون مصر إذ كان هنالك طريق جديد وقصير إلى بلاد الزنج ، وسرعان ما أبدت بريطانيا وفرنسا وألمانيا اهتماماً نشيطاً بالمناطق الداخلية شرق أفريقية .

غزو جنوب أفريقية

بعد أن اجتاح المغيرون من جماعات السوتو والنجونى أراضى الونوموتابا، وحطموا موزمبيق البرتغالية فيما بين عامى ١٥٩٠ ، ١٦٢٠ ، عبروا نهر ليمبوبو إلى جنوب أفريقية ، وسرعان ما تشقت الخوسيون المتفرقون وذوو التنظيم الضعيف ، والذين كانوا السكان الوحيدين فى البلاد منذ عصور ما قبل التاريخ ، وقتل البوشمن أو فروا إلى صحراء كلهارى غربى السهل المرتفع المغطى بالحشائش ، وتحرك الكثيرون من الهوتنتوت جنوب رأس الرجاء الصالح وامتزج غيرهم بالغزاة البانتو .

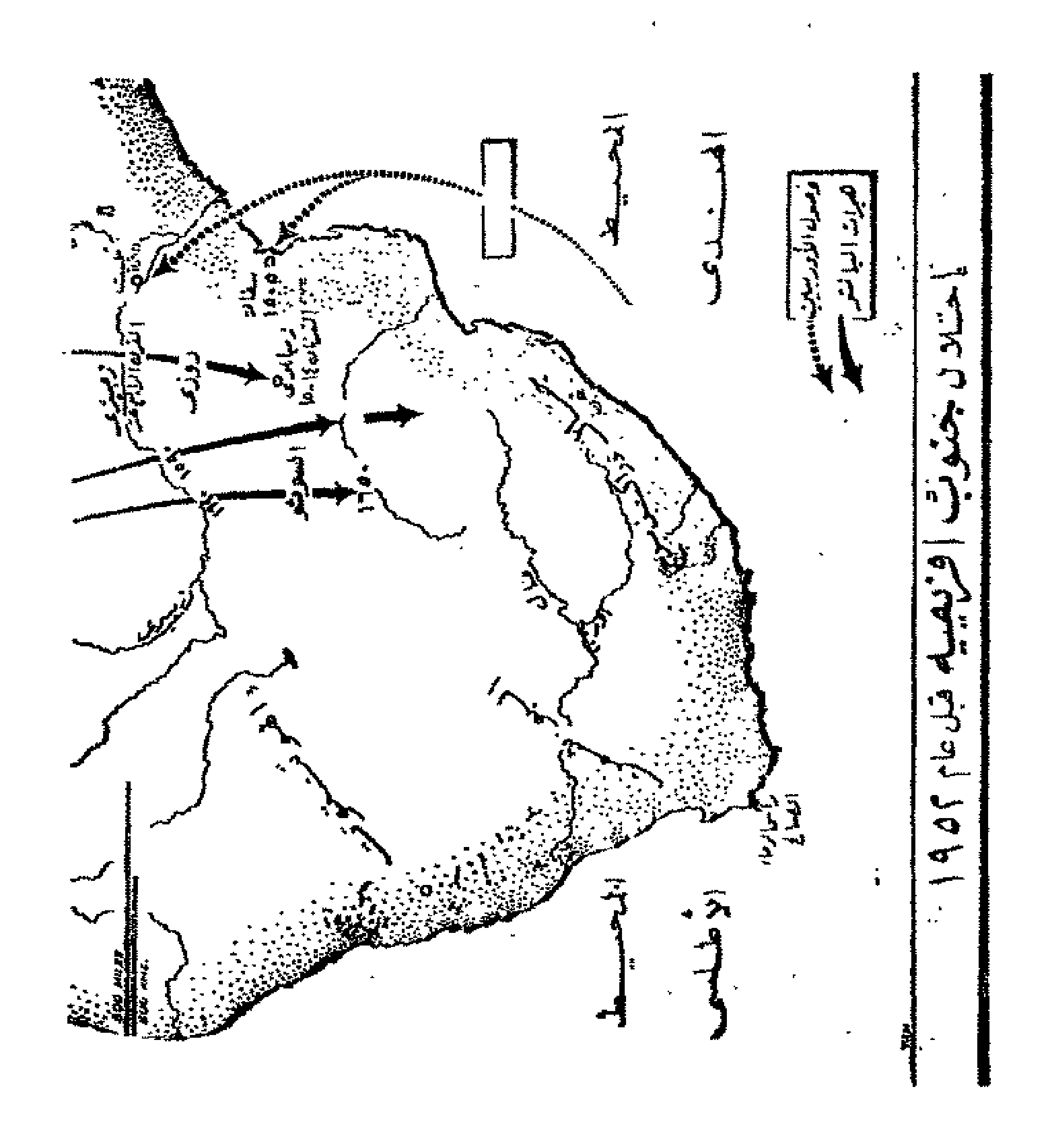
واستولى النجونى ــ وهم أول الغزاة وأشدهم وحشية ــ على الأراضى الساحلية شبه الاستوائية فى ناتال الحديثة ، وبعد أن عبروا جبال دراكنزبرج من ترنسفال افترقوا مجموعات أربعاً لاحتلال البلد الجديد ، فأقام السوازى فى الشمال الشرقى ، واستوطن الزولو والبوندو والأكسوسا على امتداد الساحل فى اتجاه رأس الرجاء ، وعندما وصلوا إلى نهر كى Kei حوالى عام ١٧٠٠ كانوا قد تشبعوا مؤقتاً بحافزهم على الغزو .

وبقى السوتو فى الداخل بين جبال دراكنزبرج وصحراء كلهارى ، ووصل الفرع الجنوبى منهم خلال القرن السابع عشر إلى ولاية أورنج الحرة الحديثة ، وظل السوتو الشماليون فى الترنسفال .

وبحلول القرن السابع عشر كان الخوسيون قد أخرجوا من معظم أفريقية باستثناء صحراء كلهارى وأفريقية الجنوبية الغربية الحديثة ومقاطعة الرأس . وعاش البوشمن على الصيد ، بينما كان الهوتنتوت متفوقين فى تربية الماشية ، وكانت الأراضى التى ظلوا محتفظين بها ملائمة تماماً للحرف التى يزاولونها .

وكان البرتغاليون المتجهون إلى الهند يتوقفون عادة فى مكانين وهم فى طريقهم بين أوربا والشرق فى القرن السادس عشر ، وذلك فى البرازيل ، أو أفريقيا الغربية وفى موزمبيق . ولم يكن رأس الرجاء الصالح مكاناً مناسباً للتوقف فيه ، وفضلت السفن الهولندية والإنجليزية التى حلت محل البرتغالية الطريق المفتوح والمتجه شرقا من الرأس ،ولذا تعين عليها أن تجد موضعاً جديداً فتتزود منه بالمؤونة بفصل الرحلتين الطويلتين عبر المحيط الأطلسى والهندى . واحتلت شركة الهند الشرقية الهولندية جزيرة سنت هيلانة فيما بين عامى ١٦١٧ و ١٦٤٥ ، بينما توقفت السفن الإنجليزية فى المحطة الهولندية ،أو توقفت وحدها فى جنوب أفريقية سعياً وراء الماء واللحم وربما لتدريب بحارتها .

غير أن سنت هيلانة لم تكن مكاناً يدعو إلى الرضا إذ كانت تقع فى منطقة نفوذ شركة الهند الغربية الهولندية وكان مفروضاً فى رجال الشركة الأخرى أن يتجنبوها . وكانت الجزيرة من الصغر بحيث لاتوفر كل المطلوب منها ، وغالباً ما كانت بعيدة عن الطريق بالنسبة إلى سفينة تحاول أن تجد أفضل الرياح التى تساعدها . وحدث أن غرقت سفينة على مقربة من الرأس ، ونجح ملاحوها فى قضاء شتاء عام ١٦٤٧ — ٤٨ فى جنوب أفريقية ، فقرر مديرو شركة الهند الشرقية الهولندية أن ينقلوا محطتهم إلى البر .



احتلال جنوب افريقيه قبل عام ١٩٥٢
المحيط الأطلسى
المحيط الهندى
وصول الأوربيين
هجرات البانتو
الهوتنتوت
السوتو
١٦٥٠
سفالة
١٥٠٥
روزى
رأس الرجاء الصالح

وفى ٦ أبريل ١٦٥٢ وصلت إلى تيبل باى Table Bay ثلاث سفن تحمل المستعمرين والمؤن ، وفى اليوم التالى أنشأ الحاكم جان فان ريبك Jan van Riebeeck مدينة الرأس ، وبدأ يعد الخطط لغرس الحدائق وتربية قطعان الماشية والقيام بقدر يسير من التبشير . لم تكن محطة رأس الرجاء الصالح تعتبر مركزاً للاستعمار أو قاعدة لغزو البرية وإنما اعتبرت مجرد محطة للخدمة ملحقة بمشروع التنمية الواسع النطاق الذى يتركز على جزر الهند الشرقية .

كان الوطن الهولندى مجرد اتحاد تعاهدى من ولايات ذات سيادة ، سبق قبل ذلك بأربع سنوات أن نالت أخيراً استقلالها عن إسبانيا . وكان مجلس طبقات الأمة فى الأراضى الواطئة المتحدة ضعيفاً وليس فى وسعه اتخاذ أى عمل دون الموافقة الإجماعية من جانب المقاطعات الأعضاء ، إلا أنها جميعاً وافقت على منح الشركة امتيازاً فى عام ١٦٠٢ يجعل منها ممثلا لها ذا سيادة فى تجارة الهند الشرقية وفى شئون الدبلوماسية والحرب ، وربما ظل الاتحاد الهولندى طيلة ٢٠٠ عام دون شركة الهند الشرقية الهولندية قوة والتى كان يدير شئونها من أستردام «السبعة عشر مديراً» أو السادة الكبار الذين يمثلون جميع الأقاليم التجارية الكبرى . وأصبحت باتافيا فى جزيرة جاوة مركز العمليات فى الشرق ، وأقيمت المحطات التجارية فى اليابان والهند والملايو وفورموزا وسيام ، كما أنشئت المزارع الكبيرة فى إندونيسيا وسيلان ، ومن باتافيا أيضاً تدار شئون مدينة الرأس التى تخدم السفن التى تربط هذه المراكز بأوربا .

ومنذ بدء عصر الكشوف لم يكتشف الأوربيون قوماً فى غرابة البوشمن وأحقيتهم بالرثاء . كانوا يبدون عاجزين عن فهم أى تنظيم اجتماعى أكبر من

الأسرة، ولم يقشبعوا بأفكار الأوروبيين الدينية أو التجارية ، وسرعان ما شكل البوشمن والهوتنتوت مشكلة كبرى . بدأت الحرب فى ظرف أربعة أيام ولم تحرز أى من المحاولات الضعيفة من أجل تنصير الخوسيين تقدماً ، ونشأ التوتر منذ البداية بينهم وبين الأوروبيين الذين بدا تاريخهم والأسباب التى جاءت بهم إلى جنوب أفريقية أموراً غير مفهومة . وبالرغم من أن فان ريبيك كان تواقاً إلى الحصول على الماشية فان الهوتنتوت لم يتجروا معه إلا بصورة غير منتظمة، ولم يكن فى الوسع الاعتماد عليهم إلا بعد انقضاء أجيال عدة من الاجتماع والاختلاط العنصرى تنشأ خلالها علاقة دائمة بينهم وبين المجتمع الهولندى .

وتعين على الشركة أن تقوم بتربية حاجتها من الماشية لتزويد السفن المارة فى طريقها إلى الهند . ولم تنجح المحاصيل كما كان مأمولا ؛ وكان الجنود والفلاحون الذين جىء بهم على أساس التعاقد لفترات معينة من فقراء الفلاحين . وحاولت الشركة أن تستغل أراضيها فى زراعة المنتجات الأوربية ولكنها لم تناسب مناخ منطقة الرأس . ولتصحيح الموقف جىء بالمستعمرين الأحرار فى عام ١٦٥٧ ، كما جىء بالعبيد وهم الزنوج من ساحل الذهب والملاويون من باتافيا .

وبرغم أن الشركة أرادت الإبقاء على المستعمرة الصغيرة متماسكة بدأ الفلاحون الأحرار (ويقال لهم « البوير » فى اللغة الهولندية) يتحركون فى اتجاه الداخل سعياً وراء أراض أفضل لأغراض الزراعة والرعى . وخشيت الشركة من أن تؤدى مثل هذه الهجرة إلى رفع تكاليف إدارة المستعمرة

وحرمانها من عنصر الكفاية ، وجعلها عاجزة عن الدفاع عن نفسها ، ولم يأبه المهاجرون بالتنظيمات الرسمية placaats لأنهم فضلوا إشباع حاجياتهم على أداء الرسوم والضرائب العالية التى تتقاضاها الشركة . ومهما يكن من أمر ظلت مدينة الرأس السوق الأساسية لمنتجاتهم .

كانت الهجرة أسهل وأرخص من التنمية الرأسمالية ، فكان نقل المحاصيل البستانية من الداخل كثير التكاليف ، ولكن كان فى الإمكان سوق الماشية مسافات طويلة إلى أسواق الميناء حيث تباع فى العادة بأثمان مجزية ، وبذلك كانت الهجرة عملا مربحاً إذ يمكن إنشاء مزارع تربية الماشية عند الحدود بدون الحاجة إلى رأس مال كثير ، وكان فى الإمكان تجنب حكم الشركة العنيف ، وسرعان ما أصبح التوسع وراء الحدود هو التقليد السائد .

بل إن نسبة كبيرة من المستوطنين أخفقت فى فهم الغرض من المستعمرة . كانوا راغبين بطبيعة الحال فى الاتجار حيث يتوافر الطلب على منتجاتهم ، ولكن لم يشعروا بالتزام يقضى عليهم بالبقاء داخل اختصاص الشركة الفعال، وكانت أغلبيتهم قد وفدت من الأقاليم الداخلية فى الأراضى الواطئة ، وتعود الكثيرون منهم على أن يكونوا أقلية بروتستانتية فى المناطق الريفية الجنوبية التى تغلب عليها الكاثوليكية ، وقليل منهم من كان يفهم أو يعنى بالعمليات التجارية المركبة التى تزاولها الشركة . وكانوا معتادين على الاعتماد على النفس وعلى سلطان أقليتهم بدلا من القيود التى يفرضها رجال الإدارة الرسميون ، وعلى الحياة بعيداً عن المتاجرة أو التجارة ، ووقع بعضهم الاتفاقات الخاصة بهجرته عن طريق الإغراء أو الخداع وظن الكثيرون أنهم وقعوا على اتفاقات بشأن

توجههم إلى جزر الهند بقصد الإثراء السريع ، ولذا استاءوا عند إنزالهم فى رأس الرجاء الصالح حيث تعين عليهم الاعتماد على منظمة تجارية احتكارية من أجل أية عملية يقومون بها ، وبهذا بدت الهجرة أفضل علاج لخيبة الآمال التى أحسوا بها .

وتحالفت طبيعة حياتهم السابقة مع الضرورات التى تفرضها حياة الفلاح المهاجر فخلقت شعباً متميزاً . كانت الحياة عند الحدود تتطلب الاعتماد على النفس ، وليست شديدة التعقيد ،فابتدع البوير لأنفسهم نظاماً مستقلاً تماماً عن جهاز الشركة . فى هذا النظام كان الأب يرأس الأسرة التقليدية ، ويختار موظفى الجهة أو الحاكم المدنى أو قائد « الفدائيين » من الجيران والذين يمكن أن تدعوهم أية أسرة ، كما كان يختار الأمناء ومنهم ستة يعاونون الحاكم المدنى فى إدارة شئون الجهة ، وبالتدريج تقبلت الشركة هذا النظام إذ كان يمتاز بالكفاية والوفر فى النفقات .

كانت جميع الأرض أينما توجه المهاجرون — تعتبر من الناحية الفنية ملكاً للشركة ، ويستطيع الفلاحون استئجارها لقاء حوالى عشرة دولارات فى السنة وتصبح الإجارة منحة دائمة ومعفاة من الإيجار بعد انقضاء خمس سنوات ، وجرت العادة بأن تأخذ الأسرة مساحة قدرها حوالى ٦٠٠٠ فدان (٩,٥ أميال مربعة) لأنها تستطيع أن توفر الغذاء لما تملكه من الماشية .

لم تكن مدينة الرأس سوى مركز أمامى فى مشروع ضخم ، وكانت الجهات الرسمية لا تشجع الهجرة ، ولهذا نادراً ما توافر رجال الدين والمعلمون واختلطت اللهجات الهولندية الريفية ، وتقبلت مؤثرات لها شأنها من البحارة المارين بالمنطقة

واستوعبوا كلمات كثيرة من الوطنيين الخوسيين والعبيد الملاويين ، وسرعان ما ظهرت لهجة خاصة بمدينة الرأس عرفت باسم تال Taal ولكن أخفقت القواعد النحوية وأساليب الهجاء التقليدية نتيجة عدم وجود المدرسين وانعدام الدافع المنبعث من ثقافة خارجية . وكان الدين يدور حول الأسرة ، فلكل أب إنجيل للأسرة مطبوع بالهولندية الأدبية ، ولكن بعد أن تغيرت اللهجة وتضاءلت المعرفة بالقراءة والكتابة أصبح من الصعب أن يطالعه . ونظراً لعدم وجود المفسرين المدربين فى الداخل أصبحت النظرة الشعبية إلى المذهب المسيحى بصورة متزايدة نظرة بسيطة وقائمة على اليقين . كان إيمان أهل الريف بأوربا فى القرن السابع عشر بسيطاً وخشناً ، ولكن عقيدة البوير كانت جامدة بصورة غير عادية حتى قبل مغادرتهم الأراضى الواطئة ، وبوصفهم أقلية فى ولاياتهم الأصلية كانوا منعزلين بشكل ملحوظ عن التيارات الفكرية الجديدة . كانوا من أتباع كلفن ولكنهم مالوا إلى تفسير الأقلية الخاص لهذا المذهب الدينى .

ويرجع جانب من هذا المذهب الفريد إلى الجدل الأرمينى الذى نشب فى الأراضى الواطئة فى أوائل القرن السابع عشر. كان كلفن مؤسس للمذهب المصلح قد حذر من الإفراط فى الثقة بخلاص المرء .

«لكن إذا وقع علينا الاختيار فى المسيح فسوف لانجد تأكيداً باختيارنا فى أنفسنا بل ولا فى الرب الأب . . . على من يظن أنه واقف أن يحذر خشية أن يسقط[1] ». وزعم جاكوب أرمينيوس بعد ذلك أن جميع المؤمنين سوف

(1) John Calvin : Institutes of the Christian Religion, 2 vols., Grand Rapids 1949, vol. II, pp 223,225

يشملهم الخلاص،وقرر المجمع الكنسي المنعقد في دوردت Dort والذى استنكر رأى الرجل في عام ١٦١٩ ، أن الخلاص لن يشمل إلا عدداً محدوداً جداً من المسيحيين ، وقال المجمع إن هذه الجماعة سوف تعرف أنها الشعب المختار . لم يعش المذهب الذى بشر به المجمع إلا أمداً قصيراً فى أوربا ، ولكنه أصبح مذهباً دائماً بين الفلاحين الذين هاجروا إلى مدينة الرأس بعد ذلك بسنوات قلائل . لذلك ساد الاعتقاد فى جنوب إفريقية بأن « المختارين » هم أولئك الذين استمسكوا بالديانة التقليدية والأسرة والإنجيل الهولندى ، وبطبيعة الحال كان هذا الاعتقاد يشمل جميع البوير بالفعل ، ولكنه استبعد البوشمن والهوتنتوت الذين صعب حملهم على اعتناق المسيحية .

وبما من سوء الحظ بوجه خاص فى فترة التكوين الباكرة أن حدثت الاتصالات إلى حد كبير مع البوشمن والهوتنتوت ، فالأولون مختلفون بشكل واضح والأخيرون تجار خاملون بحيث لم تكن هنالك سوى فرصة يسيرة للتبادل الثقافى ، ولم يكن ثمة سبب يدعو إلى تعديل الأفكار الدينية . كانت ماشية الهوتنتوت مصدراً هاماً لتزويد السكان باللحم ، ولكن غالباً ماتمين إجبار القبائل ، على الاشتغال بالتجارة وسرعان ما اعتقد البوير أن القدر قد حكم بأن يبقى الأوربيون منفصلين عن « الوطنيين » وأرقى منهم ، ومع ذلك لم تمنع هذه الاتجاهات الفلاحين مـــن استخدام منتجات الوطنيين والأيدى العاملة الوطنية .

وسرعان ماأصبحت أصول عنصرية عدة ممثلة فى مجتمع جنوب إفريقيا . كان العبيد الملاويون يقومون أصلاً بالخدمة المنزلية ، ونادراً ما كانوا يؤخذون بعيداً

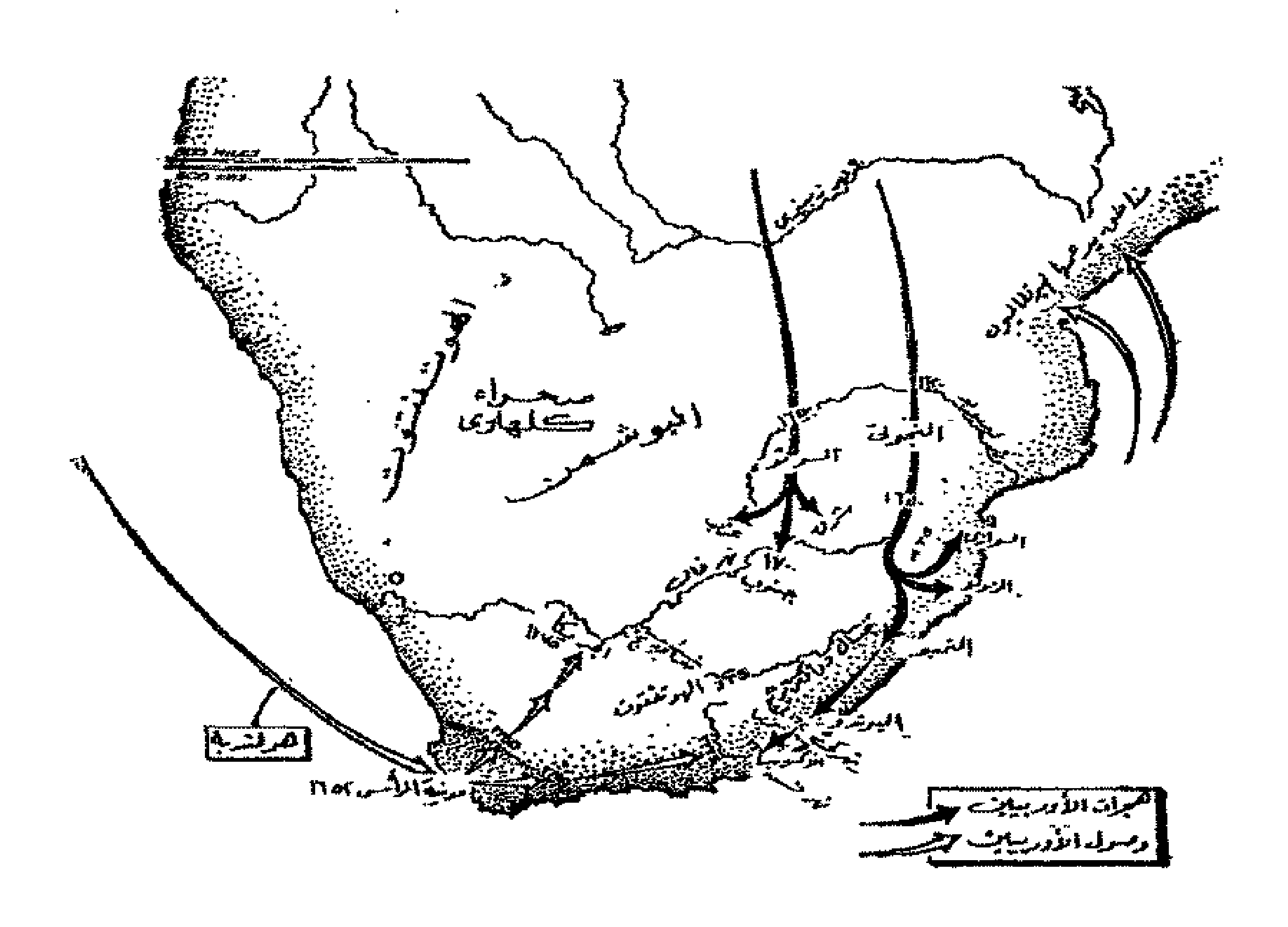
عن مدينة الرأس ، وواصلوا فى العادة ممارسة شعائر الإسلام ، وظل البوير دائماً متميزين عن جميع الجماعات الأخرى فى جنوب إفريقيا .

وبعد سنوات قليلة كاد عدد العبيد الزنوج أن يعادل عدد الأوربيين وكلهم ممن استوردوا من ساحل الذهب وموزمبيق . ونقل عدد كبير منهم إلى الحدود ، ولكن معظم ملاك العبيد كانوا يملكون من رأس المال ما يكفيهم للبقاء على مقربة من مدينة الرأس . وبالرغم من أن البوشمن والهوتنتوت كانوا أكثر العناصر أجنبية إلا أنهم كانو لا يزالون قوماً أحراراً ، وكان الاتصال الجنسى SEXUAL مع الأوربيين كثير الحدوث بسبب عدد قلة النساء الأوربيات بالنسبة إلى الرجال ، ولم يكن ثمة ما يشين فى انتهاك حرمة قوم زعم الأوربيون أنهم من جنس منحط ، وبذلك ظهرت جماعة كبيرة من المولدين كان يطلق على أفرادها فى مبدأ الأمر اسم « أبناء الحرام » ثم عرفوا فيما بعد باسم الجريكا أو اللونين ، وكانوا فى العادة يشكلون طبقة من العمال الأحرار فى الرأس ، ولكن الكثيرين منهم هاجروا فيما بعد إلى الحدود ليقيموا حكوماتهم شبه القبلية .

وفى عام ١٦٨٥ ألغى لويس الرابع عشر ملك فرنسا مرسوم نانت الذى ظل يحمى البروتستانت طيلة سبعة وثمانين عاماً . وإذ تعرض الهيجونوت الآن للاضطهاد فى بلادهم ، هاجر ألوف منهم إلى الرأس عن طريق هولنده . لقد جاءوا بحثاً عن الحرية فى ممارسة مذهبهم الكلفنى وللاقامة بصفة دائمة . لم ترغب شركة الهند الشرقية الهولندية فى استئجارهم ، ولكن البوير رحبوا بهذه الزيادة فى عدد السكان الأحرار . وزادت الحماسة الدينية ، وساعدت حدة التظلم

السياسية عند الهيجونوت على تقويض سلطان الشركة عند الحدود ، ودعموا إحساس البوير بأنهم شعب فريد ، ذلك الإحساس الذى كان قد بدأ يتكون فيهم . كان الهيجونوت قد قطعوا صلاتهم بوطنهم الأصلى ، وخلال جيل اتحدت الجماعات بحكم الشعور بتماثل الأغراض ضد غير البيض والشركة والعالم ، واتخذ الكثيرون من البوير أسماء هيجونوتية وسرعان ماساد الجميع شعور بأنهم مواطنون من أهل جنوب إفريقية بدلا من أن تكون جنسيتهم هولندية أو فرنسية .

وإذ هاجر البوير نحو الشرق متفرقين فى ربوع الداخل شرق مدينة الرأس تحولت الشركة نحو الموظفين الألمان للابقاء على التموين والتجارة فى المدينة . مثل هؤلاء البروتستانت من إقليم الراين جاءوا إلى المستعمرة بالموسيقى والفن والرقة ، ولكن نظراً لعدم شعورهم بالولاء للأراضى الواطئة أسهموا أيضاً فى نمو جنسية جنوب إفريقية . وظل رجال مناطق الحدود مضطرين إلى أن يسوقوا ماشيتهم إلى مدينة الرأس حيث يمكنهم الحصول على ما يلزمهم من الذخيرة والبن والملابس وغير ذلك من المواد ، ولم يفعل التجار الألمان الذين تعامل معهم البوير شيئاً لمقاومة أفكار البوير الانعزالية أو إحساسهم بالانفصال عن الأراضى الواطئة . كانت مثل هذه التجارة سبيل الاتصال الوحيد بالعالم الخارجى ، فيما عدا الاحتفال الدينى الذى يقام فى أقرب كنيسة عشية عيد الميلاد . وكان هذا هو الحفل الاجتماعى الوحيد ، وغالباً ما كان الاتصال الوحيد بالدين المنظم أثناء السنة ، وكان لابد من إجراء عمليات التعميد والزواج والعشاء الربانى فى ذلك الوقت ، ولهذا لم يتح لتأثير الأفكار الوافدة من العالم الخارجى الفرصة كى يتغلغل فى أعماق النفوس .



احتلال جنوب إفريقية ١٦٥٢ - ١٧٧٥

وبعد أن زاد الهيجونوت من أعــــداد البور ودعموا أفــكارهم، انتشر سكان منطقة الحدود إلى ما وراء الجبال الساحلية . لم يكن فى الإمــكان نقل المنتجات الزراعية لمسافة تزيد على سبعين أو ثمانين ميلاً، ولــكن كان فى الإمكان تسويق الماشية مع تحقيق ربح ، ولهذا سعى المهاجرون فى القرن الثامن عشر إلى اقتناء مساحات كبيرة لإنشاء المزارع لتربية الماشية . فنى عام ١٧٥٠ كان جميع الأوربيين لا يبعدون سوى خمسة وخمسين ميلاً عن مدينة الرأس ، وبانتصاف القرن ابتعدوا إلى مسافة ٢٢٥ ميلاً ، وبحلول عام ١٧٧٥ كان عدد قليل منهم قد انتشر على طول نهر فش Fish ، أى إلى مسافة ٥٠٠ ميل تقريباً نحو الشرق . وكان جزء كبير من أحدث الأراضى التى حازوها وهى هضبة كارو الداخلية ، من الجفاف بحيث لا تصلح لغير الرعى . ولم يكن من الأمور المجزية سوق الماشية إلى سوق المدينة من هذه المراكز البعيدة ، ولذلك لم ينتقل الحد ثانية خلال نصف القرن التالى .

وكان أصحاب الأراضى فى هضبة كارو الشاسعة يعانون مشــكلات خاصة بالأيدى العاملة لم تــكن معروفة فى الأقاليم الأقرب إلى مدينة الرأس. كان العبيد أصلح لأعمال الزراعة ولــكن لم يكن فى الإمــكان الاعتماد عليهم بالدرجة الكافية لرعاية الماشية وهى ترعى فى أمثال هذه المناطق الفسيحة عند الحدود ، ومع هذا توافر العمال من ذوى الدراية بتربية الماشية من صفوف الهوتنتوت الذين أخذ نظامهم القبلى فى التداعى عندما أخذت الأرض منهم،وزاد اعتماد سكان منطقة الحدود من البور على هذا المصدر الذى يزودهم بالعمال المدربين المستكينين ، وأصبح الهوتنتوت يعتمدون من الناحية الاقتصادية على الأوربيين .

وعلى الجدود كانت أزمة فى تاريخ أفريقية توشك أن تقع ، إذ أصبح البلد الداخلى وساحل ناتال ومنطقة الرأس الشرقية موطن الزنوج البانتو ذوى النظام الطيب ، والذين سبق أن دخلوا جنوب أفريقية فى أوائل القرن السابع عشر . ونظراً لتفوق تنظيمهم دفعوا الخوسيين من البوشمن والهوتنتوت أمامهم صوب الرأس حيث نزل البوير فيما بعد . وكانت قبائل البانتو تملك قدرات تكنولوجية جعلت منهم فلاحين ومحاربين أعظم كفاءة من الشعب الخوسى ، وزاد عددهم بسرعة ، ولذلك تقدم حد أرضهم بالتدريج حتى اقترب من حدود أرض البوير فى أثناء القرن الثامن عشر .

كان الصيادون الهولنديون الذين توغلوا بعيداً فى الداخل قد التقوا بالزنوج لأول مرة فى عام ١٧٠٢ ولكن الاتصال بين موجتى الغزو — البانتو من روديسيا والبوير من مدينة الرأس — لم يتم حتى عام ١٧٧٥ حين تقابلت قبيلة الأكسوسا مع المهاجرين البيض عند نهر فش . كان كل من الطرفين قد حل فى جنوب أفريقيا منذ أكثر من قرن وكلاهما من « مواطنى » البلد ويملك الماشية بوصفها قاعدة اقتصاده ، وإذ تقدم الاثنان راحا يطاردان الخوسيين . كان اللقاء بالغ الخطر والأهمية إذ أدى إلى الصراع بين طرفين قويين كل منهما يدفع حدوده إلى الأمام . إن التاريخ الذى يعقب هذا اللقاء تسيطر عليه الطريقة التى واجه بها كل من الجانبين الموقف وتخطى حدود الآخر .

البوير والبانتو والبريطانيون

كان حتماً أن يقع الصدام بعد أن التقى البوير القوقازيون ، والاكسوسا الزنوج عند نهر فش فى عام ١٧٧٥ . كان كلاهما يشتغل بتربية الماشية ولكن اتجاهاتهما وعاداتهما كانت متباينة ومتأصلة فى أعماق نفوسهما ، وكل منهما كان يريد التوسع على حساب الأراضى التى ترعى فيها ماشية الآخر . كان البوير يسعون إلى دعم مراعيهم وتوسيع نطاقها حتى يتسنى لهم إشباع المطالب الآخذة فى الازدياد من جانب سوق مدينة الرأس ، وكان البانتو يضغطون من أجل الحصول على أرض جديدة تتسع لأعدادهم التى تسير فى طريق الازدياد ، ولم يكن فى وسع أى من الطرفين أن يدفع حده إلى الأمام دون أن يعتدى على حدود الآخر .

والزنوج الذين بدأوا يتاجرون فى الماشية مع الفلاحين البوير سرعان ما عملوا على زيادة موارد مدينة الرأس من اللحم ، وبدأ فريق آخر من البوير يتحرك فى الداخل إلى هضبة كارو ، حتى وإن كانت الأرض أشد فقراً .

كان البانتو أوفر عدداً ولهم تقاليدهم التى تأخذ بمبدأ الملكية الجماعية لكل شىء عدا الأدوات الشخصية ، أما البوير — وكانوا يملكون أسلحة أرقى تعوض النقص فى عددهم — فواصلوا الإبقاء على التقليد الأوربى الخاص بحقوق

الملكية الفردية . هاتان النظريتان المتباينتان عن ملكية الماشية لم يكن يفصل بينهما سوى نهر فش،ولم يكن فى الإمكان تجنب المصادمات . وكانت للماشية قيمة اجتماعية عظيمة عند الأكسوسا إلى جانب قيمتها الاقتصادية ، إذ كانت الثروة تقاس بعدد رءوس الماشية بحيث كان ينتظر من العريس الذى يعتزم الزواج أن يبين مركزه الاجتماعى وحسن نيته بأن يودع بعضها لدى أسرة العروس،وهذه العادة —ويقال لها لوبولا Lobola — كانت نوعاً من القرض أو التأمين وليست ثمناً لشراء الزوجة ، كما ظن أحياناً البوير ورجال الإرساليات الدينية الذين جاءوا فيما بعد .

وكان البوير فى العادة يسمون ماشيتهم بالنار لإثبات الملكية الفردية ثم يطلقونها للرعى فى المرج الذى لا تحيط به الأسيجة ، غير أن الأكسوسا ، كانوا يحتفظون بقطعانهم فى قرى Corrals أو تحت إشرافهم عند ما تخرج للرعى، وكانوا يعتبرون الماشية التى لا يرعاها أحد ملكية عامة إلى أن يأسرها أحد ويكبح جماحها . وعندما طبق الأكسوسا هذا المبدأ على ماشية البوير التى كانت تسرح على طول نهر فش اتهموا بالسرقة . وإذ زادت حدة الاستيطان على جانبى النهر ، واشتدت دعاوى كل من البوير والأكسوسا اتسع نطاق السرقة بسرعة إلى أن نظم البوير فرقاً تأديبية من « الفدائيين » بقيادة أدريان فان جارسفلد حاكم منطقة حدود الفلد ، وهذا العمل اعتبره الأكسوسا حرباً بطبيعة الحال . وكانت المناوشات التى ترتبت على ذلك فى سنة ١٧٧٩ أول « حروب الكفار » المتكررة التى كانت لعنة أصابت جنوب أفريقية مدى قرن من الزمان (كان لفظ Kaffir باللغة العربية معناه فى الأصل غير المؤمنين،ولكن ما لبث أن أطلقه المسيحيون على الزنوج وكذلك على المسلمين) . وأشاع زعيم

الكوماندو فان جازفلد الاضطراب فى صفوف فرق الأكسوسا باستخدام الحيلة واكتسب سمة البطل حين عاد إلى حدود البوير وهو يسوق أمامه ستة آلاف من الماشية التى استولى عليها .

ونظم الهولنديون الذين كانوا قد توغلوا بالداخل فى إقليم كارو، مستعمرتهم droadty فى جرافريفت Graff-Reinet فى عام ١٨٧٦ . ولم تهيئ شركة الهند الشرقية الهولندية أية حماية ضد السرقة من جانب الكفار، وبعد تسع سنوات قرر المستوطنون أن يتولوا الأمر بأنفسهم بإعلان استقلالهم ، وكان من المنطقى أن يصبح فان جازفلد بطل الحدود زعيمهم، ولبس الفلاحون شارات مثلثة الألوان شبيهة بما لبسته جيوش الثورة الفرنسية .

وأصبح المجلس heemraden جمعية وطنية ، وتحول الفدائيون إلى جيش وطنى راح يتعقب اللصوص من الكفار . إن نحو ١٤٠٠ من الأشخاص البالغين و ١٧٠٠ من الأطفال و ٦٠٠ عبد أنشأوا جمهورية تتحدث عن اليعقوبية والحرية والمساواة والإخاء ؛ ولكن هدفها كان مجرد استقلال الحدود ، أما التأثير الفرنسى فلم يتجاوز الشعارات وعدداً قليلاً من المظاهر السطحية. كانت جمهورية المهاجرين الأولى التى ولدت بقصد الدفاع عن النفس ثورة ضد السلطة . كانت مدينة الرأس ماتزال هولندية، ولكن البوير لم يشعروا بأى ولاء للوطن القديم.

وفى السنة ذاتها أى ١٧٩٥ تدخلت الثورة الفرنسية بالفعل وبصورة مباشرة فى شئون جنوب أفريقيا عندما احتل البريطانيون مدينة الرأس . كانت فرنسا قد غزت الأراضى الواطئة وطلبت شركة الهند الشرقية الهولندية من بريطانيا العظمى أن تحمى مستعمراتها من جيوش الثورة ، وحاولت قلة من المستوطنين

بالقرب من الرأس مقاومة البريطانيين، ولكن قوات الشركة ورجال الحدود لم تحذ حذوها .

جاءت بريطانيا لتستبق غزواً يقوم به الفرنسيون، وتوقعت أن تدير شئون المستعمرة الرأس بطريقة روتينية ومنظمة، بينما تطارد العدو فى البحر، وأسرعت جراف رنيت الفتية فاقترحت مبادلة ماشيتها بالأسلحة البريطانية بشرط أن تترك وشأنها عند الحدود، ولكن بريطانيا كانت تعتزم أن تضطلع بالإدارة بصورة كاملة متقنة . وبعد سلسلة من المناوشات فيما بين عامى ١٧٩٧ ، ١٧٩٩ قضى على جراف رنيت، وجبيت الضرائب منها وزج بزعمائها فى السجن .

ولأول مرة بدأ النشاط التبشيرى على نطاق واسع بين غير البيض عند الحدود . كان التنوير العلمانى والإحياء الدينى فى أوربا واللذان أديا إلى ظهور حركة النظامية methodism قد خلقا اهتماماً جديداً بحماية الأجناس الأجنبية فيما وراء البحار، وتحويلها إلى المسيحية ، وتصادف أن وصلت هذه الحركة التبشيرية إلى مستعمرة الرأس خلال احتلال بريطانيا لها .

إن الصلة بين الاثنين من قبيل التوافق الزمنى ، ولكن البوير اعتقدوا أن الفكرة اخترعت ، وشجعت عمداً بقصد إخضاع إقليم الحدود الثائر . وقررت الجمعية التبشيرية بلندن أن تجعل محطتها الرئيسية فى جراف رينيت ، وأن تركز جهودها على تحرير الهوتنتوت الذين كان البوير يعتمدون عليهم لتوفير الأيدى العاملة . وتولى أمر الإرسالية القس جوهانزفان دركب، وهو هولندى استخدمه المبشرون الإنجليز . كان رجلا متهاوناً من الناحية الأخلاقية — إذ سبق أن تحول إلى خدمة الكنيسة فى أوسط العمر ولكن لم تروض نفسه —

وكانت له أفكار عن نبل الهمج مستمدة من قراءة غير واقعية لمؤلفات روسو. وانتقد اتجاهات البوير إزاء الهوتنتوت والبانتو، وغالباً ما كانت التقارير الثارية التي يبعث بها إلى الجمعية فى إنجلترا تتضمن قصصاً مختلقة أو مبالغاً فيهـا عن أعمال القسوة التى ترتكب ضدهم. وسرعان ما كرهه البوير بسبب الأفكار الثورية التى يبثها فى عقول من يعتنقون المسيحية، وبسبب الأشياء التى كان يقولها ويكتبها، ولكن الجمعية استخدمت تقاريره لإثارة الرأى العام والتأثير فى سياسة الحكومة. وحاولت وزارة الخارجية فى العادة أن تتخذ موقفاً محايداً ولكن غالباً ما اضطرت إلى الاعتماد على المعلومات التى تصلها من إقليم الحدود متناقضة وغير منتظمة.

لم يفهم البريطانيون الأصل الخاص للعلاقات بين الأكسوسا والبوير عند الحدود وطبيعتها الفريدة. كانوا يتوقعون أن يقوموا بالإدارة خلف حدود ثابتة، ومصممين على تجنب تكلفة ومسئولية الإشراف على البانتو. ومن أجل تقوية يد السلطة عند الحدود قرر الحاكم تجنيد الهوتنتوت فى قوة البوليس. وكان الذين يقيمون منهم فى إرسالية فان دركمب صالحين بوجه خاص لهذا العمل، ولذلك سلحوا وألحقوا بالقوة.

اغتبطت اللجنة بهذا القرار، ولكن البوير احتجوا عليه بشدة، فإلى عهد قريب قبل ذلك كان الهوتنتوت خدماً تابعين لهم، ولذلك اعتبروا فكرة الخضوع لبوليس مسلح من غير البيض، أفراده من رجال الإرساليات التى تثير الاضطراب، فكرة مهينة.

أحدثت معاهدة أميان فى عام ١٨٠٣ فترة سكون فى الحروب النابوليونية

وأعيدت الرأس إلى الجمهورية البتافية،وهى حكومة هولندية مستقلة سياسياً عن فرنسا ، لكن لم يتغير الكثير ، فقد ذهبت شركة الهند الشرقية الهولندية ، وتشبعت الجمهورية بالكثير من حماسة الثورة الفرنسية وفلسفتها الليبرالية . وصمم الموظفون الجدد — وهم الممثلون المباشرون لحكومةأمستردام— على أن يضطلعوا بواجباتهم على الوجه الأكمل ، فأبقى على البوليس المكون من الهوتنتوت وزيد عدد أفراده ، وقدم التأييد إلى الإرساليات وجمعت الضرائب بانتظام . لم تكن الإدارة الإصلاحية التى تولتهابتافيا أكثر تقبلا لدى البوير من الإدارة البريطانية الغريبة عنهم . كان من الواضح وجود اختلاف بالغ القدر فى العادات والاتجاهات والأفكار بين جنوب أفريقية والأراضى الواطئة . إن إصلاحاً واحداً أدخلته بتافيا هو الذى ثبتت جذوره فى إقليم الحدود ، ذلك هو أنها أسندت إلى الحكام فى مستعمرات البلد دوراً شبيهاً بدور قضاة الصلح فى عهد النورمانديين مع منحهم سلطة فرض ضرائب وجبايتها وإقامة العدل على وجه السرعة ، وبصورة بدائية ، وقيادة الجماعة .

لم يقنع نابليون بالصلح فاستؤنفت الحرب فى أوربا وانهارت جمهورية بتافيا ، وعادت بريطانيا إلى مستعمرة الرأس فى عام ١٨٠٦ ، وفى هذه المرة لتبقى أكثر من قرن من الزمان .

وتأيد تملك بريطانيا الدائم للمستعمرة فى عام ١٨١٥ فى مؤتمر فينا ، ولكن الإدارة العسكرية استمرت حتى سنة ١٨٢٣ . كان البوير قد أصبحوا بطريقة أوتوماتيكية من رعايا المستعمرات البريطانية . ومنذ البداية كانت مصالح الحكومة متباينة عن مصالح رجال الحدود الذين لا يخضعون لإدارة مركزية . وواصلت الإرساليات إرسال التقارير عن الفظائع التى يرتكبها البوير ، ووجد

المحققون الإنجليز بعض حقائق تستند إليها الشكاوى ، ولكنهم أحسوا أيضاً أن رجال الإرساليات كانوا يشجعون الهوتنتوت على مضايقة البوير . كان البوير يعتبرون فى نظر أهل بريطانيا قوماً « خلوا من الروح الإنسانية » بينما بدا غير البيض القوم الأبرياء المضطهدين، وأصبحت أعداد متزايدة من الهوتنتوت من رجال البوليس المسلحين ، واعتبرهم البوير إهانة،وغضبوا لذلك لأنه يهدد المورد الذى يزودهم بالأيدى العاملة . وزادت حدة المشكلة بعد أن حرم البرلمان فى عام ١٨٠٧ تجارة الرقيق ، إذ جعل التحريم مناطق الحدود تعتمد اعتماداً كاملاً على العمال الهوتنتوت .

وفى عام ١٨٠٩ صدر مرسوم فى مستعمرة الرأس يعرف باسم « الماجنا كارتا للهوتنتوت » زاد من التوتر بسبب ما نص عليه من تحريم العقود الخاصة بتشغيل المدنيين كما ضمن حرية العمال . إلا أنه حاول منع التشرد بأن طالب الهوتنتوت بتسجيل أسمائهم وحمل جوازات للمرور .

وكان الزحف من جانب الهوتنتوت فى المستعمرة مشجعاً للاكسوسا الذين اشتد الضغط على مؤخرتهم بسبب توسع الزولو ، فزادت الغارات التى شنوها عبر نهر فش عدداً وجرأة . وطلب البوير عند الحدود السماح لهم بتنظيم فرق من الفدائيين فرفض البريطانيون الطلب ، وبدلا من الاستجابة إليه أمر البوير بالتجمع وراء خط من الحصون غربى نهر فش بقصـــد الحيلولة دون أى اتصال بالكفار .

وكان لقانون الأراضى الصادر فى عام ١٨١٢ تأثير عميق على التوطن فى منطقة الحدود ، لأنه حاول إضفاء طابع الشرعية على هذا الحظر المفروض حتى

الاتصال بين الفريقين ، فألغى معظم قانون الأراضى الهولندى القديم ، كان المفروض أن النظام الجديد الذى يؤدى إلى زيادة سلطان بريطانيا المباشر نظام زراعى ، فيمنع وجود الماشية وبذلك لايجد الأكسوسا ما يغريهم بشن الغارات على الحدود .

وطبقاً لهذا القانون لايحصل المستوطنون الهولنديون إلا على ١٢٠٠ فدان بدلا من التنظيم القديم الذى كان يجعل المساحة ٦٠٠٠ فدان . وطبقاً للنظام القديم كانت الضياع الكبيرة تصبح ملكية خاصة بعد أن يؤدى أصحابها إيجاراً سنوياً قدره عشرة دولارات لمدة خمس سنوات ، أما فى التنظيم فإن المتلكات الأصغر مساحة فرض عليها إيجار دائم قدره حوالى ١٠٠ دولار فى السنة ، وكان المفروض أن تقسم بين الورثة .

كان رد الفعل من جانب البوير سريعاً وعنيداً فأعلنوا أن الرسوم أعلى مما ينبغى ، وأنه ينبغى أن تبقى مزارع تربية الماشية دون تقسيمها ، على أن يحصل الورثة على أراض جديدة ، وأن الرعى أكثر جزء من الزراعة . من الناحية العملية كان النظام القديم القائم على الإجارة مدى الحياة يجعلها دائمة،ولهذافإن المنح البريطانية لم تتضمن أية مزايا . كان جوهر الخلاف بطبيعة الحال هو محاولة القضاء على تربية الماشية،ولكن البوير كانوا يعرفون أن الحد الشرقى كان قليل الصلاحية للزراعة وأن الرعى أوفر ربحاً ، وأن إعادة التوطن سوف تزيد من المؤثرات الأجنبية فى حياتهم .

وأغفلوا قانون الأراضى إلى حد كبير ، فتمسك المستوطنون بملكياتهم الأكبر مساحة والتى يستأجرونها مدى الحياة ، وواصلوا تربية الماشية لسد حاجة

أسواق مستعمرة الرأس التى لا تشبع . كان البريطانيون قد عجزوا عن إدراك الحقيقة، وهى أن الماشية وليست المنتجات المزرعية هى الأساس الذى يقوم عليه اقتصاد الحد الشرقى، وأن المدن الغربية تعتمد فى غذائها على قطعان البوير .

وبينما ثارت هذه المشكلة بدأ رجال الإرساليات يشجعون الهوتنتوت على مقاضاة رجال الحدود بسبب سوء المعاملة المزعوم . وعينت الحكومة محكمة سوداء متجولة لسماع الاتهامات ، وإذا اتهم أحد من الفلاحين جىء به أمامها لمحاكمته ، وغالباً ما كانت لجنة التبشير بلندن تقدم المحامين للدفاع عن المدعين ، وهنا اتهمها البوير بالتهاون و « عدم المسئولية » إذ ساءهم أن يعاملوا على قدم المساواة مع غير البيض .

إن بعض الأحداث التى شهدتها تلك المحاكم ارتفعت إلى منزلة الأساطير الخيالية القومية فى جنوب أفريقية الحديثة ، ومنها قضية بوز الخادم الهوتنتوتى الذى اتهم مخدومه فردريك بزويد تهوت بأنه أساء معاملته . وربما فعل بوز هذا تحت الإغراء من جانب الإرسالية ، ورفض بزويد تهوت المثول أمام المحكمة مدعياً المرض ، ولكنه راح فى صبر يبعث بالردود على التهم الموجهة إليه ، وحاول أحد رجال بوليس الهوتنتوت إرغامه على الحضور إلى المحكمة فرفض السماح لغير البيض بالقبض عليه وقاوم البوليس وقتل .

وهنالك أقسم أخوه جوهانز على الانتقام لمقتله وكتب جار عطوف هو هندريك بريفسلو إلى جايكا زعيم الأكسوسا يقترح عليه عقد تحالف يمنح

بمقتضاه القبيلة أرضاً إذا ساعدت البوير على إقامة جمهورية مستقلة . اعترضت السلطات البريطانية الخطاب الطريق فى وقبضت على برنسلو بتهمة التحريض على الفتنة وحاول الفلاحون الآخرون إنقاذه ولكنهم أخفقوا فى إثارة ما يكفى من التأييد العملى من أجل قلب الحكومة العسكرية . وقتـل جوهانز فى المركة ولكن معظم الفلاحين المتمردين قبض عليهم فى سلاخترزنك Sluchter's Nek وحكم عليهم بالإعدام فى عام ١٨١٥ .

أجريت محاكمتهم طبقاً للقانون الهولندى الرومانى وكان جميع القضاة من الهولنديين أو البوير وكانت الأدلة قاطعة . لم تكن الثورة بالتأكيد فريدة فى تاريخ منطقة الحدود ، ولم تنل الحركة تأييـداً واسع النطاق فى صفوف الفلاحين . ولكن الظروف الخاصة التى أحاطت بالإعدام أصبحت جوهر أسطورة كبرى .

فقد طلب من عائلات الثوار شهود الشنق فانهارت المشانق ، وهو حادث مؤلم فسرته الأسطورة بأنه « من فضل الله » لإنقاذ المحكوم عليهم ، ولهذا اضطرت السلطات إلى إعادة نصب المشانق وتكرار عملية الشنق . وتروى أسطورة لايؤيدها الدليل أن الجلاد البريطانى كان يحمل فى جيبه قراراً بالعفو ولكنه لم يبرزه، وظل هذا الحادث يطارده حتى دفعه إلى الانتحار . وسرعان ما أصبحت شلاخترزنك رمزاً للمظالم التى عاناها البوير على أيدى الإرساليات، والسياسة المتبعة إزاء الوطنيين والعدالة البريطانية ، وأصبح الثوار أبطالا تحدوا الحكم التعسفى والليبرالية التى أسىء توجيهها . ولقد بيعت فى السنوات الحديثة بعض الشظايا من الخشب قيل إنها من بقايا مشانق الشهداء . وبالرغم من أن

الأحداث الحقيقية كانت ضئيلة الشأن ، إلا أن الأسطورة التى بنيت حولها كان لها تأثير كبير على تاريخ جنوب أفريقية .

وتولى حكم المستعمرة بقية العقد الثانى من القرن التاسع عشر لورد شارل سمرست، وهو موظف واثق بنفسه ويعرف كيف يفرض سلطته . كان مفروض فى سياسته القائمة على « نشر المذهب الأنجليكانى » أن تحقق الاندماج فى صفوف البيض ولكنها ولدت الكثير من المرارة . أصبحت الكنيسة المصلحة الهولندية السائدة هناك تخضع لسلطان الحكومة ، ولكن الأخيرة برغم أنها أنجليكانية درجت على أن تبعث إلى المستوطنين فى مستعمرة الرأس برجال الدين من البريسبتاريين الأسكتلنديين، وكان على الهولنديين أن يتقبلوا القساوسة الأسكتلنديين فى إجراء مراسيم التعميد والزواج والقداس ، ولكن البرسبتاريين كانوا موضع الاحتقار لأنهم كانوا يعارضون فكرة البوير عن القضاء والقدر ،ويستخدمون اللغة الإنجليزية بدلا من الهولندية،ويبدون العطف على رجال الإرساليات . من ناحية الشكل كان الأسكتلنديون يتحكمون فى ديانة البوير ، أما من حيث الواقع فقد نشأت هوة تفصل بين أفكار البوير والكنيسة الرسمية .

وظهر عمق هذا الانقسام حينما تقرر بعد عام ١٨٢٨ استخدام اللغة الإنجليزية فى الكنائس ،ولكن نادراً ما كانت تسمع فى البيوت .

وثمة نوع آخر من المشكلات كان قد بدأ فى الظهور وراء الحدود فى المناطق الداخلية وشمالى الأكسوسا ، فما بين عامى ١٨٠٣ و ١٨١٣ شجع رجال الإرساليات أعداداً كبيرة من المولدين،أى الملونين،على مغادرة المستعمرة،وأقاموا

حول محطات الإرساليات على طول نهر أورنج،وأقاموا سلسلة من دول الجريكا شبه القبلية أخذت تسطو على البوشمن والحيوانات البرية والماشية الضالة ، وأعدت جمعية لندن القوانين والمحاكم والمستشارين لمساعدة « جمهوريات » الجريكا هذه، واستطاع ووتربوير — وهو من زعماء الملونين — أن يفرض حكماً مركزياً بسيطاً على عصابات الجريكا المتفرقة .

وقد عرست حدود الإشراف البريطاني بحيث يشمل حدود الجريكا حيث قامت تجارة في الجلود بين الوسطاء البوير ووتربوير ، ووقع الجريكا بطريقة غامضة تحت تأثير المقيمين البريطانيين ، ولكن الحد الشمالي الشرقي كان بعيداً عن الاستقرار . كان في الإمكان في الأجل الطويل أن يصل الجريكا والبوير إلى اتفاق بشأن الحدود يحول مقدماً وبشكل فعال دون وقوع الصراع بينهم ، والواقع أن تلك المناطق كانت بعيدة عن أسواق الماشية في مستعمرة الرأس ، وقاحلة بحيث لاتجتذب أعداداً كبيرة من البوير للاقامة فيها . كان الطرفان يستفيدان من التجارة ، وكانت المنازعات على الأرض قليلة جداً . وظل رجال الإرساليات مبعث الخلاف ، ولكن المشكلات الملحة ما زالت المشكلات القائمة في المناطق البعيدة نحو الجنوب .

كانت الأحوال على امتداد الحـــد الذي يشكله نهر فش قد تدهورت ، وكانت الخطة التي وضعها البريطانيون في عام ١٨١٢ لإعادة التوطين والتحصين خطة غير ذات أثر فعال فاستمر البوير يتمسكون بدعاويهم الأصلية وراحوا يدافعون بأسلوب الكوماندو ، ولهذا اشتبك المستوطنون والكفار في صراع حر خارج عن ولاية السلطات .

وزاد الضغط من جانب الأكسوسا بشكل ظاهر على امتداد الحد فى الربع الأول من القرن التاسع عشر ، واشتد الطلب على الأرض بسبب ازدياد عدد السكان . ولكن الأسباب المباشرة وراء الصراع كانت كامنة فى المجتمع البانتوى ، فعلى غرار الكثير من قبائل البانتو الجنوبية مال الأكسوسا إلى الانقسام إلى قبائل فرعية عند موت زعيم من زعمائهم . مثل هذا الانقسام إلى قبائل شرقية وغربية حمل قبائل الأكسوسا الغربية على الهجرة صوب نهر فش فى عام ١٧٧٥ ، وبعد ذلك لم تعد هناك أرض خالية وبذا لم تتمكن القبيلة من الانقسام،وبدلاً من ذلك نشأ التوتر فى داخل مجتمع الأكسوسا وأسهم فى زيادة الغارات على الحدود .

ووجدت اتجاهات مماثلة فى داخل القبائل الأخرى ، وبخاصة الزولو الذين احتلوا الجزء الشمالى من ناتال . ففى أثناء المائتى عام منذ وصولهم فى أوائل القرن السابع عشر كان النجونى الزولو قد انقسموا إلى مجموعة من الدول المستقلة، وكان يحيط بهم السوازى من الشمال والسوتو من الغرب ، أما من ناحية الجنوب فأحاطت بهم تلك السلسلة من التمبو والبوندو والأكسوسا ، والتى كانت تمتد حتى حدود مستعمرة الرأس . وفى عام ١٨١٦ انتقلت زعامة إحدى جماعات الزولو إلى تشاكا،وهو أمير ذكى بصورة غير عادية ويمتاز بمقدرة عسكرية خاصة. وبعد أن وصل عن طريق التفاهم والقتال إلى مركز الزعيم الأكبر فى عام ١٨١٨ شن سلسلة من الحروب ضد جيرانه من السوازى ،وأنشأ تشاكا جيشاً ميدانياً كفئاً يتكون من فرق ذات اكتفاء ذاتى ، ومتماسكة تماماً ومسلحة بالرماح الخشبية assegais ، وتحارب على هيئة هلال متماسك (كثيف فى الوسط وله جانبان خفيفان ينطبقان على العدو) .

كانت بلاد الزولو كلها تدين بالولاء « لنابليون الأسود » ، وكانت بلاد السوازى قد تعرضت للكثير من الأذى . وكانت الآثار المترتبة على ذلك والتى عمت أرجاء بلاد التمبو والبوندو ، سبباً فى دفع الأكسوسا نحو المستعمرة البيضاء الواقعة غربى الحد الذى يمثله نهر فش .

وأبى بعض قواد تشاكا أن يكون المجد كله من نصيب الزعيم الكبير ، فتحدى زويدى ومزيليكازى سلطته المطلقة عند نهاية حروب السوازى ، ولكن تشاكا لم يرحمهم ، ففرت عصابات زويدى المعروفة باسم النجونى اللاجئين صوب الشمال إلى الإقليم المعروف اليوم باسم ترنسفال ، وذلك حوالى ١٨٢٠ — ١٨٢١ . هنا خلف زويدى ابنه زوانجندابا ، ولكن المحاربين اللاجئين ظلوا أقوياء . وكان السوتو الشماليون الذين يقطنون الجهة مشتتين — وتظلت بقاياهم باسم قبائل بابيدى ولوفدى وفندو — وسرعان ما استأنف النجونى مسيرهم نحو الشمال . وفى حوالى عام ١٨٣٤ عبروا نهر ليمبوبو ودخلوا روديسيا الجنوبية حيث قضوا على الروزوى ، آخر من كان يعرف سر بناء زمبابوى وغيرها من المدن الحجرية . وحاول عدد قليل ممن بقى من الروزوى أن يتجمعوا وأن يبنوا لهم مدينة على مقربة من شـــلالات فكتوريا ، ولكن معظم المنطقة بما فيها زمبابوى ، ظل مهجوراً . وانتشر النجونى من أتباع زوانجندابا فى اتجاه الشمال حتى كادوا يصلون إلى بحيرة فكتوريا قبل أن يعودوا للاستيطان على طول بحيرة نياسا . من المؤكد أن زوانجندابا خلف وراءه بعض الدمار ، وقبل أن يستقر قومه كانوا قد أسهموا أيضاً بقدر كبير من الفوضى والاضطراب اللذين كانا يميزان شرق أفريقية فى منتصف القرن ..

. وبذلك كانت الأرض ممهدة أمام تجار الرقيق العرب الذين بدأوا عملياتهم في الداخل بعد ذلك بسنوات قلائل .

أما الثوار الزولو الآخرون الذين يتولى قيادتهم مزيليكازى ، فقد عبروا جبال دراكنزبرج فى عام ١٨٢٣ . وإذ توغلوا كثيراً فى دولة أورنج الحرة ، بعيداً عن بلاد الزولو ، فإنهم فروا من وجه دكتاتورية تشاكا ومنطقة نفوذه . وجعل مزيليكازى من نفسه زعيماً لقبيلة جديدة هى نديبيلى (والتى أطلق عليها السوتو والبوير والجريكا اسم « ما تابيلى ») . وكان تشاكا من حين لآخر ، يشن الهجمات ويجبر اللاجئين على الفرار أمامه عبر الفلد ، ولكن مزيليكازى كان يستطيع دائماً إيقاع الهزيمة بالسوتو الجنوبيين الذين كانوا يشغلون المنطقة طيلة مائتى عام . وهرب بعض بقايا السوتو إلى حافة صحراء كلهارى حيث رحبوا بالحماية والنصيحة من رجال الإرساليات التابعين للجمعية ، وكونوا سلسلة من القبائل الصغيرة (بشوانا ، باماناجواتو ، بازولونج ، باتجواكتسى ، وغيرها) . واحتمى غيرهم من بقايا السوتو فى جبال دراكنزبرج ، ولكن نظراً لافتقارهم إلى زعيم تقليدى قبلوا بدلاً من ذلك أن يتسلط عليهم رجل عسكرى من العامة يقال له موشيش . فنظم وسائل الدفاع ، وخلق دولة الباسوتو الجديدة التى كونها من ذلك الخليط الذى يفتقر إلى التنظيم ، ونجح فى إعادة احتلال جزء صغير من الأرض الصالحة للزراعة الواقعة عند سفوح التلال حول حصونه الجبلية . وظل معظم الفلد بين كلهارى ودراكنزبرج خالياً من السكان إذ لم يكن فى وسع أحد أن ينظم مقاومة فعالة لأتباع مزيليكازى من الماتابيلى ، أولئك البدو الرحل الذين يعيشون على السلب والنهب .

وعندما انتقلت أزمة اليانتو فى الداخل إلى الأكسوسا فى عام ١٨١٩ ، كان رد الفعل المبدئى من جانب بريطانيا بسيطاً . فمن أجل الحيلولة دون وقوع الاتصال والحوادث الوخيمة العواقب بين البوير والأكسوسا ، جعلت من الشاطىء الغربى لنهر فش أرضاً محايدة . فطرد البوير ، وأنشئت منطقة حرام ، ووضعت داوريات يفترض فيها حفظ النظام فى المنطقة . ولم تكن الضغوط من جانب بلاد الزولو ، مفهومة بطبيعة الحال . ومنيت السياسة بالإخفاق ، فقد استبد الغضب بالبوير ، وتدفق الأكسوسا فى حرية داخل الأرض الخلاء . وتصادف عند تنفيذ هذه السياسة أن كان الحاكم سمرست يقضى إجازته فى إنجلترا ، ولكنه قلبها رأساً على عقب أثر عودته فى العام التالى ، ومنح الحد المكون من نهر فش ، والذى أصبح الآن خالياً إلا من القوات البريطانية ، إلى مجموعة من المهاجرين الإنجليز الجدد فى عام ١٨٢٠ .

كان المفروض فيمن استوطنوا عند خليج ألباى « أن يعملوا على تثبيت الحد بأن يكثر فيه السكان من الزراع المخلصين» . غير أن قلة منهم هى التى سبق لها مزاولة الزراعة ، وكانت التربة فقيرة لاتصلح لغـــير الرعى . وتعرضت المحصولات التى زرعت فعلاً للدمار بفعل الآفات أو الفيضان أو غارات الأكسوسا ، مدة سنوات ثلاث على التعاقب . وساعدت أموال الإحسان الواردة من الهند وبريطانيا على الإبقاء على حياة القوم الذين امتلأت نفوسهم بالمرارة ، غير أن معظم المونة التى تلقوها كان مصدرها البوير الأذكياء المقيمين على مسافة بعيدة فى الداخل ، والذين غالباً ماجمعوا ثروات طائلة عن طريق بيع الغذاء والمؤن إلى خليج ألباى بالرغم من بعض مشاعر العطف التى

كانت تحركهم أحياناً . ومن بين الذين جنوا الأرباح الفاحشة بيت رتيف الذى أصبح فيما بعد من زعماء البوير السياسيين .

وعلى غرار ما فعل الهولنديون من قبل ، اشتبك الفلاحون الإنجليز أيضاً فى القتال ضد المغيرين من الأكسوسا . كانوا يشكون ، كما سبق أن شكا البوير ، من افتقارهم إلى الحماية من جانب الحكومة . إن احتجاجات الإنجليز والالتماسات التى رفعوها فى ١٨٢١ — ٢٣ أكثر بلاغة ، ولكنها فى أساسها شبيهة بالالتماسات التى كان يتقدم بها الهولنديون فى العقود السابقة . ورد سمرست على المظالم بأن حرم الاجتماعات السياسية ، وهى حركة أغضبت أهل إقليم الحدود من كلا الشعبين. وبعد أن أخفقت محاصيل المهاجرين ثلاث مرات ، هجروا الزراعة ليشتغلوا بالاتجار والتجارة . وانتقل بعض المستوطنين الإنجليز إلى مدينة الرأس . وعلى مقربة من الحد أنشئت بورت إليزابث — وإيست لندن بعد ذلك ، وحل الميناءان محل مدينة الرأس بوصفهما أسواقاً لمناطق الحدود والموانى التى ترسو بها السفن . وأصبح المستوطنون فى منطقة ألبانى الوسطاء مع العالم الخارجى من جهة ، ومع اقتصاديات الماشية عند الأكسوسا أو البوير من جهة أخرى .

كان للثورة التجارية تأثير عميق على اقتصاد الحدود . كان القيد الرئيسى على توسع البوير بعدهم عن أسواق مدينة الرأس ، ولم يكن من المجزى التوسع وراء نهر فش أو إلى الأورمج فى الداخل ، إذ لاتستطيع الماشية أن تعيش بعد أن تساق تلك المسافة الطويلة إلى مدينة الرأس . وبعد عام ١٨٢٣ ، حين ظهرت المستودعات الجديدة حول خليج ألبانى ، دخلت منطقة شاسعة جديدة فى نطاق

الأسواق المجزية . وبدأ البوير يتوغلون فى الداخل حتى بلغوا نهر أورنج . هنا كان الطقس موسمياً وشحيحاً ، وظلت المستعمرات الرئيسية قائمة جنوبى النهر ، ولكنهم كانوا يضطرون أحياناً إلى أن يسوقوا قطعانهم إلى الشاطىء الشمالى حيث تجد الكلأ اللازم لها . لم تكن المنطقة فى مثل خصوبة إقليم نهر فش ولكنها كانت واسعة الأرجاء وخالية من السكان . وظل الجريكا مقيمين فى الشمال الغربى ، بينما كان الأكوسا بطبيعة الحال على مسافة بعيدة نحو الجنوب، على مقربة من الساحل . وخلا الفلد من جميع البانتو باستثناء الماتابيلى النهابين الذين أملت عليهم الحكمة أن يرتدوا إلى الفال . وبذلك لم تكن ثمة عقبة تحول دون توسع البوير وانتشارهم طالما كان فى إمكانهم الوصول إلى أسواق الماشية ، ولذلك السبب توقفت محلاتهم فجأة عند نهر أورنج وحدود بلاد الجريكا الغربية .

وفيما بين عامى ١٨٢٣ ، ١٨٢٥ أمر البرلمان بإجراء تحقيق واستعراض واسعى النطاق بخصوص شئون مستعمرة الرأس . وتعرض سمرست للنقد الشديد بسبب أساليبه العنيفة ، كما كان استقرار المستعمرة المالى موضع الفحص والتمعن . وانتهى الأمر بإعفاء الحاكم من منصبه ، وأقيم مجلس استشارى من موظفين معينين ليتولى معظم مهام الحاكم التنفيذية والتشريعية ، وجرى إصلاح النظام النقدى .

كانت الحكومات الهولندية قد أصدرت نقداً ورقياً لايدعمه سوى شرف السلطات ، وظل موضع التداول أثناء الاحتلال البريطانى ، وكان فى استطاعة المضاربين تحقيق ربح عن طريق خصم هذا النقـــــد ، كما كان الفلاحون

يستخدمونه فى أداء الضرائب ، ولكن لم يكن فى الإمكان استعماله فى سد النفقات العسكرية والإدارية المستمرة ، ولكى يتسنى تمويل عمليات الحكومة، كان سمرست قد عقد قروضاً باهظة تعرضت للنقد من جانب لجنة التحقيق . وكجزء من الإصلاح سحب النقد الورق الهولندى من التداول بسبب تخفيض قيمته كثيراً . كان رجال الحدود فى العادة يلجأون إلى المقايضة بدلا من استخدام النقود ، ولكنهم اعتقدوا أن إلغاء النقد كان محاولة متعمدة للقضاء على الرخاء الذى ينعمون به ، وفضلاً عن هذا فإن أوراق النقد الهولندية كانت قد أصبحت رمزاً لتميز البوير ومشاعرهم الانفصالية .

وأخطر من هذا بكثير الإصلاحات التى أدخلت على القانون والحكم المحلى ومركز الهوتنتوت واللغة ، وفى معظم هذه الشئون كانت سنة ١٨٢٨ هى الحرجة بالرغم من عدم تطبيق السياسات فجأة أو بصورة منتظمة .

كان موضوع اللغة قد أثير قبل ذلك فيما يتعلق بالكنيسة المصلحة الهولندية التى سيطر عليها رجال الدين الأسكتلنديون منذ عام ١٨٠٦ . ففرضت العناصر الإنجليزية على جميع الوظائف الحكومية بالتدريج فيما بين عامى ١٨٢٣ ، ١٨٢٨ ، ولم يعد فى الإمكان استعمال اللغة الهولندية فى أعمال الحكومة أو المحاكم أو المدارس ، وكذلك تعين على الكنائس بوصفها أحد أجهزة الحكم أن تتخذ اللغة الإنجليزية فى الصلوات والمجامع المقدسة . وكانت النتائج بالتأكيد أقسى مما كان متوقعاً ، فابتعدت الجماهير عن مؤثرات التجديد وعن لاهوت كنائسها ، وسحب نفـر من الآباء أطفالهم من المدارس كى يتجنبوا التعليم باللغة الإنجليزية .

وقرر أعضاء لجنة التحقيق أن النظام القضائي الهولندي الروماني القديم كان قاسياً ومجافياً لروح العصر، وأنه يجب أن يحل محله قضاة بريطانيون ونظام المحلفين والقانون الإنجليزي واللغة الإنجليزية. لكن رجال الحدود البوير وجدوا جميع هذه المستحدثات مقيتة إلى نفوسهم. وفي الأجل الطويل ظل القانون الهولندي الروماني متبعاً في المنازعات المدنية، ولكن القانون الجنائي والتجاري أصبح إنجليزياً. ومن المشكلات المتعلقة بالقانون الهولندي كان افتقاره إلى التقاليد المتصلة التي يستند إليها، وكانت هولندة نفسها قد اقتبست قانون نابليون في أثناء الثورة الفرنسية، وكانت منطقة الحدود في مستعمرة الرأس تنقصها هيئة تشريعية متماسكة، أو سلطة قضائية تستطيع تجديد القانون القديم.

وألغى الحكم المحلي إلغاءً تاماً. فجرد ضباط البلد من سلطاتهم العسكرية ومن سلطاتهم المؤقتة بوصفهم من قضاة الصلح، ونقلت جميع السلطة الفعالة إلى أيدي شبكة من مفوضي النواحي الذين أصبحوا مسئولين فقط أمام المجلس الاستشاري في مدينة الرأس.

ربما كانت الإصلاحات في اللغة والقانون والحكم المحلي ذات كفاية وتقدمية، ولكنها كانت تحدياً لتقليد المسئولية المحلية والمشاركة المحلية، الذي كان سائداً منذ القرن السابع عشر. وبذلك أدت التغييرات إلى تفكيك المستعمرة، إلى جانب إدخال الروح الحديثة فيها. إلا أنه بالرغم مما أثارته تلك الإصلاحات من الانزعاج في نفوس المستوطنين البوير، طغت عليها وحجبتها الإصلاحات التي أدخلت على مركز الهوتنتوت.

كانت لجنة الإرساليات فى لندن قد مدت شبكتها فى جميع أرجاء إقليم الحدود وما وراءها فى السنوات التالية لسنة ١٧٩٩ حين أنشأ فان دركمب المحطة الأولى . وأنشئت الإرساليات بين الهوتنتوت فى جراف رنيت ، وفى أماكن إقامة الملونين فى بلاد الجريكا ووادى نهر أورنج ، وأخيراً بين الباتنو من جماعة السوتو والذين كانوا ينتشرون صوب الشمال من بلاد الجريكا على طول حافة صحراء كلهارى . وفى عام ١٨١٨ استبدل فان دركمب بالقس الدكتور جون فيليب الذى كان من أنصار المساواة والفصل بين الأجناس . وكان للتقارير التى بعث بها فى العشرينات تأثير عظيم على تفكير اللجنة فى لندن ، وعلى الرأى العام الإنجليزى ، وتأثر بها البرلمان ووزارة المستعمرات . وزعم فيليب أن الهوتنتوت والجريكا يستطيعون أن يخلقوا حضارة إذا توافر لهم الإشراف من جانب الإرساليات الدينية ، ومنحوا مساحات واسعة من الأراضى ، وحرم الاتجار فى المشروبات الروحية .

لم يكن فيليب يدعو إلى قلب المستوطنين البيض أو طردهم ، ولكنه أراد منعهم من استغلال العمال غير البيض . ومن أجل تحقيق هذا الغرض اقترح فصل الجنسين كلية . لكل من المجتمعين المتباينين أن يتجر مع الآخر ، ولكن لكل جماعة أن تملك وتستغل الأرض الخاصة بها . كان قدر كبير من نواياه الأصلية معقولا وتقدمياً بالنسبة إلى ذلك العصر ، ولكن يبدو أن موقف المستوطنين البيض — من الإنجليز والبوير — وسلوكهم ، قد أرهقا حكمه على الأمور . وكان يقول إن القوانين التى تحارب السرقة والتشرد هى قوانين تتعارض مع حرية العقيدة وحقوق الإنسان . وهاجم بقوة القوانين التى تقضى بحمل جوازات المرور لأنها تمنع الهوتنتوت الذين لايملكون أرضاً من الفرار

من مخدوميهم . وأحس الكثيرون من أهل جنوب أفريقية أن فيليب تجاوز حدود النزعة الإنسانية والاهتمامات الدينية ، وبدا لهم التأكيد الذى كان يضعه على هذه الأمور وسيلة يريد أن يستفيد منها فى تحقيق أغراض سياسية فى إنجلترا . وأخيراً ، انتصرت وجهة نظره حين أصدرت لندن فى عام ١٨٢٨ أوامرها إلى حاكم الكاب بإصدار المرسوم رقم ٥٠ الذى أثار الجدل .

كان فى إمكان الهوتنتوت والبوشمن والجريكا، لأول مرة ، أن يتملكوا الأرض . وألغيت قوانين حمل جوازات المرور ، ولم يعد فى الإمكان بعد ذلك القبض بتهمة التشرد على العاطلين من غير البيض . وضمنت حقوق مدنية مساوية التى يتمتع بها المواطنون البيض ، وبخاصة الملونين فى بلاد الجريكا ، وبدأ المستوطنون البيض يحتجون فى مرارة على الخطر الذى يتعرضون له من قبل قطاع الطرق الذين لم يكن فى الإمكان التحكم فيهم ، وراحوا يشكون من أن الهوتنتوت أو الملونين لا يريدون العمل عندهم ، ومن أن الدمار أحاق بنظام العمل عندهم وبمعاشهم ، ولم يدع لهم إلا عدداً صغيراً نسبياً من العبيد لزراعة الأرض أو رعى الماشية . ظل المرسوم رقم ٥٠ نافذ المفعول فى مستعمرة الرأس حتى سنة ١٩١٠ ، وكانت الضمانات التى نص عليها بالنسبة إلى الملونين مدرجة فى دستور جنوب أفريقية طوال جيلين .

ووزع الدكتور فيليب قطعاً من الأرض ، وخطط القرى لحوالى ربع الهوتنتوت الذين جرى تحريرهم ، ولكن معظمهم هجرها بعد شهور قليلة . ولقد اتهم بأنه زور عقود ملكية الأرض ، وهى تهمة أيدتها لجنة تحقيق فيما بعد ، ولكن القضية لم يفصل فيها أبداً . وعاد معظم الهوتنتوت إلى مخدوميهم ،

ولكن حوالى ٢٥ فى المائة منهم تحولوا إلى قطاع طرق يسرقون المحاصيل ، أو أصبحوا يحلون بغير دعوة على أقاربهم الذين يشتغلون بصورة منتظمة . وشك الكثيرون من رجال منطقة الحدود فى أن فيليب والهوتنتوت والكفار تواطأوا على رفع الأجور ومضايقتهم ، ولكن الجمعية التبشيرية بلندن أقنعت وزارة المستعمرات بأن هذه الشائعات ليس لها أساس من الصحة .

وألغى الرق بمقتضى القانون الذى أصدره البرلمان فى عام ١٨٣٤ ، وكانت جزر الهند الغربية تضم معظم العبيد فى الإمبراطورية البريطانية . وكان أصحاب المزارع الكبيرة فى العادة يعيشون فى لندن حيث يدفع التعويض الذى قرره البرلمان . وكان عدد كبير من البوير يملك عبيداً ، ولكنه كان صاحب ثراء ونفوذ . وبعد تحرير الهوتنتوت كان عبيدهم هم مصدر العمل الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه . وحتى يتسنى للبوير الحصول على التعويض المقرر لهم اضطروا إلى الاعتماد على وكلاء فى لندن كانوا يتقاضون عمولة تعادل ثلثى مدفوعات العتق . إن فقدان الأيدى العاملة ، والعمولات الزائدة عن الحد ، والاضطراب النقدى الذى ساد مستعمرة الرأس — كل ذلك زاد من الضيق الذى استشعره البوير .

كان جزء من المشكلة المترتبة على التحرير هو بطبيعة الحال طريقة التصرف فى العبيد . وكان الترتيب الموضوع أن يشتغل ٣٩,٠٠٠ من العبيد السابقين لمدة أربع سنوات تحت التمرين ، ولكن لم يمض شهر حتى شن الأكسوسا حرباً على منطقة الحد حطمت كلاً من نظام التمرين وجباية مدفوعات العتق . وفى هذه المرة أعدت الحكومة قدراً من الدفاع القدير . كذلك نظم بيت

ريتيف فرقة من الفدائيين تتـكون من المستوطنين البوير والإنجليز . وأسهم الـكثيرون من الفلاحين فى نفقات الحرب الدفاعية التى دامت سنتين ، كما فقدوا أيضاً محاصيل سنتين ومواردهم من الأيدى العاملة ، ومعظم المال الذى حصلوا عليه ثمناً لتحرير عبيدهم ، وهوت أعداد كبيرة منهم إلى الإفلاس ، ووقع الحجز على مقتنياتهم المرهونة . ولم يتمسكن الذين فقدوا ممتلـكاتهم من التوجه إلى أى مكان آخر بالمستعمرة ، وكانت الحـكومة تعرض كل الأراضى غير المملوكة لأحد فى المزاد لمن يدفع فيها أعلى ثمن ، وذلك بدلاً من توفيرها لإقامة المساكن الرخيصة .

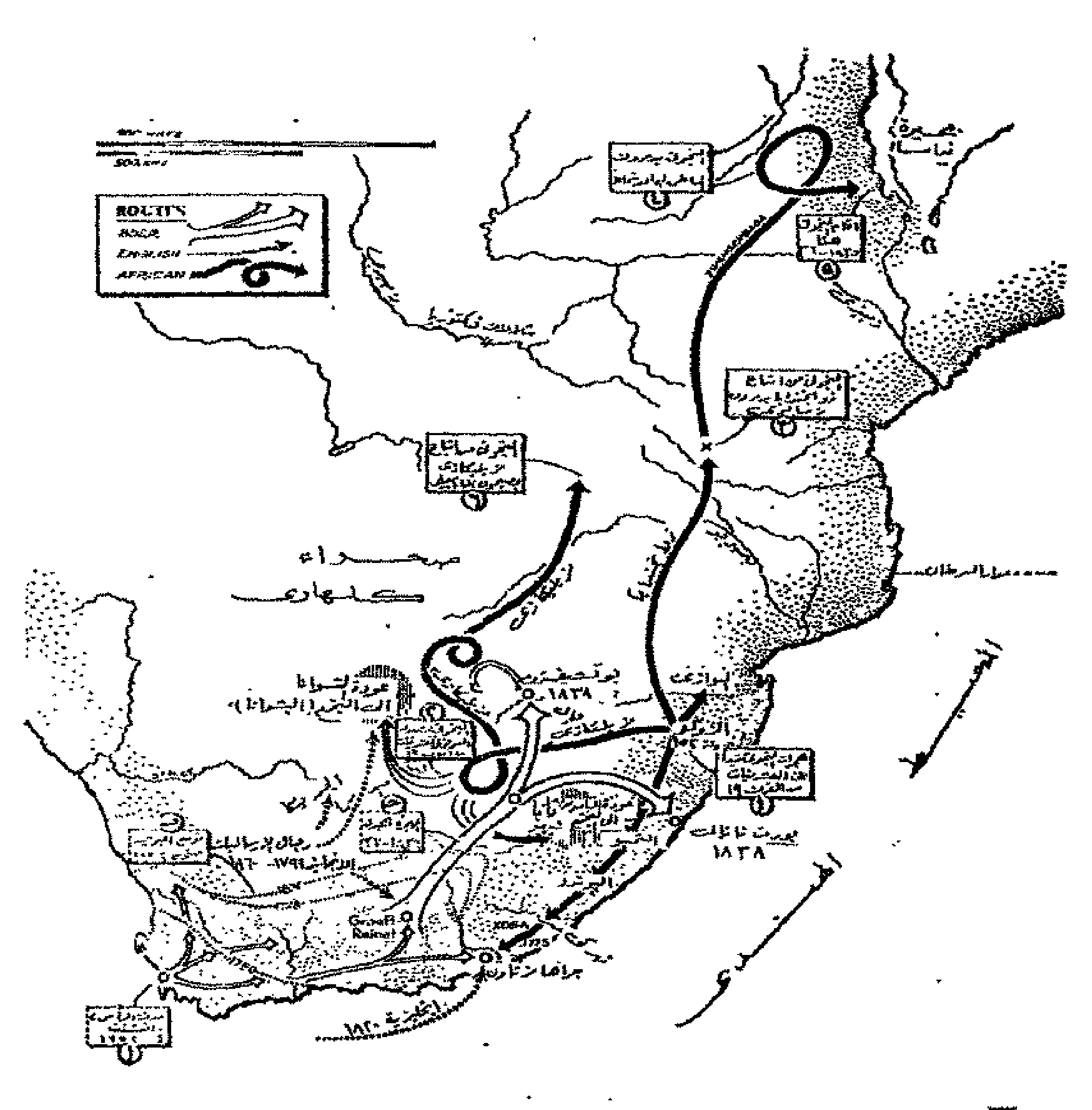
وحاول الحاكم دربان D'urban الذى وصل حديثاً من إنجلترا ، أن يضع حداً لمنازعات الـكفار بضم أجزاء من بلاد الأكسوسا . وكان يأمل أن يجعل زعماء الأكسوسا مسئولين أمامه عن الأعمال التخريبية التى ترتكبها القبيلة . غير أن البوير فسروا مشروعه على أنه تحالف بين الإنجليز والبانتو ، يهدد أمنهم . واحتج ذوو النزعة الإنسانية ومعظم رجال الإرساليات على مشروع دربان بشأن الاستيلاء على بلاد الأكسوسا وبسط سيطرته عليهم . ولم يمض عام حتى اضطر دربان إلى الانسحاب نحو الحد الذى كان قائماً من قبل على امتداد نهر فش . ومرة أخرى ترك الأكسوسا لوسائلهم الخاصة ، وعاد جميع المستوطنين عند الحد فأصبحوا بغير دفاع . وثار غضب رجال منطقة الحد من الإنجليز والبوير على حد سواء ، واستأنف الـكفار هجماتهم التى لا تلين .

وفى عام ١٨٣٤ أرسل بيت ريتيف ثلاثة من رجال منطقة الحد للبحث عن أرض جديدة ، فذكروا أن السهل الممتد وراء نهر أورنج يبدو خصيباً ،

خالياً من السكان وجدباً . وفى خريف عام ١٨٣٥ فررت حوالى ١٥٠ من أسرات البوير مغادرة المنطقة الخاضعة لسيطرة بريطانيا . وأصدر البرلمان قانون العقوبات لمستعمرة رأس الرجاء الصالح ، وينص على خضوع جميع الرعايا البريطانيين للقانون الإنجليزى حتى ولو غادروا المستعمرة . كان المفروض فى القانون أنه تحذير لكل من تحمله السذاجة على الظن بأن فى وسعه نبذ الجنسية البريطانية بمجرد الانتقال إلى مناطق غير منظمة . وطالب بيت ريتيف فى جفاء بأن توفر لهم الحكومة الأمن أو تمنحهم الاستقلال ، ولكن أهدافه كانت موضع الشك المتزايد . وفى عام ١٨٣٧ راح مع ٢٠٠٠ غيره يعبرون نهر أورنج .

لقد بدأت الهجرة الكبرى . كان لويس تريجاردت فى عام ١٨٣٥ أول من خرج ، وأعقبه آخرون فى عام ١٨٣٦ وهم يتعثرون فى سيرهم ، ولكن المجموعة الرئيسية هاجرت فيما بين فبراير وسبتمبر من عام ١٨٣٧ . وعاد معظمهم إلى التجمع خارج المستعمرة فى أعماق الفلد الخالى وراء نهر أورنج عند موقع المعسكر الذى أقيم عند ثابانيهو . وهناك أمضوا شتاء عام ١٨٣٧ (الذى يمتد من أبريل إلى أكتوبر فى نصف الكرة الجنوبى) .

كان الحد الذى خلفوه وراءهم إما مضطرباً أو مهجوراً . وانعقد لسان جريان ووزارة المستعمرات وأصابهما العجز . لقد نقلت الهجرة الكبرى الحد وراء منطقة النفوذ البريطانى ، ولكنها فى النهاية لم تحل المشكلات الملحة فى مستعمرة الرأس : أرض الأكسوسا ، حقوق الهوتنتوت ، إرساليات الجريكا ، تنفيذ القانون ، أو محاولة تحقيق الموازنة بين المصروفات والإيرادات المتحصلة من الضرائب .



جنوب أفريقية
هجرات النجوني وبدء الهجرة الكبرى

الهجرة الكبرى والجمهوريات

بقي معظم البوير في مستعمرة الرأس ، ولكن الذين هاجروا في عام ١٨٣٥ — ٣٧ حملوا معهم روح الاعتماد على النفس التي يتميز بها أهل الحد ، وشعروا بأنهم جنس له ذاتية مستقلة عن بريطانيا أو العالم ، حملوا أقوى طائفة من المظالم ضد الكنائس التي يسيطر عليها الأسكتلنديون وضد البانتو ورجال الإرساليات الدينية . كان البوير يعتقدون أن البلد خال من السكان ولم يدركوا أن هجرتهم سوف تحطم الحدود الواضحة التي تفصل بين مناطق البيض وغير البيض .

ليس من السهل التفرقة بين الأسباب الحقيقية التي تعزى إليها الهجرة وبين الأعذار التي اكتشفها المؤرخون ورواة الأساطير في السنوات المتأخرة . يقول الوطنيون المحدثون إن بريطانيا كانت تعتزم محاولة فرض نظام الزواج المختلط بين السود والبيض ، وأن الأرض كلها ستمنح للهتلنتوت ، وأن الجمعية التبشيرية بلندن أعدت مشروعاً للقضاء على لغة البوير وديانتهم ، أو أن الحكومة كانت قد بدأت في تأييد الكفار . وفي التقرير الذي رفعه سير جورج نابيير إلى وزارة المستعمرات في عام ١٨٣٨[1] نراه يقدم الكثير من التفسيرات ومنها :

---

(١) اقتبسه جون بيرد في كتابه « حوليات ناتال » ، جزءان (Pietermaritzburg 1888) ج ٢ ، ص ٣٩٤ .

البحث عن تربة أفضل وضرائب أقل وطأة وأرض لشعب آخذ فى التزايد ، الجفاف الذى لم يسبق له مثيل ودام عامين عند الحد القديم ، اعتماد سكان منطقة الحد بعضهم على بعض بحيث إذا بدأت قلة منهم فى الهجرة فلا بد أن يترسم الباقون خطاها ، المرارة التى ملأت النفوس بسبب المدفوعات عن تحرير الرقيق ، وعدم اطمئنان الهولنـديين إلى حقوق ملـكيتهم للأرض فى ظل القانون الإنجليزى ، السخط بسبب الغارات التى يشنها الـكفار ، والقلق من ناحية السياسة البريطانية إزاء الاكسوسا والاعتقاد بأن المعاهدات المعقودة مع الوطنيين ليس لها تأثير فعـال . وتضع اليوميات التى خلفها المهاجرون[١] التأكيد على الرغبة فى حماية ديانة القوم من تأثير اللاهوت الحديث ، والخوف من أن الحـكومة قد تفرض عليهم الـكاثوليـكية ، والاستياء من تدخل البريطانيين فى « العلاقات الصحيحة بين السيد والخـادم » . هذا البغض « للمساواة الدنسة » ربما كان دافعاً على حركة الهجرة ، أقوى من أى عامل آخر .

وواضح أيضاً أن مزارع تربية الماشية عند الحد وراء نهر أورنج سوف تـكون أبعد مما يجب عن أسواق الموانى البحرية . فإذا أريد احتلال أرض جديدة أو تجنب سيطرة البريطانيين على الأسواق ، فإن الحل الوحيد يتمثل فى الهجرة الجماعية إلى أرض قريبة من تلك الأجزاء الواقعة على ساحل إفريقية الشرقية والتى لا يدعيها أحد . وما من شك[٢] أن المهاجرين كانوا يهدفون

---

(١) انظر القائمة المدعمة بالأسانيد عن روايات البوير فى :
Eric A. Walker : A History of Southern Africa (3 rded.) London, 1957, P. 197, n. 3, part (a).

(٢) S. Daniel Neumark : The South African Frontier, 1652—1856: Economic Influences, Stanford, 1956, pp. 168—170

إلى تخطى الاكسوسا حتى يتسنى لهم إنشاء الموانى الخاصة بهم فى ناتال وخليج ديلاجوا ، وحينئذ يمكن إنشاء مزارع تربية الماشية على حد يتفرع صوب الخارج من المنافذ الجديدة .

ولازم سوء الحظ الجماعتين الصغيرتين اللتين هاجرتا فى عام ١٨٣٥ قبل حركة الهجرة الرئيسية . فاختار مرافقو تريجارت الترنسفال الشمالية ، ولكنهم اضطروا إلى هجرها سعياً وراء الإحسان من جانب البرتغاليين فى لورنزو مركيزو، فأرسلهم الأخيرون إلى ناتال فى عام ١٨٣٩ . واختفى جان فان رنتزبرج تماماً فى عام ١٨٣٦ ، وبعد ذلك باثنى عشر عاماً عثر على عظام وعربات جماعته فى موزمبيق حيث قتل أفرادها ، وواصلت المجموعة الرئيسية بعد ذلك بقليل السير إلى مستعمرة الرأس بقدر أوفر من الحذر والتنظيم .

وخلال عام ١٨٣٦ تجول أندريز هندريك بوتجيتر فى أنحاء الفلد حيث اصطدم مع الماتابيلى وهزمهم ثم عاد إلى ثابانيهو لمقابلة المهاجرين الذين وفدوا فيما بعد . وكان الماتابيلى النهابون بقيادة الزعيم مزيليكازى الوحيدين الذين شغلوا حوض الفال بصورة فعالة ، ثم فروا صوب الشمال إلى المنطقة التى خلت حديثاً من أهلها فى روديسيا الجنوبية ، والمعروفة منذ ذلك الحين باسم بلاد الماتابيلى (ماتابيلاند) .

لقد انتصر بوتجيتر ولكن قوته ضعفت بشكل خطير ، فانضم إلى جماعة جيريت مارتيز عند ثابانيهو . وانتخب ماريتز ومجلس من ستة أعضاء لتشكيل هيئة تنفيذية لجموع المهاجرين .. ووصل بيت ريتيف فى أوائل عام ١٨٣٧ ونجح فى أن ينتخب حاكماً عن طريق استغلال التنافس بين بوتجيتر ومارتيز .

وخلال بوتيه وصل جا كوبس وبيت يوز وهما آخر الشخصيات الرئيسية . وبينما أقامت الجماعات معسكراتها سوياً لقضاء فصل الشتاء ، زادت المنافسة بين الزعماء . كان كل منهم ينفرد بصفة لاغنى عنها للآخرين ، ولكن أحداً منهم لم يكن على استعداد للخضوع لغيره . كان بوتجيتر تهماً بشكل خاص للحصول على الأرض ، وهذا مكنه من السيطرة على المراعى التى كانت الآخرون يريدون الحصول عليها . وكان ماريتز أوفرهم خبرة فى النواحى القانونية والإدارية ، بينما كان ريتيف أقدرهم على التنظيم السياسى العملى والانتخابى . وكان ظاهراً أن الأخوين يوز أشده غيرة على استقلالهما الذاتى وإن احتفظت كل الجماعات باستقلالها فى المسائل العسكرية .

ولم يحل اكتوبر حتى طغت عناصر الحزبية والضجر على السطح فى ثابانيهو فاقترح إخوان يوز الانتقال إلى ناتال ولكنهم أبطأوا فى التحرك . وادعى بوتجيتر الحق فى جميع الأراضى الواقعة وراء نهر فال ، ولم يأت شهر أكتوبر حتى أقام لأتباعه جمهورية مركزها بوتشيفستروم Potchefstroom. أما جماعة بيت المقدس Jerasalemgangers التى تميزت بالعناد والإصرار فتحركت صوب أرض الميعاد ، وكما فعل موسى فى عهد الخروج عبرت النيل Nyl (وهو جدول فى ترنسفال) ولكنها هلكت فى مكان بعيد ناحية الشمال . وفى هذه الأثناء سبق ريتيف المجموعة الرئيسية كى يدبر لها الأرض فى ناتال .

وبينما كان المهاجرون يجاهدون فى نقل عرباتهم وماشيتهم عبر جبال دراكنزبرج دخل بيت ريتيف فى مفاوضات مع دنجان Dingaan زعيم الزولو الذى خلف تشاكا وأصبح القوة التى تتحكم فى ساحل ناتال . ساوم دنجان ولكنه

قبل فى النهاية عقد معاهدة غير أنه فى الواقع كان لا يهدف إلا إلى تعطيل ريتيف إلى أن يتم إعداد محاربيه . وقبض على الرسل غدراً وذبحهم فى ديسمبر عام ١٨٣٨ (وهو حادث يعرف باسم « يوم دنجان » وهو إجازة فى جميع أنحاء جنوب إفريقية تخليداً للذكرى) . وحل أندريز بريتوريوس مكان ريتيف قائداً عسكرياً ، ولكن محاربى الزولو نجحوا فى توجيه ضربة شديدة إلى جمهرة المهاجرين الرئيسية وهى تهبط من جبال دراكنزبرج على مقربة من وينين Weneen وأعاد بريتوريوس تنظيم قواته واندفع نحو الساحل وأنزل بالزولو هزيمة حاسمة حيث قتل ثلاثة آلاف محارب ومعهم الزعيم دنجان عند نهر الدم قبل عيد الميلاد بتسعة أيام . كان للجمهورية التى أنشئت فى ناتال وطن دائم سيطر فيه السادة البوير لأول مرة على قبائل البانتو .

وعندما أعلن قيام جمهورية ناتال رسمياً فى عام ١٨٣٩ وضعت « سياسة » حديدية « لمعاملة الوطنيين » أخضعت جميع الزولو لسلطان سيتيوايو وهو زعيم كان ألعوبة فى أيدى البوير ، وخلف دنجان فى منصبه . كانت هذه السياسة بطبيعة الحال تحرص على معالجة أشد المشكلات إلحاحاً فى البلاد ، ولكن ظهر أيضاً شكل بدائى من التنظيم البرلمانى . كان كل زعيم عسكرى فى البلد يطلب إلى قومه انتخاب من يمثلهم فى الجمعية الوطنية Volksraad ، وأصبح الأربعة والعشرون رجلا الذين غالباً ما تضمنت القوائم أسماءهم ، هم الممثلون لأهل الجمهورية ، كانت الجمعية التمثيلية تملك من الوجهة النظرية جميع السلطات ، ولكنها نادراً ما اجتمعت إذ كانت القرارات التى يتخذها بريتوريوس موضع رضاء الشعب كما كانت الحكومة المركزية المنظمة موضع الشك .

وبالرغم من وجود الأراضى الزراعية الجيدة وميناء دربان القريب منها مما جعل من ناتال وحدة اقتصادية قادرة على البقاء ، فإن المستوطنين كانوا يتوقون إلى إيجاد أسواق خلاف أسواق الإمبراطورية ، وحلفاء قد يعارضون فى احتلال بريطانيا لهذا البلد الجديد . وادعى رحالة هولندى يقال له سميلكامب أنه مندوب عن حكومة الأراضى الواطئة وأعلن أن الملك يتعهد باستخدام « قوته العظيمة » لتأييد ناتال . كان الرجل مجرد مغامر انتهازى ، ولكن يبدو أن البوير لم يدركوا هذه الحقيقة ، كما لم يفهموا أيضاً أن الأراضى الواطئة لم تعد دولة عالمية كبرى .

لكن من المؤكد أنه كان لدى البوير سبب طيب يجعلهم يخشون وقوع عدوان بريطانى . كانت قوات جلالة الملكة تبدى الاهتمام بساحل ناتال الذى لم يطالب به أحد ، بالرغم من أن بريطانيا لم تتقدم بأية دعاوى رسمية بهذا الصدد . والواقع أنه كانت هناك كتيبة بريطانية صغيرة فى ثغر دربان عندما وصل المهاجرون ؛ وعندما أعلنت الجمهورية انسحبت الكتيبة ، ولكن بريطانيا لم تتنازل تنازلاً تاماً أبداً عما لها من «مصلحة» هناك . ولكن كانت هناك مشكلة أكثر أهمية أثارتها الهجرة وأثارها احتلال ناتال ، وهى : هل يفقد الذين ينتقلون من بلد منظم إلى إقليم لا يدعى أحد الحق فيه ، مواطنيهم فى البلد الذى غادروه ؟ وهل يستطيع البوير الذين يغادرون الأقاليم البريطانية أن يقيموا دولة مستقلة ، أم هل يظلون رعايا بريطانيين إلى أن يصبحوا مواطنين فى بلد منظم آخر ؟ هذه المشكلة التى لم تفض تماماً ، تكمن وراء الكثير من المنازعات التى يشهدها جنوب إفريقية فيما بعد . يمكن القول فى القرن العشرين أنه لا يمكن تغيير الجنسية بغير إذن خاص أو نتيجة ثورة ناجحة أو بطريق الهجرة إلى أرض

أجنبية منظمة . وكان هناك حقاً قانون بهذا الصدد فى أثناء فترة الهجرة كلها (وهو قانون العقوبات فى رأس الرجاء الصالح لعام ١٨٣٦ ، وكان ينص على خضوع الرعايا البريطانيين للقـــانون البريطانى حتى فى خارج الأراضى البريطانية) ، ولـكن هذا لم يـكن قد أصبح بعد من مبادئ القانون الدولى المعترف بها . غير أنه كان قانوناً قائماً فى الإمبراطورية ومن هنا استطاع وزير الخارجية أن يعلن فى عام ١٨٤١ أن « ... المملـكة لاتستطيع الاعتراف بجزء من رعاياها على أنهم جمهورية مستقلة » .

بعد ذلك بعام بدأ الاحتلال البريطانى بشكل جدى . تمـكن البوير فى أول الأمر من محاصرة الغزاة ولـكن الميزان انقلب لصالح بريطانيا بسبب ثورة قام بها الزولو ، وضمت ناتال رسمياً فى عام ١٨٤٣ وعرض التاج ٦٠٠٠ فدان على كل أسرة تريد البقاء ، ولـكن معظم البوير أبوا أن يتقبلوا الهزيمة . ومرة أخرى نظمت الهجرة . ومرة أخرى عبرت العربات التى تجرها الثيران ممرات جبال أورا كنزبرج . توجـــه البعض شمالى نهر فال على مقربة من جمهورية بوتشيفستروم التى سبق إنشاؤها قبل ذلك بخمس سنوات ، وأقاموا دولاً ثلاثاً أخرى وهى ليدنبرج وزاوتبانسبرج واوترخت . وأقام البـــاقون جنوبى نهر فال لينشئوا جمهورية وينبرج Winburg برئاسة أندريز ويسل بريتوريوس الذى سبق له تنظيم ناتال البويرية .

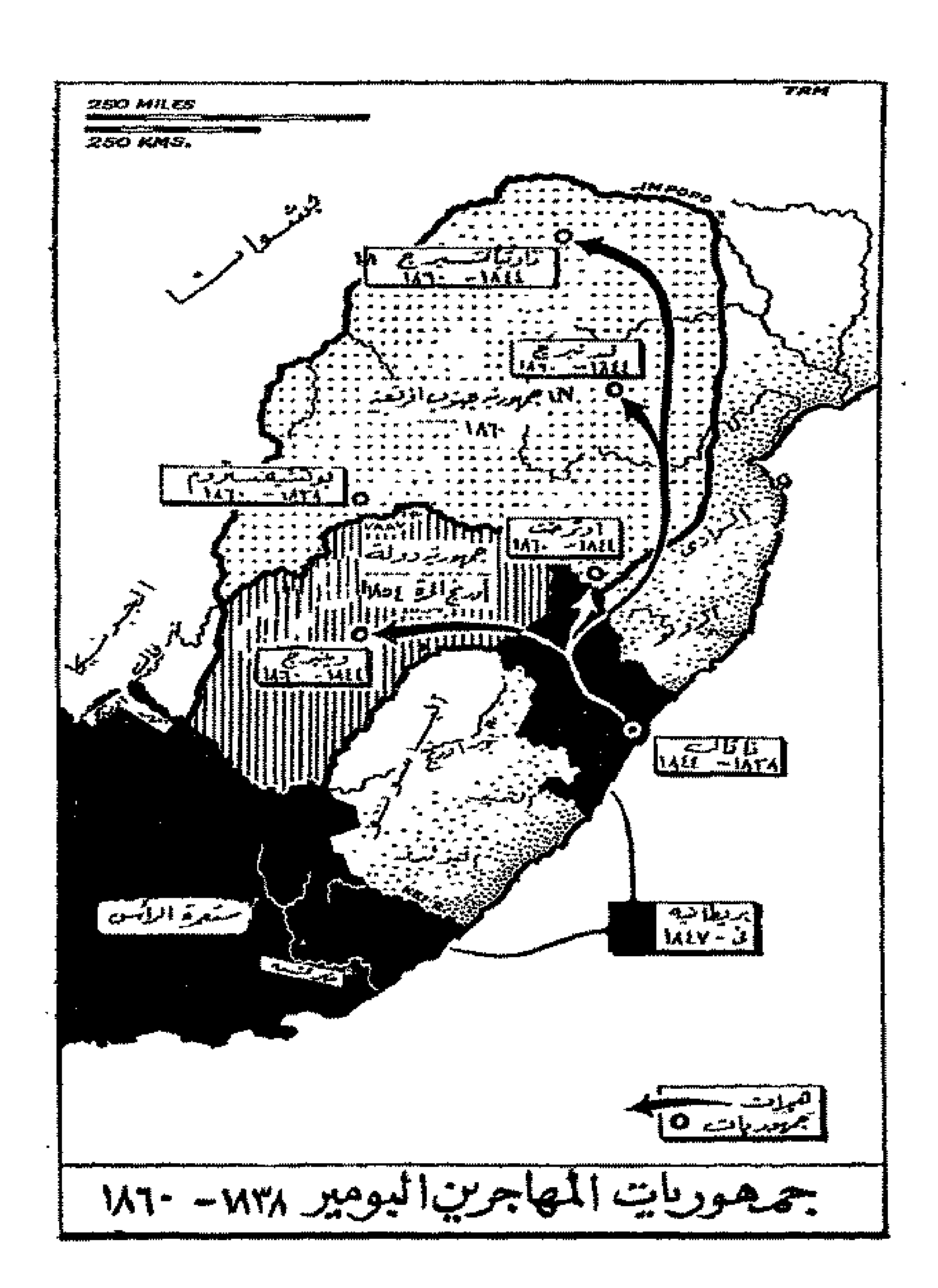
كان معنى ضم ناتال أن بريطانيا تحـكمت فى الساحل بأسره والذى كان يعتمد عليه جميع البوير المقيمون فى الداخل . ولم يتخذ أى قرار بشأن مركز الجمهوريات الداخلية الخمس . كانت تدعى أنها مستقلة ولـكن بريطانيا لم تعترف بها ولم تعمل على القضاء عليها .

وفى ظرف ثلاث سنوات بعثت بريطانيا بقواتها بسبب الاضطراب الذى ساد فى صفوف البانتو ونتيجة الخلاف بينهم وبين البوير حول ملكية الأرض . أصبحت وينبرج وأراضى البانتو بين نهرى فال وأورنج « دولة نهر أورنج ذات السيادة » ولكن الجمهوريات المتعثرة فى ترنسفال ظلت معزولة . وفى وينبرج ثار ا . و . بريتوريوس ضد بريطانيا ولكنه هزم عند بومبلاتس وفر إلى ترنسفــــال ، فحيته بوتشيفستروم كبطل ونصبته على الفور رئيساً للجمهورية .

إن السيطرة البريطانية لم تمهل جمهورية أورنج إلا فترة وجيزة ، فلم يأت عام ١٨٥٠ حتى حدث الانفجار فى صفوف البانتو المقيمين فى درا كنزبرج — بين نهر أورنج ومستعمرة الرأس الشرقية كانت مجموعات صغيرة من قبائل السوتو التى أخرجها الزولو من البلد فى أوائل القرن ، قد التمست الحمـــاية فى الجبال . وانضم إليها بعض الزولو المارقين على شعبهم ، ولكنهم جميعاً فقدوا فى وسط هذا الاختلاط المضطرب الخواص القبلية التى يتميزون بها وزعامتهم التقليدية . فى مبدأ الأمر كانت هذه البقايا التى يعوزها التنظيم تعيش عيشة بدائية يسودها الخوف فى مكامنها الجرداء ، دون أن تثير أية متاعب لجيرانها . إلا أنه فى حوالى الوقت الذى استولت فيه بريطانيا على جمهورية أورنج ، بدأ منظم ماكر من البانتو يقال له موشيش ، يعيد توحيد الجماعات الصغيرة المقيمة فى الجبال . وكون قبيلة جديدة باسم « باسوتو » ظلت متماسكة بفضل خطبه ووعوده وبدأت تهدد كلاً من الجمهورية التى ضمت حديثاً وكل المنطقة الشرقية من مستعمرة الرأس .

وفى لندن كان القادة البرلمانيون شديدى الرغبة فى التقليل من البيروقراطية والإنفاق والتورط فيما وراء البحار ، فأخـــذوا يطالبون بالجلاء عن المنطقتين كلية ، هذا الاتجاه حال إلى حد كبير دون انتهاج سياسة ديناميـكية ، ولـكن لم يكن من السهل العدول عما تم الآن من عمليات الضم والارتباطات . وظلت بريطانيا طيلة عامين تشتبك فى حرب غير منتظمة مع الباسوتو من القاعدة التى لم تـكن تريدها فى دولة نهر أورنج ، وتمـكن موشيش بالتدريج من أن تصبح له اليد العليا فزعزع سمعة قوة بريطانيا تماماً فى المنطقة . فلما حل عام ١٨٥٢ كانت وزارة المستعمرات قد قررت أن التدخل الإنسانى النزعة والاحتلال الفعلى أمران غير عمليين وينطويان على تـكاليف كبيرة وليسا موضع رضاء الشعب بوجه عام . كان أفضل رد على التقدم الذى يحرزه موشيش هو التعاون مع البوير ، فإذا تم جلاء بريطانيا فإن العداء بين لندن والبوير قد يزول لتحل محله سياسة مشتركة إزاء البانتو .

وتمشيا مع هذا تقابلت بريطانيا مع ممثلى جمهوريات ترنسفال الأربع — بما فيهما عدوتها بوتشيفستروم — لوضع اتفاق نهر ساند فى عام ١٨٥٢ ، فاعترف باستقلال الجمهوريات الأربع رسمياً ، وبعد ذلك بعامين وفى مدينة بلوم فونتاين تحولت جمهورية نهر أورنج ذات السيادة إلى دولة أورنج الحرة ، ووافقت المملـكة على عدم اعتبار البوير رعايا بريطانيين بعد ذلك . غير أن الحـدود لم تخطط إلا بصورة ضعيفة ، ومرت سنوات كثيرة لم يكن من غير المعتاد فيها أن يخدم بعض البوير كلاً من الجمهورية والتـاج — أى يغيروا المواطنية بطريقة غير رسمية ، بعبارة أخرى .



جمهوريات المهاجرين البوير ١٨٣٨ - ١٨٦٠

وفى الوقت نفسه منحت بريطانيا مستعمرة الرأس الموالية قدراً من الحكم الذاتى الجزئى . كان رجال السلطة التنفيذية ما تزال تعينهم لندن ، ولكن منذ ذلك الوقت ندر أن تخطت لندن قرارات برلمان الرأس أو ناقضتها . لكن حدث بطرق كثيرة أن منح الحكم الذاتى حطم النية الطيبة التى كانت بريطانيا تأمل نشوءها عندما اعترفت بالجمهوريات . كان فى إمكان مستعمرة الرأس أن تضع التعريفات الجمركية الخاصة بها ، ولهذا بادرت إلى فرض رسوم عالية على البضائع الواردة إلى البوير أو الصادرة من عندهم خلال مرورها بالمستعمرة . وكذلك مما أثار القدر الكثير من سخط الجمهوريات توسيع نطاق حق الانتخاب فى عام ١٨٥٣ بحيث يشمل الملونين (المولدين) من أهل مستعمرة الرأس . لذلك كان من المستحيل عملياً نشوء الثقة المتبادلة بين البريطانيين والبوير فى معالجة موضوع السكان الوطنيين ، ذلك الموضوع الذى زاد حدة وأصبح مختلطاً بصورة متزايدة مع السياسة البيضاء .

وخلال عام من توقيع اتفاق نهر ساند ، مات أ . و . بريتوريوس وخلفه فى رئاسة بوتشيفستروم ابنه الطموح مارتينوس ويسيل بريتوريوس . حاول الرئيس الجديد توحيد الترنسفال كلها ، فرفضت الجمهوريات الثلاث الأخرى مقترحاته . ثم حاول فى عام ١٨٥٧ أن يضم دولة أورنج الحرة ولكنه اضطر إلى التراجع إزاء التحالف المؤقت الذى أقامته هذه الدولة مع زاوتبا نسبرج وليدنبرج وأوترخت وأصدقاء لها فى مستعمرة الرأس . وبعد ذلك طلبت الدولة الحرة أن تضمها بريطانيا وتوفر لها الحماية ، فأبى التاج احتمال المسئولية .

على ضوء هذه الخلفية أصبح الضغط عنيفاً من جانب شعب من البانتو

آخذ فى الازدياد عدداً . كانت القبائل من أمثال الإكسوسا قادرة فى الماضى على حل هذه المشكلة عن طريق التوسع ، أو « السرقة » أو الحرب ، ولكن استيطان البيض وقوة بريطانيا العسكرية والزيادات التى حدثت فى عدد كل من السكان البيض والبانتو — هذه كلها وضعت حداً لهذه الحلول التقليدية . وفى عام ١٨٥٧ اجتاحت الإكسوسا القيمين شرق مستعمرة الرأس ثورة دينية يائسة ، فنادى أنبياؤهم بنبـــذ الديانة التقليدية ، وتدمير جميع المحصولات والممتلكات ، وذبح جميع الماشية (حتى ما كان منها أساسياً للبنيان الاقتصادى والاجتماعى القبلى) ، ثم وعدوا القوم بأن معجزة سوف تحدث حيث تهب « دوامة » تكتسح البريطانيين والبوير وتلقى بهم إلى البحر ، ويبعث أبطال الإكسوسا السابقين أحياء من جديد ، ويتحول جنوب إفريقية كله إلى أرض خصبة مليئة بالحب النضير والماشية .

واجتاح الجنون المنازل المزدحمة ، فدمرت الممتلكات والمحاصيل والحيوانات وراح الإكسوسا ينتظرون وقوع المعجزة .

وعندما حل « اليوم » الموعود لم يحدث شىء .

كان الجيش البريطانى قد تلقى تحذيراً من قبل فبادر إلى إرسال المؤن عبر الحد . لم يكن هناك وقت لاستشارة لندن ذات التفكير الاقتصادى ، وقدمت مواد الإغاثة على نفقة سير جورج جراى الشخصية ، حاكم الرأس ، وأمكن إنقاذ ثلاثين فى المائة من السكان ، ولكن الخسارة التى نجمت عن « المجاعة التى أصابت الإكسوسا » كانت رهيبة بشكل مذهل .

لم يعد الإكسوسا بعد ذلك قبيلة موحـــدة ، ولم يسترد اقتصادها أهميته السابقة أبداً . أصبحت منطقة البانتو الممتدة بين مستعمرة الرأس وناتال معزلاً شاسعاً يعتمد فى معاشه على الاقتصاد الأوروبى . وكانت السلعة الوحيدة القابلة للبيع هى العمل . وسعى الإكسوسا — فضلا عن جيرانهم الخاضعين لهم — إلى التماس العمل عند فلاحى مستعمرة الرأس وتجارها ورجال الصناعة فيها ، وبذلك بدأ امتصاص البانتو فى اقتصاد البلاد وبدأت المعـــالم الأولية للترابط العنصرى الحديث .

وفى الحـــال أمر سير جورج جراى بإجراء تحقيق أظهر أسباب ثورة الإكسوسا . كان الملك موشيش يعد الخطط لشن حرب يقضى فيها على البوير . ولـكى يصرف أنظار البريطانيين عمـــا يدبر بعث بعملاء من قبله إلى بلاد الاكسوسا لإثارة أزمة وحرب على الحدود . من المحتمل أن موشيش لم يتوقع أن يؤدى المشروع إلى مثل هذا الدمار الذى لحق باقتصاد الاكسوسا ، ومن المحقق أنه لم يستبق قدرة جراى على إدراك الموقف وتداركه .

وبالرغم من عدم وقوع البريطانيين فى الفخ قرر موشيش فى ١٨٥٨ أن يسير قدماً بالهجوم على دولة أورنج الحرة . انهارت مقاومة البوير ولـكن جراى تدخل بين الجانبين واستطاع بوساطته إنقاذ الدولة الحرة وإعادة السلام . وفى الوقت نفسه حاول تقديم المساعدة من أجل تنمية الجمهورية بأن أنشأ كلية فى بلومفونتاين ، زودها بمكتبته الخاصة .

وبعد ذلك بتسع سنوات — ومن أجل الانتقام من موشيش والتعويض عن الغارات التى يشنها الباسوتو — استولت الدولة الحرة على أخصب أراضى

الأخيرين . ومرة أخرى تدخلت بريطانيا . كان الحاكم الجديد الذى يفتقر إلى صبر جراى وفهمه للأمور ، مصمماً على أن يضع نهائياً حداً لسلسلة الحروب التى يشنها الوطنيون ، والقلاقل والاضطرابات التى يثيرونها ، فضم إلى التاج جميع أراضى الباتتو التى لا يسيطر عليها الأوربيون وجعلها تحت حكم وزارة المستعمرات المباشر . وفى هذه المرة أحست دولة أورنج الحرة أنها حرمت من النصر الكامل ، واتهمت بريطانيا بمحاباة الوطنيين وحمايتهم ، وتعمد إضعاف البوير ، والتآمر مع الباسوتو ضد الجمهوريات .

كان الاتصال قليلاً جداً بين جمهوريات الترنسفال الأربع والأحداث المعقدة الناشئة عن ثورات الباسوتو والاكسوسا . وحتى بوتشيفستروم وهى أم الجمهوريات الأربع ، ظلت بمنأى عن الاقتصاد الآخذ فى النمو وعن اتساع نطاق النفوذ البريطانى .

كان الذين هاجروا إلى ترنسفال مشغولين إلى حد كبير بتطهير الأرض — لا من الأشجار وإنما من البدو البنتويين .

وكانت بوتشيفستروم قد أنشأها فلاحون يكادون أن يفتقروا إلى الأفكار المتعلقة بالنظريات السياسية أو علم الحكم . كانوا يريدون فقط أن يحيوا حياة رعوية وأبوية وخالية من أداء الضرائب . ونادراً ما زار أحد منهم العاصمة الصغيرة فى قرية بوتشيفستروم إلا فى أسبوع عيد الميلاد . وكان التبادل يجرى بالسوق السنوية فى أثناء العشاء الربانى حيث تجرى الطقوس المسيحية للأهلين

(كالزواج والتعميد والقداس) . أما فى بقية السنة ، فـكان الآباء الروحيون يشرفون على اتباع تعاليم الدين فى بيوتهم المتناثرة .

لم يصحب المهاجرين فريق منظم من المبشرين ورجال الدين ، وإنما كان هناك وعاظ متجولون تحولوا بالتدريج إلى هيئة صغيرة من القساوسة المحليين أصبح لها نفوذها . وكان كثيرون من رجال الإرساليات الدينية الأجانب يزاولون نشاطهم بين القبائل المجاورة من الماتابيلى والباسوتو والجريكا (الملونين) ومن هؤلاء الأمريكى دانييل ليندلى الذى خدم عدة سنوات بوصفه رجل الدين المكرس ، جميع الجمهوريات الخمس فى ترنسفال ودولة أورنج الحرة ، غير أن رجال الإرساليات الآخرين ظلوا يعيشون بمعزل عن مجتمعات البوير وينتقدونها نقداً مريراً .

كانت الهجرة والجمهوريات التى نشأت عنها ، تمثل إلى حد كبير فترة من القرن السابع عشر تتراجع بسرعة أمام القوى المركبة ، الصناعية والمستنيرة فى القرن التاسع عشر . وكانت تغييرات كثيرة قد طرأت على الحياة الثقافية ، والاقتصـــــادية والسياسية فى أوروبا خلال الفترة الممتدة من ذينك القرنين ، ولـكن لم يتسرب إلى هذه الأقاليم سوى القدر اليسير من هذا التغيير ، وما تسرب منه لم يكن ليتفق مع أفـكار البوير . وكان فلاحو جنوب أفريقية يمثلون منذ البداية صورة مبـكرة وريفية من البروتستانتية الهولندية ، وكانوا يعيشون فى عزلة عن المجرى الثقافى الرئيسى حتى قبل أن يهاجروا من الأراضى الواطئة . لقد أخذت أفـكار جديدة تظهر فى أوربا — وبخاصة حقاً فى بريطانيا والمناطق الحضرية بالأراضى الواطئة ، وهى أفـكار عاش البوير بمعزل عنها ،

ولم يتأثروا بها . ففكرة التسامح العنصرى والدينى ، فضلاً عن نمو النزعة العقلية فى القرن الثامن عشر كقوة توازن العقيدة الدينية — كل هذا لم يخلف إلا أثراً يسيراً . ولم يكن للقوانين الحديثة فى التجارة والملكية ، وازدياد انتشار الاقتصاد النقدى ، من أثر ملموس .

لم يكن البوير بطبيعتهم من ذوى النزعة المحافظة ، كما لم تكن المحرمات أو المشاعر السلبية قوية بحيث تشكل شخصية إيجابية للقوم . كانت دعامة المجتمع هى الأسرة بوالدها ومزرعتها وإيمانها — القائمة على صلة النسب والأرض وديانة مخيفة نوعاً . وكانت الثقافة الشعبية — ممثلة فى الغناء والرقص ، والأسطورة والسلوك وتعاطى المشروبات الروحية — ثقافة حية وغير مقيدة . وفى هذه النواحى الدنيوية غالباً ما كان البوير على تناقض ظاهر مع المبشرين الذين كانوا يوجهون النقد إليهم أى البوير ، بسبب سلوكهم الاجتماعى الفاجر وعقيدتهم الدينية الجامدة بصورة متطرفة .

وعن طريق وقعه على الرأى العام البريطانى كان للنقد الموجه من جانب رجال الإرساليات الدينية تأثير متزايد على موقف وزارة المستعمرات من الجمهوريات . كان رجال الإرساليات يتهمون الفلاحين بمعارضة الأفكار والبعثات المسيحية ، وبالعدوان الجماعى على البانتو ، والعودة إلى شكل من أشكال الاتجار فى الرقيق . لكن البوير اعتقدوا أن البعثات حطمت ما قدره الله من انقسام البشر إلى فئات عليا ودنيا ، وبذلك كان تنصير الخادم اتجاهاً خاطئاً لأن البانتو — بوصفهم من الفئة الدنيا — كانوا بدواً يتعين تنظيمهم ، وتدريبهم على العمل ، ومعاملتهم كالأطفال وذلك من أجل جماعة المجتمع الأرقى

منهم . وعلى خلاف رجال الحدود فى البلاد الأخرى واصل البوير ازدراءهم للتعليم، والتغافل عن التطورات الثقافية فى العالم الخارجى، والمطالبة بقوات كبيرة من الخدم للعمل عندهم .

وفى ميدان الدين كان تعارض الآراء بين مختلف الجماعات البيضاء أوضح منه فى أى مجال آخر . ففى عام ١٨٤٣، أى بعد الهجرة الكبرى بوقت قصير ، تخلى البريطانيون عن الإشراف على الكنيسة المصلحة الهولندية ، مما جعل كنيسة الرأس مجمعاً مستقلاً يتمتع بالحكم الذاتى . وبدأ العداء للأفكار الجديدة ومؤثرات رجال الدين الأسكتلنديين يتضاءل إلى درجة ملحوظة فى مستعمرة الرأس . وزادت أهمية اللغة الإنجليزية ونوع من اللاهوت أكثر اعتدالاً ثم برنامج للارساليات من حين لآخر ، بل لقد ظن البعض أن التجانس بين المستوطنين البوير والبريطانيين أخذ فى الظهور . غير أن اتجاه التنظيم الكنيسى فى الجمهوريات كان ضد هذا .

وفى عام ١٨٦٠ تم توحيد دول الترنسفال الأربع لتكوين جمهورية جنوب أفريقية . ظلت البلاد فقيرة للغاية ومعزولة إلى حد كبير ، وسيطرت المنازعات الدينية على حياة الترنسفاليين السياسية والاجتماعية ، واشتد الجدل حول مسائل من قبيل ألوهية المسيح وشخصية الشيطان .

وفى عام ١٨٤٣ انقسمت الكنيسة المصلحة الهولندية إلى ثلاثة مجامع لكل منها استقلاله — وهى مجامع الترنسفال وبلاد نهر أورنج والرأس . وكان الأخير مستقلاً عن الحكومة الاستعمارية ، ولكنه ظل موضع الشك فى الجمهوريات لأنه قبل استخدام رجال الدين الإنجليز والأسكتلنديين .

انتقل بعض تأثير رجال الشيعة المنهجية إلى المجمعين الهولنديين فى الجمهوريات حتى وإن كانا مستقلين عن مجمع الرأس وينظران إليه بعين الارتياب . هذه المجامع الثلاثة جميعا أطلقت على نفسها اسم

Nederlands Gerefoormeerde Kerk (NGK)

وانشق الكثيرون ممن يشتركون فى العشاء الربانى عن المجامع الثلاثة فى علم ١٨٥٣ وكونوا اما يعرف باسم

Nederlands Hevoormde Kerk (NHK)

وكانت وجهة نظرهم محافظة وتتعارض مع التأثير الأسكتلندى ، وقاومت اللغة الإنجليزية والميول الإنجيلية أو المنهجية . كانت الهولندية اللغة الرسمية للكنيسة ، وأصبح هذا المجمع المقدس دين الدولة فى الترنسفال .

ظل موقف المجمع الأخير « النهيك » NHK من التفرقة العنصرية وموقفه الغامض من فكرة القدر ، لا يلقيان الرضاء من جانب فريق له شأنه ، كون أفراده جماعة كلفنية ثالثة فى عام ١٨٥٩ بقصد تأكيد التفرقة العنصرية وتفسير القدر تفسيراً جامداً ، وتفسير الإنجيل تفسيراً حرفياً . وعارضوا فى استخدام الموسيقى فى الكنيسة ، ورجال الدين الأسكتلنديين ، وبعثات التبشير ، واللغة الإنجليزية والفكرة التى تذهب إلى أن للبانتو أرواحاً . كان مجمع النهيك NHK يعتبر زندقة ، سواء فى هولندة أو فى مستعمرة الرأس أو الجمهوريات . كان يستنكر نظريات جاليليو ، ويرى أن الأرض مسطحة وأن البوير هم شعب المسيح المختار ، وأن البانتو من نسل حام ولا يصلحون إلا لحمل الماء ، وصقل الخشب . كان المنشقون يشكلون جماعة صغيرة جداً ومنطوية على ذاتها ،

ولكنها أخرجت عدداً غير عادى من القادة الذين كان لهم شأن فى السنوات المائة الأخيرة .

وجعل « النهيك » والمنشقون من كنائسهم مراكز للوطنية الثقافية المسيحية الوبيلة ، ووضعوا التأكيد بوضع خاص على اللغة والقومية والطابع الذى يميز ثقافة البوير . وإذ صارت الغلبة لنفوذ المنشقين وزعامتهم أصبحت الحركتان ، وعن عمد ، أكثر عداء للأفكار التجريبية . وإذ اعتقد أتباعهم أن القدر جعل منهم الشعب المختار والذى أنقذ من الخطيئة الأصلية ، أصبحوا ينظرون إلى تاريخهم وزمانهم فى ضوء خاص بهما . لذلك كان حتما أن يهاجموا شركة الهند الشرقية الهولندية السابقة ، والبريطانيين ، والبانتو ، والأفكار الحديثة عن التسامح الاجتماعى أو المساواة — وبعبارة أخرى كل ما كان « ليبراليا » فى النواحى الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية . وعلى نقيض هذا كانت الليبرالية نفسها هى أية حركة أوقوة تهدد تميز البوير — أى أية تهديدات لإلههم وكنيستهم وذاتية شعبهم .

ولما كان المنشقون يسيطرون على «النهيك » ، والأخير هو الدين الرسمى ، لهذا كان لهاتين الشيعتين تأثير مباشر على حكومة جنوب أفريقية . وليس هناك مثال على هذا الأمر أكبر من بول كروجر وهو مبشر من المنشقين دامت رئاسته أكثر من نصف مدة حياة الجمهورية .

وبالرغم من الجهود الكثيرة التى بذلها البريطانيون والبوير والبانتو ، بقصد الوصول إلى شكل من أشكال الحل للمشكلات الملحة فى الثقافة والأرض والسياسة فى جنوب إفريقية ، إلا أنه بحلول الستينات من القرن الماضى كانت الآثار المؤدية إلى الفرقة والهدم ، والمتولدة من التردد والعزلة ، قد أصبحت مزمنة .

الكتاب الثاني

أفريقية تصنع من جديد

رسالة الحرية

ظلت المؤثرات الأوروبية على أفريقية سطحية نسبية حتى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر . فإذا استثنينا جنوب أفريقية وعدداً قليلاً من المزارع البرتغالية المتناثرة ، فلم تبذل محاولة من أجل التوطن الدائم . لقد حل التجار الذين يزاولون التجارة المشروعة لحسابهم محل تجار الرقيق ، وأقامت الإرساليات المسيحية بضع محطات منعزلة . لكن التجارة والإرساليات لم تكن رسمية وغالباً ما كانت غير دائمة . وكان رأس المال الذى استثمر فيها قليلاً ، كما كادت دائماً أن تعتمد على التعاون أو التأييد من جانب الإفريقيين الذين أبدوا نحوها الود .

ونادراً ما توغل الأوروبيون وراء الساحل ، بل إن مصلحتهم فى الأراضى الساحلية اقتصرت على قلة من المناطق التى تدر أكبر الربح . ولم تبذل محاولات حقيقية للتأثير فى نظم الأفريقيين وثقافتهم أو السيطرة عليها أو حتى فهمها . وحينما كانت المستعمرات أو المصالح الأوربية دائمة فقد كانت تعيش فى عزلة عن الأفريقيين — حتى عندما توغل الأوروبيون لأول مرة فى الداخل كما حدث فى جنوب أفريقية . وكان الاستثناء البارز الوحيد محلات المستوطنين البرتغاليين، غير أن هذه كانت تمتصها الحياة الأفريقية دائماً إلا إذا أصبحت منفصلة عنها من النواحى العنصرية والثقافية . وكانت البرتغال قد فرضت حكمها على مناطق معينة يقطنها البانتو ، ولكن البعض لم يبدأوا فى حكم الأفريقيين على نطاق

واسع أو بشكل فعال قبل القرن التاسع عشر ، إذ فى هذا الوقت فقط خضع الزولو للبوير ، والاكسوسا والباسوتو لبريطانيا ، والمسلمون السنغاليون للامبراطورية الفرنسية الثقافية . ولم تفكر بريطانيا فى التخلى عن كل مسئولية اقتصادية وسياسية فى كل من إفريقية الغربية والجنوبية إلا فى أواخر الستينات من القرن ، بالرغم مما ساور الذين يرسمون سياستها ، من أمل فى الاحتفاظ بمزايا معينة . وكانت فرنسا والولايات المتحدة والأراضى الواطئة وإسكنديناوة قد فقدت ما كان لها قليلاً من مصلحة يسيرة ، وإذا استثنينا العرب فما من دولة أجنبية كانت تعرف شيئاً عن أفريقية الشرقية أو تهتم بها .

كانت المذاهب الليبرالية عن التجارة الحرة والاقتصاد المرسل Laissezfaire وتقييد سلطة الحكومة ، وعن المذاهب التى انتشرت على نطاق واسع فى جميع أرجاء أوروبا فى أوائل القرن التاسع عشر ، قد ثبطت العزم على تطبيق أى من الأفكار التى قد تؤدى إلى تورط حكومة ما فى التوسع السياسى والتوسع فى الإنفاق واتخاذ التدابير لأغراض السيطرة والتنمية الاقتصاديتين أو تحمل المسئولية العسكرية . إن استمرار مثل هذا الاتجاه منع ، مثلاً ، من اتخاذ قرار دائم بشأن السيطرة على ساحل الذهب أو الاضطلاع بمسئوليته . وحال دون القيام بأى عمل حاسم إزاء البوير أو البانتو فى جنوب إفريقية . وساعد الاتجاه نفسه على منع أية دولة من الاهتمام الحقيقى بالداخل أو الساحل الشرقى ، ونهى عن قيام التعاون الدائم أو الواسع مع أى من الشعوب الإفريقية . غير أن الظروف أرغمت الأوروبيين أحياناً على الخروج عن مبادئهم فى الحرية الاقتصادية وأبرز مظهر لذلك الموقف الجديد كان الجهود المبذولة من أجل مقاومة البوير ممن اختلفت نظريتهم عن أنظمة أوربا المتحررة فى القرن التاسع عشر .

ومن الأمور الأساسية بالنسبة إلى الليبرالية ، الاعتقاد بأن العلاقات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بين البشر تحكمها قوانين طبيعية لا حول عنها . وطالما تطبق هذه « القوانين » في داخل أوروبا ذاتها وبموافقة الناخبين الأوروبيين ذوى الفكر المتحرر ، فإن أية تناقضات لهذه القوانين الطبيعية أو أية قيود تفرض عليها ، يمكن نسيانها أو تفسيرها . وبالمثل طبقت مستويات الليبرالية على السياسة الأفريقية ، فيجب أن تقلل الحكومات الأوروبية من نفوذها بل وأن تسحبه . وكان من الواضح إلى حد كبير أنه ينبغى لها ألا تتدخل بالمثل فى المجال الاقتصادى .

غير أن القانون الطبيعى كان قابلاً للتطبيق على جميع البشر بغض النظر عن جنسهم أو ثقافتهم أو موضع إقامتهم ، وكان أعظم الجدل بشأن هذه النقطة يدور حول مسألة الرق. فقال الأحرار إنه إذا كان من الخطأ استعباد الأوروبيين فإن من الخطأ بالمثل استعباد الأفريقيين ، وفى سبيل تطبيق هذا الحكم الأخلاقى المطلق كان لابد من إلغاء الرق . ومعنى هذا بطبيعة الحال أن الرق كان شراً بغض النظر عن نمط الثقافة ، ولم يعد فى الإمكان احتمال الاتجار فى العبيد الآدميين أو استخدامهم حتى ولو كانت ثقافتهم تسمح بذلك . إن العلاقة بين الأخلاق وثقافة الفرد لا تقوم على مبدأ النسبية .

كان الهجوم على الرق أول موجات الهجوم الذى شنته الليبرالية . وبعد جدل استطال أمده أصبحت النسبية الثقافية موضع الاستنكار ، وألغى الرق فى جميع المناطق الخاضعة لاختصاص البلاد المتحررة الفكر مثل إنجلترا وفرنسا وإسكنديناوة والأراضى الواطئة . وبقدر ما كان الرق خطأ مطلقاً ، فلم يكن

يكفى أن يحظره البلد الذى كان أهله يمارسون هذه التجارة ، إذ سرعان ما حققت البلاد الأول تحرراً فى الفكر ، السيطرة على أسواق وموارد العبيد الإفريقية التى تركتها إنجلترا المتحررة ، وزاد عدد المنظمين الذين لا يرعون الضمير ، وتدهور شأن الوسطاء الأفريقيين الذين كانت قوتهم وثروتهم تعتمدان على الاتجار بالرقيق أو سعوا وراء منافذ جديدة . كان الحل الوحيد يتمثل فى الضغط على القبائل والشعوب التى واصلت انتهاج هذا الأسلوب وحراسة الطرق البحرية التى يرتادها تجار الرقيق . غير أن مثل هذه الأعمال تتطلب استخدام الدبلوماسية الدولية فضلاً عن قوات عسكرية قوية وكثيرة التكاليف ، وهاتان الطريقتان تتعارضان مع المذاهب الليبرالية عن الحرية الاقتصادية وعدم تدخل الحكومة وخفض نفقاتها . وقنعت معظم الحكومات المتحررة إما بالانسحاب فى هدوء وإما بالاقتصار على التنفيذ الرمزى ، ولكن بريطانيا أصرت فى حزم على عقد سلسلة من الاتفاقات الدولية لمنع الرق . وخلال القرن التاسع عشر وزعت وحدات بحرية بريطانية على الطرق التى يستخدمها تجار الرقيق وذلك من أجل تنفيذ القوانين التى سنتها بريطانيا والمعاهدات التى عقدتها مع الدول الأجنبية .

كانت الاعتبارات الإنسانية تبرر استخدام الدبلوماسية والقوة البحرية مع جميع الأوروبيين . وتمشياً مع المنطق كان نفس الالتزام الإنسانى النزعة يشمل القبائل الأفريقية والدول التى تتاجر فى الرقيق ، والتى كان يؤتى بالعبيد منها منذ أمد طويل ، ولذلك فمن الضرورى القضاء على الرق فى صفوف الإفريقيين أنفسهم وصياغة حياتهم واقتصادياتهم من جديد وفقاً للنموذج الليبرالى . هذه

المهمة أصبحت الرسالة الليبرالية ولكن مضى نصف قرن قبل تحديد مسئولية الحكومة عن هذا الأمر . كذلك كانت هناك بعض الالتزامات الواضحة فى معاهدات التجارة والحماية المعقودة مع القبائل الصديقة . فى أول الأمر عهد بالمهمة فى إفريقية الغربية ، إلى حد كبير ، إلى المنظمين ولكنهم سرعان ما أحدثوا الانزعاج بسبب ما كانوا يبدونه من ميول إلى الاضطلاع بمسئوليات جديدة أو إلى التهاون فى تنفيذ التزاماتهم . وفى جنوب إفريقية بدأ التدخل العسكرى من وقت لآخر ضروريا لمنع تدهور وتفرق مجتمعات البيض والبانتو التى لا يمكن أن يتوافق بعضها مع بعض . لم يكن من اليسير سحب الحكم ، ولكن لم تنبذ النية تماماً على اتخاذ مثل هذه الخطوة إلا فى نهاية الستينات من القرن .

وكان حتما أن يبدى الليبراليون اهتمامهم بنجاح الجهود الإنسانية فى إفريقية ـ بالنسبة إلى الجماهير الأوروبية لم تكن الرسالة الليبرالية والجهود الإنسانية النزعة فلسفية أصلاً . فلما امتزج هذا بالمشاعر الدينية لدى الجماهير وبالرغبة الجماعية فى العمل أكثر منها فى وضع النظريات ، فربما أصبح من المحتوم أن تعمل الليبرالية على إحياء الحماس للارساليات المسيحية ، وبهذه الوسيلة يسعى الأفراد وجماعات المتطوعين بدلاً من الحكومة — إلى إعادة تشكيل الإفريقيين وتوجيههم نحو الأهداف المسيحية التحررية الشاملة . أما أن هناك تناقضاً بين الليبرالية العلمانية والديانة المسيحية ، أو بين مُثل السياسة الحرة والحماس الشديد لإعادة تشكيل ثقافة إفريقية ، فأمر لم يلحظه سوى عدد غير مترابط من المراقبين والمثقفين .

وحتى قبل أن يكون لليبرالية المثالية الشعبية تأثير على إفريقيـة ، كانت

الفلسفة العقلية التي سادت في القرن الثامن عشر قد أشعلت شرارة اهتمام على واسع النطاق . فلأول مرة توغل المغامرون البيض على نطاق كبير في الداخل. غالباً ما كانوا من العلماء الذين يعوزهم التدريب ، ولكنهم جميعاً يشتركون في القدرة على الرواية السليمة ، وفي الإيمان بقيمة وأهمية مجرد الحصول على المعرفة عن الأماكن البعيـــــدة ، وفي العزم على تسليط ضوء على الأساطير والشائعات التي ظلت قروناً تشبع ما في الناس من غريزة حب الاستطـلاع . فتوغل منجو بارك ورينيه كاييه في أعالي النيجر في سنوات ١٧٩٥ — ١٨٠٦ ، ١٨٢٧ — ٢٩ على التوالي ، وسعى كلابرتون والأخوان لاندر وهنريخ بارت إلى اكتشاف النيجـر الأدنى وبلاد الهوسا فيما بين عامي ١٨٢٥ ، ١٨٥٦ . وثمة اهتمام مماثل بجنوب أفريقية خلال الفترة ذاتها دفع بغيرهم إلى ارتياد المناطق الواقعة في غرب الترنسفال وشمالها . لا بد أن جزاءهم النقدي كان ضئيلاً ، بل إن الكثير من المصالح التجارية والسياسية كانت تقف موقف العداء من هؤلاء الساعين وراء العلم والدرس دون أن تحركهم أية مصلحة ذاتيـة . ولم تـكن الجنسيات التي ينتمون إليها سوى أهمية يسيرة في ذلك الوقت — فالكثيرون منهم لم يعرفهم سوى علماء الجغرافيا — وفي نطاق تلك الدائرة المحدودة كان الاستحسان الذي قوبلوا به عالمياً في مداه . وبالرغم من أن هذه الكشوف كانت ثمرة الإيمان العلمي الجديد بالنظام العالمي الشامل والمعرفة ، كما كانت تؤمن الليبرالية ، إلا أن الحركتين نادراً ما تعاونتا في الميدان الإفريقي .

وخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر مالت الحركات التبشيرية إلى تركيز نشاطها على طول حدود مستعمرة الرأس ، أو على امتداد ساحل الذهب

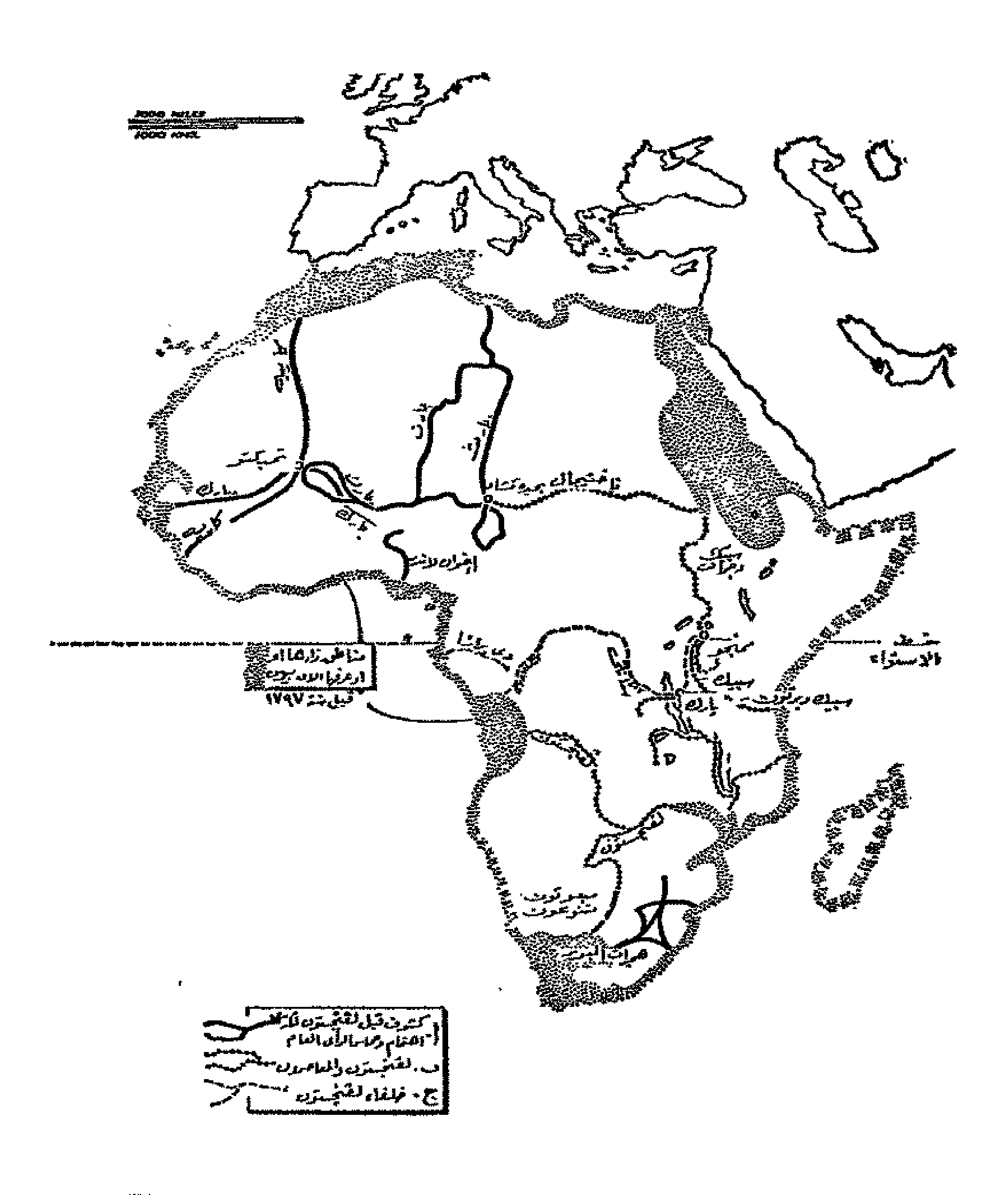
والعبيد حيث كان يبذل الجهد عن عمد لمقاومة ما كان لتاجر الرقيق من تأثير في الأيام السابقة . وفي جنوب أفريقية وبسبب كون السكان من البانتو أشد تفرقاً ، والأرض مكشوفة فسيحة ، والرغبة في مقاومة تأثير البوير ، كل هذا أدى إلى أن يتسع ميدان نشاط الإرساليات بصورة أسرع نحو الداخل عندما اقترب القرن من الانتصاف . هنا جاء العلم والدين والليبرالية المعادية للرق ، لأول مرة ، في شخص دافيد ليفنجستون (١٨١٣ — ١٨٧٣) .

بدأ الدكتور ليفنجستون حياته العملية في عام ١٨٤٠ طبيباً مبشراً عند الحد في جنوب إفريقية ، في إرساليات تعمل منذ وقت طويل في صفوف قبائل السوثو غربي دولة أورنج الحرة مباشرة . وبعد اختلافات متكررة مع البوير الذين كان يختلف عنهم — بوصفه عالماً ورجل كنيسة أسكتلندياً — راح ليفنجستون يكشف جغرافية الداخل وأهله .

وإذا كان يملك استعداداً خاصاً للملاحظات العلمية أسهم بدرجة لها شأنها في توفير المعرفة بتاريخ أفريقية الطبيعي وجغرافيتها ولغاتها . كانت التقارير التي وضعها عن الثقافة أو الشخصيات الإفريقية أقل جلاء إلى حد ما ، ولكن كان يحركه شعور قوي من العدالة والحماس ذي النزعة الإنسانية . وخلال الرحلات المتعاقبة التي قام بها بين عامي ١٨٤١ ، ١٨٥٣ توغل داخل حوض نهر زمبيزي ، وحمل الناس على اعتناق المسيحية ، وعندما حل عام ١٨٥٦ كان قد عبر ذهاباً وإياباً ، الإقليم الواقع بين أنجولا وموزمبيق ، واكتشف شلالات فكتوريا . وبعد ذلك بثلاث سنوات أقام مركزاً كبيراً للتبشير على شواطىء بحيرة نياسا والتي لم يكن أحد يدعي امتلاكها . وأصبحت تقاريره العلمية والتبشيرية التي

كتبها بأسلوب واضح، أوسع المطبوعات انتشاراً بين جمهور القرن التاسع عشر سواء فى أوروبا أو الولايات المتحدة. وثارت موجة من الحماس — وهو ما كان فى ذلك القرن يميز ثقة الناس التى لا حد لها تقريباً فى العلم والدين — وبلغت ذروتها فى موجة من الغضب الشديد حين بعث ليفنجستون بالتقارير الأولى، الواضحة والمفصلة، عن تجارة الرق العربية، إذ أظهر أن تجار الزنج توغلوا بعيداً حتى وصلوا إلى حوض الكنغو، كما وصف نواحى من تجارة إفريقية الشرقية لم تكن معروفة حتى ذلك الحين.

ونجحت تقارير ليفنجستون فى أن تتضمن نداءات علمية ودينية ورومانسية سرعان ما جعلت الصحافة التى تهتم بكل ماهو مثير، على ترويجها ونشرها فى مقالات مسلسلة وفى تضخيمها، وظهر اهتمام جديد بكل من إفريقية الشرقية والوسطى، يختلف تماماً من نواح كثيرة عن الاهتمام السياسى أو الاقتصادى. وفى عام ١٨٦٥ أدى الضغط من جانب تجار الرقيق العرب إلى هجر إرسالية نياسا الأسكتلندية. وقام الدكتور ليفنجستون برحلته الثالثة — وكان غرضه فى هذه المرة أن يجد منبع نهر الكنغو. كان اهتمام العالم بالرحلة أشبه بالحمى. وبالرغم من أن العدائين البانتو كانوا من وقت لآخر يأتون بالرسائل من القاعدة الأمامية التى اتخذها لنفسه على الشاطىء الشرقى لبحيرة تنجانيقا، كان الجمهور فى أوروبا والولايات المتحدة يشعر بالقلق ونفاد الصبر عندما دخلت الحملة فى سنتها الخامسة خلال عام ١٨٧٠. وقرر جيمس جوردون بنيت Bennett ناشر صحيفة نيويورك هيرالد الإثارية، أن يبعث بمخبر ليجمع الأنباء فى جميع أرجاء شرقى البحر المتوسط والهند ومنطقة الاهتمام الجديدة فى شرق أفريقية — بما فى ذلك مقابلة رجل الإرسالية الشهير.



افريقية : الكشوف في القرن التاسع عشر

وقع اختيار بينت للمهمة على جون رولاندز ، وهو رجل من أهل ويلز سبق أن هاجر إلى نيو أورليانز واتخذ لنفسه اسم الرجل الذى تبناه وهو هنرى مورتون ستانلى . وإذ كان ستانلى لا يخشى أبداً أن يهاجم الشخصيات ، أو يؤذى المشاعر ، أو يضفى خياله على القصة البسيطة ، لهذا سرعان ما برز فى عالم الصحافة الزاهر بنيويورك فى الفترة التى أعقبت الحرب الأهلية . وكانت ضروب نشاطه موضع التمويل الجيد ، واشتهرت بما تنطوى عليه أحياناً من روح الضجر وكان يقوم بها فى العادة بأسلوب دراى مثير . كان يتعمد أن يجعل التقارير التى يبعث بها من إفريقية ، بحيث تتفق مع الصورة الشعبية عن القارة « المظلمة » المتوحشة والتى تكمن فيها إمكانيات الثراء . وبعد أن أقام عدة أشهر فى الشرقين الأدنى والأوسط ، قام فى عام ١٨٧١ بتنفيذ الجزء الأفريقى من المهمة التى أسندت إليه . كان بالكاد قد تجاوز الثلاثين من عمره حين وصل إلى زنجبار . هذا الميناء سبق أن استخدمته حملات كثيرة ، وفيه قامت مكاتب القنصلية البريطانية ، وذلك بوصفه قاعدة خلال الجيل السابق سار منها برتون وسبيك إلى بحيرة تنجانيقا فى ١٨٥٤ — ٥٥ ، وسبيك وحده إلى بحيرة فكتوريا ومجارى النيل العليا فى ١٨٥٨ ، وسبيك وجرانت متتبعين النيل إلى مصر فى ١٨٦٠ — ٦٣ . هذه المناطق الداخلية جميعاً كان قد تم الآن ارتيادها ووصفها كلها — باستثناء منطقة النيل . وكانت تصل إليها أيضاً طرق تجارة الرقيق العربية والمتفرعة من زنجبار كلها . وأنفق ستانلى على الحالين وإعدادهم أكثر مما أنفق جميع الذين تقدموه مجتمعين . وإذ سار فى الطريق الذى اتخذه سبيك إلى أوجيجى ، حيث كان المعروف أن الدكتور ليفنجستون يقيم فيها ، اعتمد ستانلى على المرشدين ورجال القوافل العرب . لاعجب أن نجد رجل الإرسالية

العالم قد انعقد لسانه عندما استقبل هذا الخليط الذى لم يسبق له مثيل ، ولم ينطق بكلمة إلى أن قال ستانلى « أظن أنك الدكتور ليفنجستون ؟ » .

وبعد ذلك بعامين ، فى ١٨٧٧ ، جاء حمالو الدكتور ليفنجستون بأول نبأ عن موته ، ثم بجثته وأوراقه بعد ذلك . لقد ترك إفريقية وأقاليمها الواقعة فى وسط القارة لم تعد مجهولة أو منسية،وخلق جواً جديداً بين أهل أوروبا سوف يثير منافسة سياسية واقتصادية جادة ومحاولات قوية للتبشير ، وكانت النتيجة سباقاً قومياً عنيفاً بين الدول الكبرى لاقتطاع مساحات شاسعة من الأقاليم الداخلية . لقد أخذت الرسالة الليبرالية تتحول إلى منافسة استعمارية .

دار الجيل للطباعة ١٤ قصر اللؤلؤة - الفجالة
تليفون ٩٠٥٢٩٦

الموزعون الوحيدون
خارج الجمهورية العربية المتحدة

دار المعارف لبنان

الثمن
١٢٠ ق.ل.

١٢٠ ق.ل.			=	٢ ريال سعودى
	=	٠ر١٦٢ ق.س.	=	٠ر٢١٢ فرنك فى الجز
	=	٠ر١٠٦ فلس فى العراق والأردن	=	٠ر٢١٢ فرنك فى المغر
	=	٠ر١٠٦ فلس فى الكويت	=	٢٢٥ مليم فى السودان